الاسْتِشْرَاق

بَيْنَ الحَقِيقَةِ والتَّضْلِيلِ

مدخل علمي لدراسة الاستشراق

د. إسماعيل علي محمد



الاستشراق
بين الحقيقة والتضليل

مدخل علمي لدراسة الاستشراق

د. إسماعيل علي محمد

أستاذ ورئيس قسم الدعوة والثقافة الإسلامية
في كلية أصول الدين والدعوة بالمنصورة
جامعة الأزهر



الاستشراق
بين
الحقيقة والتضليل

الطبعة السادسة

١٤٣٦هـ ٢٠١٤م

رقم الإيداع بدار الكتب المصرية

١٧٨٠٩/٢٠١٢

الترقيم الدولي

٩٧٨ ـ ٩٧٧ ـ ٣١١ ـ ٤٢٨ ـ ٢



القاهرة . محمول : ٠١٠٩٧٠٧٤٩٥

E-mail: mmaggour@hotmail.com

E-mail:daralkalema_pdp@hotmail.com

www.facebook.com/DarAlkalema


بسم الله الرحمن الرحيم

مُقَدِّمَة

نحمد الله تعالى على سابغ نعمه وتوالي آلائه، ونستزيده سبحانه وتعالى من فضله، ونسأله العون والسداد، ونصلي ونسلم على خير خلقه وخاتم أنبيائه ورسله؛ سيدنا محمد ﷺ، ورضي الله عن آله وأصحابه والتابعين، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين .. أما بعد :

فإن موضوع الاستشراق والمستشرقين من الموضوعات التي حصل بشأنها تلبيسٌ كثير، وأُريد لها أن تُفهَم على غير وجهها الصحيح، وصاحَبها - في بعض الأحيان - تضليلٌ يُعَمِّي على الناس حقيقتها .

وقد تبنَّى أتباعُ المستشرقين وتلامذتُهم في عالمنا الإسلاميِّ والعربيِّ خطَّ الإسراف والمغالاة في تقدير المستشرقين، وجعْلِهم فوق مستوى المؤاخذة والشبهات، وحاولوا تضليلَ الناس وخداعَهم بأن الحركة الاستشراقية ما هي إلا حركة علمية بريئة من الأغراض والأهواء، والتوجّهات العدائية لعالم الإسلام، وأنها لا علاقة لها البتة بمؤازرة القوى المعادية للإسلام والمسلمين، كما حرَص هذا الفريق على رسم صورة مشرقة وضَّاءة للاستشراق، لا تشوبها أيّةُ شائبة على الإطلاق.

وهذا المسلك لا يَعْدو أن يكون خداعا عن الحقيقة، وطمسا لمعالمها.

ونحن لا ننكر أنّ من بين المستشرقين نفرًا قليلين حَمَلوا أنفسهم على التزام الموضوعية، والنزاهة والتجرد لطلب الحق، وقد آل الأمر ببعضهم - بسبب هذه الموضوعية - إلى اعتناق الإسلام دينا، والرضا بالله تعالى ربًّا، وبرسوله محمد ﷺ نبيًّا ورسولا.

ولكنَّ هذه القِلةَ النزيهةَ من المستشرقين لم تحتلّ - مع الأسف - موقعا مرموقا في إطار الحركة الاستشراقية، بل لم تستطع أن تشكل تيارا بارزا فيها، لأسباب

سوف تتضح في ثنايا البحث.

ومن المؤسف أن مسلك التضليلِ الذي تبنّاه تلامذةُ المستشرقين والمبشرين، وأشياعُهم من المتغربين والعلمانيين في عالمنا الإسلاميِّ والعربيِّ، أُريدَ له أن يكون النبرةَ السائدة، وصاحِبَ الصوت العالي في حياتنا الفكرية.

لهذا وغيره كانت هذه الدراسة « الاستشراق بين الحقيقة والتضليل »، التي حاولْتُ ـ من خلالها ـ أن أُجَلِّيَ حقيقة الأمر في هذا الموضوع الخطير، مدلِّلا على كلِّ قضية أسوقها، أو رأيٍ أذهب إليه، فإن وُفِّقْتُ للصواب فمن فضل الله تعالى، وإن كان غير ذلك فمن نفسي، وأستغفر الله من كل تقصير.

وقد أردتُ أن يكون هذا البحث بمثابة مدخل إلى دراسة موضوع الاستشراق والمستشرقين، بيّنْتُ فيه حقيقةَ الاستشراق ومفهومَه، وذكرْتُ إطلالةً على نشأته وتاريخه، ودوافعَه، ووسائلَه، ثم أمَطْتُ اللثام عن ملامح منهج البحث الاستشراقيِّ في الدراسات الإسلامية، ثم ختمْتُه بذكر نماذج من حملات المستشرقين ومفترياتهم على الإسلام، مقرونة بالرد عليها ونقْضِها.

وقد كان هذا البحثُ في أصله مجموعةً من المحاضرات دُرِّست على طلاب وطالبات كليات أصول الدين والدعوة، واللغة العربية، والدراسات الإسلامية والعربية، في جامعة الأزهر.

وإني لأرجو الله تعالى أن يتقبله بقبول حسن، وأن يعم به النفع، ويُنصَف به الحق، وأن يكون في ميزان حسناتي يوم العرض على الله.

إسماعيل علي محمد

الجمعة: ١٨ من جمادى الآخرة ١٤١٩هـ

٩ من أكتوبر ١٩٩٨م

في: كفر حماد ـ كفر صقر ـ الشرقية ـ مصر

الفصل الأول
ضوء على الاستشراق وتاريخه

المبحث الأول
مفهوم الاستشراق والمستشرقين

المبحث الثاني
إطلالة على تاريخ الاستشراق

المبحث الأول

مفهوم الاستشراق والمستشرقين

الاستشراق في اللغة :

الاستشراق فِعْلُه « شَرَق »، يُقال: « شرَقت الشمسُ: طلَعت ، وبابه نَصَر ودَخَل » [(١)]، وشرَّق: أخذ في ناحية المشرق، والشرْق: الشمس وجهة شروق الشمس، وشجرة شرقية: تَطلُع عليها الشمس من شروقها إلى نصف النهار»[(٢)].

ويقرر الدكتور "إسحاق موسى الحسيني" أن « لفظةَ: (استشرق) ومشتقاتها مُوَلّدة، استعملها المُحْدَثون من ترجمة كلمة Orientalism ، ثم استعملوا من الاسم فِعلاً، فقالوا: استشرق، وليس في اللغات الأجنبية فِعلٌ مرادفٌ للفعل العربي، والمدققون يُؤْثرون استعمال (عُرْباني) لدارس العربية مقابلة للفظة Arabist ، ولكن لفظة «استشرق» ولفظة «مستشرق» قد شاعتا شيوعا كبيرا، ولا بأس من استعمالهما في بحثنا هذا » [(٣)] .

---

(١) مختار الصحاح، محمد بن أبي بكر بن عبد القادر الرازي ص ١٤١، مكتبة لبنان- بيروت ١٩٨٨م.

(٢) المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية بالقاهرة ١/ ٤٩٩، ط الثالثة.

(٣) فلسفة الاستشراق وأثرها في الأدب العربي الحديث، د/ أحمد سمايلوفيتش ص ٣٠. دار المعارف – مصر، نقلا عن: الاستشراق نشأته وتطوره وأهدافه، د. إسحاق موسى الحسيني، ج ١.

الاستشراق في الاصطلاح :

يعدُّ مصطلح « الاستشراق » وما يشتق منه نحو « مستشرق » ؛ من التسميات الحديثة، وإن كان مدلولها قديما ، كما سيظهر لنا عند الإشارة إلى نشأة الاستشراق وتاريخه .

كما أن تعريفات الباحثين لمصطلح الاستشراق منها ما يتّسم بطابع التعميم في بيان مفهومه ، من حيث هو دراسة علوم الشرق ـ عامة ـ وأديانه ولغاته ... إلخ ، مثل ما ذكره « الزيات » ، و« ر. بارت » ، وموسوعة «المنجد ».

ومنها ما يتّسم بطابع التخصيص ، أي تخصيصه بالشرق الإسلامي ، والحضارة الإسلامية ، كما جاء في « الموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب المعاصرة »، وكما ذكر « مالك بن نبيّ » .

يقول أحمد حسن الزيات : « يُراد بالاستشراق اليوم : دراسة الغربيين لتاريخ الشرق وأممه ولغاته وآدابه وعلومه وعاداته ومعتقداته وأساطيره ، ولكنه في العصور الوسيطة كان يُقصَد به دراسة العبرية لصلتها بالدين ، ودراسة العربية لصلتها بالعلم ، إذْ بينما كان الشرق من أدناه إلى أقصاه مغمورا بما تُشعّه منائر بغداد والقاهرة من أضواء المدنية والعلم ؛ كان الغرب من بحره إلى محيطه يَعْمَه في غياهبَ من الجهل الكثيف والبربرية الجموح » (١) .

ويذهب المستشرق الألماني " بارت " إلى القول بأن الاستشراق يختص بفقه اللغة خاصة، وبما أن الكلمة مشتقة من كلمة " شرق " التي تعني مَشْرِق الشمس؛ فإنه يرى أن الاستشراق هو علم الشرق ، أو علم العالَم الشرقيّ ، ثم

(١) تاريخ الأدب العربي. ص ٥١٢. دار نهضة مصر . القاهرة.

يحاول تحديد مفهوم مصطلح الشرق وما تعنيه الكلمة في هذا المقام، فيتبين أن هذه الكلمة تعرضت إلى تغيير في معناها الجغرافي بحسب العصور وحوادث التاريخ، ثم يخلص إلى القول: ومهما يكن من أمر فإن الاسم لا يبين بوضوح مستقيمٍ المقصودَ منه بالضبط، والمهم هو الموضوع [1].

وجاء في موسوعة « المنجد » أن «المستشرق : العالمُ باللغات والآداب والعلوم الشرقية ، والاسم الاستشراق » [2].

وفي ضوء ما ذُكِر من التعريفات وغيرها مما في معناها ، يمكننا القول بأن السين والتاء إذا زيدتا في كلمة قُصد بهما الطلب ، مثل قولنا : استغفر أي طلب الاستغفار، واستنصح أي طلب النصيحة ، وكذا استسقى واستطعم ..

وعليه فيكون الاستشراق ـ بالمفهوم العام ـ هو طلب علوم الشرق وآدابه ، واستشرق يعني طلَبَ وأراد تعلُّمَ ودراسةَ علومِ الشرقِ وآدابِه .

والمستشرقون هم قوم من غير الشرقيين ، أو هم الغربيون الذين تخصصوا في دراسة الشرق من كافة جوانبه ؛ علومه وتاريخه وأديانه ولغاته وآدابه وشعوبه ... إلخ ، لأهداف مختلفة ، ودوافع شتى .

وجاء في تعريف " الموسوعة الميسرة " للاستشراق أنه: « هو ذلك التيار الفكري الذي تمثل في الدراسات المختلفة عن الشرق الإسلامي، والتي

---

(١) فلسفة الاستشراق ص ٢٣- ٢٤، نقلا عن ر . بارت: الدراسات العربية والإسلامية في الجامعات الألمانية. ص ١١، ١٢.

(٢) المنجد في اللغة والأعلام. ص ٣٨٤. دار المشرق. بيروت. ط الثالثة والثلاثون ١٩٩٢م.

شملت حضارته وأديانه وآدابه ولغاته وثقافته .

ولقد أسهم هذا التيار في صياغة التصورات الغربية عن العالم الإسلامي ، معبِّرا عن الخلفية الفكرية للصراع الحضاري بينهما » [1] .

ويقول مالك بن نبي: « إننا نَعنِي بالمستشرقين : الكُتّابَ الغربيين الذين يكتبون عن الفكر الإسلامي ، وعن الحضارة الإسلامية .

ثم علينا أن نصنف أسماءهم في شبه ما يسمى « طبقات » على صنفين :

أ ـ من حيث الزمن: طبقة القدماء مثل "جربر دور بياك"، والقديس "توماس الإكويني"، وطبقة المُحْدَثين مثل "كاره دوقو"، و "جولد تسيهر".

ب ـ من حيث الاتجاه العام نحو الإسلام والمسلمين لكتاباتهم : فهناك طبقة المادحين للحضارة الإسلامية، وطبقة المنتقدين لها، المُشَوِّهين لسمعتها» [2] .

والذي يعنينا في بحثنا هو هذا المفهوم الخاص للاستشراق .

---

(١) الموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب المعاصرة ص ٣٣. الندوة العالمية للشباب الإسلامي. الرياض. ط الثانية ١٤٠٩هـ ١٩٨٩م.

(٢) إنتاج المستشرقين وأثره في الفكر الإسلامي الحديث . ص ٥. دار الإرشاد . بيروت . ط الأولى ١٣٨٨هـ ١٩٦٩م.

هذا؛ وسياق كلام مالك بن نبيّ رحمه الله يوحي بأن مَن أَطلَق عليهم: « طبقة المادحين للحضارة الإسلامية » يكافئون في الحجم والوزن مَن أسماهم: « طبقة المنتقدين لها المُشَوِّهين لسمعتها »، والواقع أن المادحين أو المنصفين للإسلام لا يشكّلون إلا فئة قليلة العدد، ضعيفة التأثير في إطار الحركة الاستشراقية ، وأن السواد الأعظم مِن المستشرقين هم مَن يتفننون في التحامل على الإسلام وحضارته ـ كما سيتبين هذا في ثنايا البحث ـ.

المستشرق لا يكون عربيا :

هـذا ؛ ومـن خـلال استقراء المراجع والدراسـات التـي تناولـت موضـوع الاستشراق يُلاحَظ أنها ـ في الجملة ـ تفيـد بـأن المستشرق إنـما هـو شـخص غـربيّ ، ولا فرق بين أن يكون نصرانيا أو يهوديا أو مسلما ، أو حتى ملحدا ينكر الـدين مـن أصله، وإن كان السواد الأعظم ممن ركِب تيارَ الحركـة الاستشراقية هـم مـن غـير المسلمين ، المهـم أنـه ـ بحسب تلك المراجع والدراسات ـ باحـث غـربي يطلـب دراسة علوم الشرق ، خاصة الشرقَ الإسلاميَّ العربيَّ ، وهذا ما تميل النفس إليه .

لكــن " نجيــب العقيقــي " صــاحِب الكتــاب الموســوعة عــن الاســتشراق والمستشرقين قد شذّ عن هذا الإجماع ، حينما ذكر بعض الرهبان العـرب والـشرقيين ضمن المستشرقين ، وممـن عـدّهم : الأب « جـورج قنـواتي » المولـود في الإسكندرية مـن أصـل سـوريّ ، والأب « هنـري عـيروط » المولـود في القـاهرة ، والأب « نويـا » المولود في الموصل بالعراق ، والأب « سمير خليل » المولود في القـاهرة .. وغـيرهم ، إلى أن عدّ نفسَه هو من المستشرقين ، مع أنه وُلِد ونشأ وتعلم في لبنان [1] .

ومن عجب أن العقيقيَّ الذي عدّ نفسه ضـمن المستـشرقين نـراه في ذات الوقـت يتحدث عنهم بصيغة الآخَر ، فهو يقول ـ على سبيل المثال ـ : « لقد بلـغ المستـشرقون مـن تعـاليم لغاتنـا وحفـظ تراثنـا والكـشف عـن آثارنـا وإحيائهـا بالنـشر والترجمـة والتصنيف ذلك المبلغ لمنهج ومميزات ووسائل لم تتوفر جميعا لنا من قبل » [2] .

---

(١) راجع : المستشرقون. للعقيقي ٣/ ٢٧٠ ، ٣١٤ – ٣١٦ ، ٣١٨ ـ ٣٣٨ ، دار المعـارف، مصر، ط الرابعة .

(٢) السابق ٣ / ٥٩٨.

المبحث الثاني

إطلالة على تاريخ الاستشراق

نشأة الاستشراق

لا شك أن تاريخ الدراسات الاستشراقية ـ خاصة تلك المتعلقة بالشرق الإسلامي وحضارته ـ قديم، غير أن آراء العلماء والباحثين تتباين بشأن تحديد البدايات التاريخية لتلك الدراسات ، وتتجه أكثر الآراء إلى تحديد فترة زمنية ، وليس إلى تحديد سنة بعينها لبداية الاستشراق .

يقول السباعي : « لا يُعرَف بالضبط مَن هو أول غَرْبيّ عُنِي بالدراسات الشرقية ولا في أيّ وقت كان ذلك ، ولكن المؤكَّد أن بعض الرهبان قصدوا الأندلس[١] في إبان عظمتها ومجدها، وتثقّفوا في مدارسها ، وترجموا القرآن والكتب العربية إلى لغاتهم ، وتتلمذوا على علماء المسلمين في مختلف العلوم ، وبخاصة في الفلسفة والطب والرياضيات .

---

(١) ابتدأ فتح المسلمين لبلاد الأندلس في شهر شعبان سنة ٩٢هـ (٧١١م) بقيادة طارق بن زياد، تاريخ الإسلام السياسي والديني والاجتماعي . د/ حسن إبراهيم حسن ١/ ٣١٣ بتصرف . دار الأندلس . بيروت . ط السابعة ١٩٦٤م .

وقد ظلت الأندلس تحت حكم المسلمين حتى القرن الثالث عشر الميلادي ، حين استردّ ملوك قشتالة معظمها ، ولم تبق إلا مملكة غرناطة العربية التي سقطت في يد الملوك الكاثوليك سنة ١٤٩٢م، وكانت الفترةُ الإسلاميةُ العربيةُ العهدَ الذهبيَّ للأندلس، وكانت المدن الإسلامية فيها قرطبة وإشبيلية وغرناطة مراكزَ مشهورة للثقافة والعلم والفن. الموسوعة العربية الميسرة ١/ ٢٤١ ـ ٢٤٢ باختصار وتصرف .

ومن أوائل هؤلاء الرهبان الراهب الفرنسي « جربرت »الذي انتُخِب بابا لكنيسة روما عام ٩٩٩م ، بعد تعلّمه في معاهد الأندلس وعودته إلى بلاده ، و«بطرس المحترم ١٠٩٢ – ١١٥٦» ، و « جيرار دي كريمون ١١١٤– ١١٨٧» .

وبعد أن عاد هؤلاء الرهبان إلى بلادهم نشروا ثقافة العرب ومؤلفات أشهر علمائهم ، ثم أُسِّسَت المعاهد للدراسات العربية أمثال مدرسة « بادو » العربية ، وأخذت الأديرة والمدارس العربية تدرس مؤلفات العرب المترجَمة إلى اللاتينية - وهي لغة العلم في جميع بلاد أوربا يومئذ - واستمرت الجامعات الغربية تعتمد على كتب العرب، وتعتبرها المراجع الأصلية للدراسة قرابة ستة قرون »[1] .

وهناك من الباحثين من يرى أن بداية الاستشراق الأوربي كانت في القرن الثالث عشر الميلادي ؛ حيث صدر قرار مجمع " فيينا " الكنسي عام ١٣١٢م بإنشاء عدد من كراسي اللغة العربية في عدد من الجامعات الأوربية .

ومن الباحثين من يذهب إلى القول بأنه بدأ في القرن العاشر الميلادي .

بينما يذهب البعض إلى أنه بدأ في القرن الثاني عشر الميلادي ؛ حيث تمت فيه

---

(١) الاستشراق والمستشرقون ما لهم وما عليهم، د/ مصطفى السباعي، ص ١٣ـ ١٤. المكتب الإسلامي – بيروت، ط الثالثة ١٤٠٥هـ ١٩٨٥م .
وممن يرى هذا الرأي المؤرخ الإنجليزي «ملر» في كتابه فلسفة التاريخ - كما نقل عنه الزيات في كتابه: تاريخ الأدب العربي ص ٥١٣ -، وكذلك «برنارد لويس» في كتابه: تاريخ اهتمام الإنجليز بالعلوم العربية - بحسب ما نقل عنه سمايلوفيتش في كتابه: فلسفة الاستشراق، ص ٥٧ - ٥٨- .

ترجمة القرآن إلى اللاتينية لأول مرة عام ١١٤٣م بتوجيه الأب " فيزابل "، وفي هذا القرن أيضا أُلِّف أول قاموس لاتيني عربي .

ويرى البعض أنه بدأ في مطلع القرن الحادي عشر الميلادي [1] .

وقد جعل " نجيب العقيقي " مؤلَّفه عن الاستشراق والمستشرقين ـ والذي يقع في ثلاثة أجزاء – سِجلا لحركة الاستشراق على مدى ألف عام ، بدءً من القرن العاشر الميلادي ؛ حيث أخذ يرصد طلائع المستشرقين منذ ذلك التاريخ، فذكر في مقدمتهم «جربر دي أورالياك ، الذي انتُخب حَبرا أعظم باسم « سلفستر الثاني ٩٩٩ ـ ١٠٠٣ »فكان أول بابا فرنسي ، ثم ثنّى بـ « قسطنطين الإفريقي » المتوفى عام ١٠٨٧م ، وبعده « أوجودي سانتالا »، وغيرهم حتى الأسقف « جويستنياني » المولود عام ١٤٧٠م ، و « ليون الأفريقي ١٤٩٤– ١٥٥٢ » [2].

ويذهب أحد الباحثين إلى أن بداية الاستشراق تعود إلى منتصف القرن الثامن الميلادي بعد فتح الأندلس عام ٧١١م ، فيقول: « وهناك أدلة قاطعة على أن الاستشراق قد نشأ حقا في منتصف القرن الثامن الميلادي في الأندلس ... إلى آخر كلامه » [3].

---

(١) راجع هذه الآراء تفصيلا في: فلسفة الاستشراق ص ٥٤ ـ ٥٩، الاستشراق والخلفية الفكرية، ص ٢٥ وما بعدها، تاريخ الأدب العربي ص ٥١٢ ـ ٥١٣، الفكر الإسلامي الحديث وصلته بالاستعمار الغربي، د. محمد البهي ص ٤٢٩، مكتبة وهبة – القاهرة، ط العاشرة .

(٢) راجع: المستشرقون ١/ ١١٠وما بعدها .

(٣) فلسفة الاستشراق، أحمد سمايلوفيتش ص ٦٧ ـ ٦٨، وقد نقل بعضَ الأدلة على رأيه =

وإذا كانت الآراء حول نشأة الاستشراق وبداية مسيرته لم تكن متفقة فيها بينها ـ على نحو ما أشرنا ـ ؛ فإنه يمكننا أن نقرر مطمئنين أن ظهور الاستشراق لم يتأخر عن القرن العاشر الميلادي (الرابع اهجري)، حيث كان النشاط العلمي للمسلمين في الأندلس إبان فتحهم لها مصدر ولادة الاستشراق ، وباعث انطلاقته.

تأخُّر ظهور مصطلح « الاستشراق » في أوربا :

ومع أن الاستشراق قد ظهر إلى الوجود منذ ذلك الزمن القديم فإن المصطلح نفسه لم يظهر في أوربا إلا في القرن السابع عشر الميلادي ، كما يتضح هذا من كتابات الباحثين المعنيين .

يقول " آ . آربري " : « وأول استعمال رأيناه لكلمة « مستشرق» سنة ١٦٣٠م، حيث أُطلِق على أحد أعضاء الكنيسة الشرقية أو اليونانية، وفي سنة ١٦٩١م وجدنا « أنتوني وود » يصف «صمويل كلارك» بأنه (استشراقيٌّ نابه)، يعني بذلك أنه عرَف بعض اللغات الشرقية » [1] .

بينما يقرر المستشرق الفرنسي " مكسيم رودنسون " في معرض حديثه عن تاريخ الاستشراق قائلا : « وقد ظهرت كلمة «مستشرق» في انجلترا حوالي عام ١٧٧٩م ، وفي فرنسا عام ١٧٩٩م ، وأُدرِجت كلمة « الاستشراق » في

= من كتاب: تاريخ الفكر الأندلسي، تأليف جونثالث يالتثيا، ترجمة حسين مؤنس، ص ٤٨٥ ـ ٤٨٦، وراجع في ذات الرأي : المستشرقون والإسلام . زكريا هاشم زكريا . ص ١٧ . طبعة المجلس الأعلى للشئون الإسلامية بالقاهرة ١٣٨٥هـ ١٩٦٥م. نقلا عن المؤرخ «دوزي» في كتابه عن «الإسلام الأندلسي» .

(١) فلسفة الاستشراق. ص ٢٢، نقلا عن المستشرقون البريطانيون ، آربري . ص ٧ ـ ٨ .

قاموس الأكاديمية الفرنسية عام ١٨٣٨م ، وأخذت فكرة إيجاد فرع متخصص من فروع المعرفة لدراسة الشرق تَلَقَى المزيد من التأييد » [1] .

لكن تأخر ظهور مصطلح « الاستشراق » حتى التاريخ المشار إليه لا يعني أن الاستشراق لم يكن موجودا من قبل ، بل على العكس من ذلك ـ كما سبق أن ذكرنا ـ ، وأما ظهور هذا المصطلح فإنما هو تقرير وتوصيف لأمر واقع وكائن منذ قرون طويلة .

ونحن نجد في حياتنا الفكرية والثقافية مصطلحات لم تكن قديمة قِدَم مدلولاتها ، مثل مصطلح « الغزو الفكري أو الثقافي »، الذي يُعَدّ أحدثَ من مدلوله ، والذي يُقصَد به : محاربة الخصم ومحاولة القضاء عليه بالطُّرُق غيرِ العسكرية ، فإن توصيف هذا الضرب من الحروب وإطلاقَ مصطلح « الغزو الفكري »عليه ـ وإن جاء متأخِّرا ـ لا يعني أن الحرب الفكرية لم تكن موجودة قبل إطلاق هذا المصطلح ؛ بل هو تقرير لأمر واقع منذ عشرات القرون .

بدايات الاستشراق كانت على أكتاف الرهبان

ثم إن الاستشراق في بداية نشوئه وظهور أمره قد قام على أكتاف رجال الدين النصارى ، كما يتبين هذا من استقراء تاريخ الاستشراق ، حيث « كان الرهبان في طليعة المستشرقين » [2].

---

(١) تراث الإسلام، تصنيف جوزيف شاخت، كليفورد بوزورث، ترجمة د/ محمد زهير السمهوري وآخرين ١/ ٧٣، سلسلة عالم المعرفة بالكويت، ط الثالثة، عدد المحرم ١٤١٩هـ مايو ١٩٩٨م، وانظر: فلسفة الاستشراق ص ٢٤، الاستشراق والخلفية الفكرية ص ٢٧.

(٢) المستشرقون للعقيقي ٣/ ٢٤٩.

وقد ذكر منهم العقيقيُّ عددا غير قليل ، ومن هؤلاء :

ـ « جربرت أورالياك ٩٣٨ ـ ١٠٠٣م » ، الذي انتُخِب بعد ذلك حبرا أعظم باسم « سلفستر الثاني » .

ـ و « بطرس المكرم ١٠٩٤ ـ ١١٥٦م » ، الذي عاد إلى دِيره في فرنسا بعد رحلته إلى الأندلس (١١٤١ ـ ١١٤٨م) وطفق يصنف الكتب في الردّ على علماء الجدل المسلمين وشجْب اليهود .

ـ والأسقف « أوف تشستر » (اشتُهِر من عام ١١٤١ إلى ١١٤٨م) والذي اشترك هو وزميله « هرمان الدلماطي » (المتوفَّى ١١٧٢م) في ترجمة القرآن باللاتينية عام ١١٤٣م ، بإيعاز من « بطرس المكرم » .

ـ ومنهم « توما الإكويني ١٢٢٥ ـ ١٢٧٤م » .

ـ وأستاذه « ألبر الكبير ١٢٠٦ ـ ١٢٨٠م » .

ـ و « رايموند ومارتيني ١٢٣٠ ـ ١٢٨٤م »الذي ألّف كتاب (خنجر الإيمان) ، وجعله في الرد على المسلمين واليهود ، واعتمد فيه على حجج الغزالي وغيره ممن تصدّوا لمجادلة المشّائين .

ـ ومنهم المبشر « رايموند ولوليو ١٢٣٥ ـ ١٣١٤م » [1] .

صورة الإسلام في الدراسات الاستشراقية القديمة:

وقد كان احتكاك النصارى بالمسلمين في الأندلس ، ثم في غمار الحروب الصليبية [2] التي خرج الغرب النصرانيُّ منها يجر أذيال الخيبة والهزيمة ، من

---

(١) راجع السابق ١/ ١١٠ ـ ١٢٤.

(٢) الحروب الصليبية: هي سلسلة حروب شنها المسيحيون الأوربيون بين القرنين =

الأمور التي ألهبت حماس الغرب لدراسة الإسلام بروح عدائية حقود ، فقدَتِ اتّزانَها واختلّت موازينُها في نظرتها وحديثها عن الإسلام والمسلمين .

وقد نشط الصليبيون في ذلك الوقت المبكر في الهجوم على الإسلام وأهله ، والانتقاص من قدْره ، والحطّ من قيمة المؤمنين به ، وتولَّى اللاهوتيون النصارى كِبرَ حملات ذلك الهجوم المسعورة ، وكان لهم صولات وجولات في نسج المفتريات والأباطيل ، ولم يكن لهم من مصدر لذلك كلِّه سوى الخيال ، والأساطير التي لا صلة لها بالحقيقة أو الواقع من قريب ولا من بعيد .

يقول المستشرق « جوستاف إ . فون جرونيباوم » ـ في معرض حديثه عن صورة الإسلام في الفكر المسيحي في العالم الوسيط ـ :

« وفضلا عما أظهره الغرب من إنكار النبوة على ذلك النبي الكريم ؛ كان

= الحادي عشر والثاني عشر الميلاديين، لاستعادة الأراضي المقدسة وبخاصة القدس من المسلمين، وقد كان دافعها المباشر هو الموعظة التي ألقاها البابا « أربان الثاني » في مجمع «اكلرمونت» سنة ١٠٩٥م، وحثّ فيها العالم المسيحي على الحرب لتخليص القبر المقدس من المسلمين ، ووعد المحاربين بأن تكون رحلتهم إلى الشرق بمثابة غفران كامل لذنوبهم، كما وعدهم بهدنة عامة تحمي بيوتهم خلال غيبتهم ، وقد أخذ الصليبيون اسمهم من الصلبان التي وُزِّعت عليهم خلال الاجتماع ، وكانت تسعَ حملات شنها الصليبيون ، بدأت الأولى عام ١٠٩٥م بقيادة « ولتر المفلس » و « بطرس الناسك » وآخرين غيرهما ، والتاسعة كانت عام ١٢٧١ : ١٢٧٢م ، وفي سنة ١٢٩١م سقطت عكا آخر معقل للصليبيين في الأراضي المقدسة. الموسوعة العربية الميسرة. بإشراف محمد شفيق غربال ١/ ٧٠٩ باختصار وتصرف . دار إحياء التراث العربي . صورة طبق الأصل من طبعة ١٩٦٥م .

أدب الغرب في القرون الوسطى تستهويه فكرة محمد الرب (كذا !!)، والحق أن هذه الفكرة لم تُنبَذ نبذا تاما قبل منتصف القرن السابع عشر ، عندما كان الكُتّاب المسرحيون لا يزالون يمثلون المسلمين أحيانا في صورة مَن يصلون ويتعبدون لربهم محمد .

وترى أغنية « رولان »[1] المسلمين وثنيين أقحاحا، يعبدون (مجموعة من الآلهة) مركبة تركيبا عجيبا من: « ما هو مت » (كذا !!)، و « أبولون »، و «جيوبين» و « ترافاجانت »، وفي مواضع أخرى يُضَم « الكارون » (القرآن) إلى مجموعة الآلهة .

وهم يرون أن لهذه الآلهة ـ وبخاصة محمد ـ تماثيل مصنوعة من الذهب والفضة، وهي تُعبَد في مناسك مفصّلة، وتُستنزَل معونتُها قبل القتال، فإذا حلّت بهم الهزيمة لعنوا الآلهة وأهانوها وجرروها في الثرى، بل لقد يحطمونها.

---

(١) هي أغنية تمثل فرسان « شارلمان » وهم يحطمون أصنام المسلمين . حاضر العالم الإسلامي . تأليف لوثروب استودارد ١/ ٨٤ ، من حواشي شكيب أرسلان على الكتاب . نقلا عن « درمنجهم » في كتابه : (حياة محمد) .
و «رولان» بطل الأنشودة المعروفة باسمه، وهي إحدى المقطوعات التي تتغنى بـ «شارلمان» في القرن الحادي عشر، وكان « رولان » شخصية حقيقية، عمل ضابطا في جيش «شارلمان» الذي توجه لغزو أسبانيا ، عام ٧٧٨م ، وقُتِل في معركة وقعت عند ممرٍّ في جبال البرانس، قتله سكان المنطقة ، ولكن الأسطورة تنقل المعركة إلى أرض أخرى ، وتجعل الأعداء هم العرب ، وتبالغ في الحادث وفي شجاعة البطل ، والملحمة من أحب الملاحم في العصور الوسطى على نفوس سامعيها ، ويتطور البطل ليتألف منه أبطال آخرون لملاحم أخرى على شاكلة الملحمة المشهورة ، وقد دُرِّست كثيرا وتُرجمت إلى لغات عدة . الموسوعة العربية الميسرة ١/ ٨٩٧ .

والهزيمة هي المصير العاديّ لكل عربيّ » [1] .

وهكذا أطلق هؤلاء الكتاب العِنان لجهالاتهم وخيالاتهم المريضة ، وافتروا على الله الكذب ، ولم يفكروا ساعة من ليل أو نهار في إنصاف الحقيقة، والانحياز إلى الأمانة والموضوعية ، بل أفصحوا بألسنتهم عن أحقادهم الكامنة، التي تسيطر عليهم وتتملكهم عند دراسة الإسلام .

وهذا واحد من أصحاب ذلك الأدب المُسِفّ في العصور الوسطى ، وهو «جيبرت النوجنتي» أو « غيلبرت دونوجنت » (ت ١١٢٤م) قد اعترف بأنه لا يوجد لديه مصادر مكتوبة ، وأشار فقط إلى آراء العامة ، وأنه لا يوجد لديه أية وسيلة للتمييز بين الخطأ والصواب .. ثم قال في الختام ـ في صفاقة يُحسَد عليها ـ :

« لا جُناح على الإنسان إذا ذكر بالسوء مَن يفوق خبثُه كلَّ سوء يمكن أن يتصوره المرء » [2] .

وهكذا يبرر ذلك الأثيمُ كتاباتِه غير العلمية عن الإسلام والرسول ﷺ.

بقاءُ الروح العدائية للإسلام مصاحِبة لمسيرة الاستشراق:

ثم أخذت مسيرة الاستشراق تتواصل عبر القرون والأجيال، تهيمن عليها تلك الروح العدائية البغيضة للإسلام وأهله، غير أنها كانت تخفّ حِدّتُها لدى

---

(١) حضارة الإسلام . جوستاف إ . فون جرونيباوم . ترجمة عبد العزيز توفيق . ص ٧٠. الهيئة المصرية العامة للكتاب . القاهرة ١٩٧٧م .

(٢) تراث الإسلام ١/ ٣٧ : ٣٨، واسمه هنا « غيلبرت دونوجنت » وانظر: حضارة الإسلام . جوستاف إ . فون جرونيباوم . ص ٦٩ . وقد سماه: « جيبرت النوجنتي » .

بعض المستشرقين، ويخفت صوتُها في بعض الأحيان، لكنها لا تلبث أن تطل برأسها معلنةً وجودَها، ولم يسلم منها إلا طائفة قليلة، سوف تأتي الإشارة إلى بعضهم لاحقا ، ولم يفُتِ اليهودَ أن يلحقوا بقطار المسيرة الاستشراقية، فيتعمق بهم ويتأصل تيار العداء للإسلام ، ذلك التيار الفاحش الذي لا يزال فاعلا، وممتدًّا أفقيّا ورأسيا .

تزايد اهتمام الغربيين بالاستشراق في العصر الحاضر:

وأخذ اهتمام الغربيين بالاستشراق يتزايد عاما بعد عام ؛ فيُنشِئون الكراسيَّ ـ أو الأقسام ـ والمعاهد الخاصة به في جامعات أوربا ، ويؤسسون المكتبات ، ويشجعون الأفراد لِوُلوج ميدانه ، ويغدقون عليهم المنح والأموال ... إلخ .

« حتى جاء القرن الثامن عشر – وهو العصر الذي بدأ فيه الغرب في استعمار العالم الإسلامي ، والاستيلاء على ممتلكاته – فإذا بعدد من علماء الغرب ينبغون في الاستشراق ، ويصدرون لذلك المجلات في جميع الممالك الغربية ، ويُغِيرون على المخطوطات العربية في البلاد العربية والإسلامية ، فيشترونها من أصحابها ، أو يسرقونها من المكتبات العامة التي كانت في نهاية الفوضى ، وينقلونها إلى بلادهم ومكتباتهم ، وإذا بأعداد هائلة من نوادر المخطوطات العربية تُنقَل إلى مكتبات أوربا ، وقد بلغت في أوائل القرن التاسع عشر مائتين وخمسين ألف مجلد ، وما زال هذا العدد يتزايد حتى اليوم .

وفي الربع الأخير من القرن التاسع عشر عُقِد أولُ مؤتمر للمستشرقين في باريس عام ١٨٧٣، وتتالى عَقْدُ المؤتمرات التي تُلقَى فيها الدراسات عن

الشرق وأديانه وحضاراته ، وما تزال تُعقَد حتى هذه الأيام »[١] .

ثم إن العناية بالدراسات الإسلامية - على وجه الخصوص - قد أخذت مساحة بارزة في إطار الاستشراق ، وتبلور مفهوم خاص للاستشراق يتمثل في الدراسات المختلفة عن الإسلام والمسلمين خاصة .

« وفي نهاية القرن التاسع عشر أصبحت التخصصات الإسلامية تخصصا قائما بذاته داخل الحركة الاستشراقية العامة ، وكان كثير من علماء الإسلاميات والعربية في ذلك الوقت ـ مثل: « نولدكه »، و « جولد تسيهر »، و « فلهاوزن » ـ مشهورين في الوقت نفسه بوصفهم علماء في الساميّات على وجه العموم ، أو متخصصين في الدراسات العبرية أو في دراسة الكتاب المقدس »[٢] .

وهكذا نشأ الاستشراق وتطور ، حتى غدا حركة فكرية ضخمة لا يُستهان بها ، وركب تيارَها منذ ابتدأت مسيرتُها إلى يوم الناس هذا خَلقٌ كثير ، كانت لهم أغراضٌ شتى ، ودوافع مختلفة ، جديرةٌ بأن نميط عنها اللثام ، ونُجلِّيَ حقيقتها ، وهذا ما سيأتي ذكره في الفصل التالي ـ إن شاء الله ـ .

---

(١) الاستشراق والمستشرقون . ص ١٤ ـ ١٥.

(٢) الاستشراق والخلفية الفكرية . ص ٥٠، نقلا عن رودي بارت، ص ١٧.



الفصل الثاني

دوافع المستشرقين

المبحث الأول : الدافع الديني

المبحث الثاني : الدافع العلمي

المبحث الثالث :الدافع الاستعماري

المبحث الرابع : الدافع السياسي

المبحث الخامس : الدافع الاقتصادي

تمهيد

لقد كان للحركة الاستشراقية دوافع شتى، وأهداف عديدة، وخاصة ما يتعلق منها بالدراسات الإسلامية.

وتجدر الإشارةُ هنا إلى أنّ من الباحثين مَن يُفْرِط في الثناء على المستشرقين عند الحديث عن دوافعهم ، ويذهب إلى أن الدافع العلميَّ النزيه كان وراء نشأة الاستشراق ، وأن الرغبة في خدمة العلم كانت الحافز الأعظم للدراسات الاستشراقية ، بينما يُفْرِط البعض في التحامل على المستشرقين ؛ مُجَرِّدًا إياهم من كلِّ قصدٍ نبيل.

«وفي الحقّ أن كلاً من الثناء المطلَق والتحامل المطلَق يتنافى مع الحقيقة التاريخية التي سجّلها هؤلاء المستشرقون فيما قاموا به من أعمال، وما تطرّقوا إليه من أبحاث، ونحن من قوم يأمرهم دينُهم بالعدل حتى مع أعدائهم، ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُوا۟ ۚ ٱعْدِلُوا۟ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾ [المائدة : ٨] »[1] .

ونحن إذْ نقرر هذا فإنه يؤسفنا القول بأنه إن كان هناك من قصد نبيل أو دافع بريء للمستشرقين ؛ فإنه يبدو ضئيلا جدا ، أو تائها في محيط الدوافع الكثيرة المشبوهة ، أو الأهداف المريبة والمقاصد غير النزيهة ، كما يتضح هذا من خلال إنتاج المستشرقين وأعمالهم .

ونلقي الضوء على دوافعهم فيما يلي :

(١) الاستشراق والمستشرقون. ص ١٣.

المبحث الأول

الدافع الديني

لقد برز الدافع الدينيُّ للاستشراق منذ بداياته الأولى ، وقد تمثّل هذا الدافع في ثلاثة أمور على النحو التالي :

أ - دراسة الإسلام من منطلق أنه دينٌ معادٍ للنصرانية:

لقد لفت أنظارَ النصارى منذ قرون طويلة سرعةُ انتشار الإسلام، وقدرتُه الفائقةُ على التوسّع والتغلّب على خصومه ، وخاصة عندما نازَل الإسلامُ الصليبيةَ وانتصر عليها في عُقر دارها، وأقام حضارة ودولة في الأندلس، ثم حينما اشتبكت الصليبية الغربية مع الإسلام في الشرق، في إطار ما عُرِف بـ «الحروب الصليبية»، وما انتهى إليه الأمر بتراجعها منكسرة منهزمة؛ تجرّ أذيالَ الخيبة.

وبالإضافة إلى هذا فإن الإسلام لم يعترف بعقائد النصارى الباطلة؛ مثل التثليث وبنوة المسيح والصلب والفداء ...، بل إنه فنّدها وبيّن زيفها، وقرر بطلانها وتهافتها بالأدلة الدامغة.

وكذلك فإن الإسلام قد أقام سدًّا منيعا في وجه انتشار النصرانية وتمددها، بل إنه انتشر في المغارب والمشارق على حساب رقعتها، ودخلت شعوب كثيرة كانت تدين بالنصرانية في دين الحق، وأعلنت الرضا بالله تعالى ربّا، وبالإسلام دينا، وبمحمد ﷺ نبيا ورسولا، فتقلصت بهذا رقعة النصرانية، وانحسر

مدُّها، وانقرض في كثير من الأقطار وجودُها.

وفي ذات الوقت خشي النصارى في الغرب من وصول الصورة الحقيقية للإسلام إلى جماهيرهم النصرانية كي لا تعتنقه؛ إذِ الإسلام دين الفطرة، ولو أتيح لغير المسلمين التعرف عليه ودراسته في جوٍّ من الإنصاف لَمَا ترددوا في الإيمان والرضا به دينا ، هذه حقيقة يعرفها الأحبار والرهبان غاية المعرفة .

لهذا وغيره أدرك النصارى أن الإسلام يشكِّل تهديدا حقيقيا لديانتهم، فهبّوا يكتبون عنه بروح متعصِّبة وقلوب حاقدة، وقامت طلائع المستشرقين تعمل في دأب على تشويه صورة الدين الحنيف لدى الأوربيين كي لا يعتنقوه، واندفع رجال الدين الذين دَرَسوا الإسلامَ كالمجانين يشوهون صورة الدين العظيم ، في مجافاة بالغة للعقل والمنطق ، والمعايير الأخلاقية النبيلة ، فلم يتركوا نقيصة ولا رذيلة إلا وألصقوها بالإسلام ورسوله وتاريخه ورجاله ومبادئه، وكلِّ ما يتصل به، من منطلق كراهيتهم له واعتقادهم أنه دين معادٍ للنصرانية ، وخطرٌ عليها.

وقد اعترف المستشرقون المعاصرون بهذا الأمر، فقال «رودي بارت»:

«حقيقةً إن العلماء ورجال اللاهوت في العصر الوسيط كانوا يتصلون بالمصادر الأولى في تعرفهم على الإسلام، وكانوا يتصلون بها على نطاق واسع، ولكن كل محاولة لتقييم هذه المصادر على نحو موضوعيّ نوعا ما كانت تصطدم بحكم سابق ؛ يتمثل في أن هذا الدين المعادي للنصرانية لا يمكن أن يكون فيه خير، هكذا كان الناسُ لا يُولُون تصديقَهم إلا لتلك المعلومات التي تتفق مع هذا الرأي المُتخَذ من قبل، وكانوا يتلقون بنهَم كلَّ الأخبار التي تلوح

لهم مسيئةً إلى النبيّ العربيّ وإلى دين الإسلام » [1] .

وقد سبق أن أوردنا ما اعترف به « جيبرت النوجنتي » أو « غيلبرت دونوجنت » (ت ١١٢٤م) من أنه لا يعتمد في كتاباته عن الإسلام على أية مصادر مكتوبة ، وأشار فقط إلى آراء العامة ، وأنه لا يوجد لديه أية وسيلة للتمييز بين الخطأ والصواب ... وأنه قال في الختام ـ في صفاقة يُحسَد عليها ـ : «لا جُناح على الإنسان إذا ذكر بالسوء مَن يفوق خبثه كلَّ سوء يمكن أن يتصوره المرء» [2] .

وللأسف الكبير فإن هذه الروحَ العدائيةَ في الكتابة عن الإسلام قد ظلت مصاحبة للاستشراق طيلةَ مراحله ، وبقيت حتى الآن أحقادا كامنة لم تُطفئْها الأيام ، ولا تزال تُفرز سموما وأفكارا عدائية جائرة ضدَّ الإسلام والمسلمين .

ب ـ دراسة الإسلام بتأثير حركات الإصلاح الديني الكنسي:

وقد سار الدافع الدينيُّ للاستشراق في اتجاهٍ آخرَ إِبَّانَ ظهور ما سُمِّي بـ «حركة الإصلاح الديني المسيحي» [3] .

---

(١) الاستشراق والخلفية الفكرية للصراع الحضاري . ص ٣٢ ـ ٣٣، نقلا عن رودي بارت. ص ٩ ـ ١٠ .

(٢) تراث الإسلام ١/ ٣٧ : ٣٨ ، واسمه هنا «غيلبرت دونوجنت» وانظر: حضارة الإسلام. جوستاف إ . فون جرونيباوم . ص ٦٩ . وقد سماه: « جيبرت النوجنتي ».

(٣) حركة الإصلاح الديني هي حركة قامت بين النصارى كردٍّ فعل لتسلط الكنيسة الكاثوليكية، وكان من أبرزها الحركة الإصلاحية ضدّ تعاليم البابوية التي قام بها « حنا هس » ـ (وُلد ١٣٦٩م) ـ ، الذي تأثّر كثيرا بأفكار أستاذه «حنا وكلف» ـ (وُلد عام =

وقد كان لهذه الحركة أثر في دراسة الإسلام في جانبين :

الجانب الأول: حاجة دعاة الإصلاح أنفسهم لدراسة اللغة العربية كي تمكنهم من فهم اللغة العبرية :

ذلك أنه « عندما قامت حركة « لوثر » (١٤٨٣ ـ ١٥٤٦م) بالثورة على الفاتيكان ، بدأ دعوته بالدعوة إلى دراسة التوراة في لغتها الأولى ، وهي العبرية، ولما كانت العلاقة بين العبرية وبين العربية وثيقة ، وكانت العبرية تائهة المعالم ، وغير مضبوطة ، فإن الاعتماد على اللغة العربية في التعرف على الكلمات العبرية كان أمرا ضروريا » [(١)] .

= ١٣٢٤م) ـ ، بل إنه إلى هذين المصلحيْن ترجع حركة الإصلاح الكبرى «اللوثرية» التي قامت ضدَّ الكنيسة الغربية فيما بعد، وتلخّصت مبادئ « وكلف »في محاربته للكنيسة في أملاكها وتعاليمها ، وإنكار التحوّل في العشاء الرباني ، وأن الخبز والخمر في هذا العشاء يبقى بعينه ، وأنكر ما يدّعيه رجال الكنيسة من قدسية خاصة ، وأنكر صكوك الغفران ، وكذلك نيابة البابا للمسيح ، ثم جاءت الحركة الإصلاحية الكبرى على يد « مارتن لوثر » في بداية القرن السادس عشر ، والتي كان على رأس أسبابها بيع صكوك الغفران، وكان من نتيجتها ظهور مذهب ثالث بين مذاهب الكنيسة المسيحية هو مذهب «البروتستانت». (المجامع المسيحية وأثرها في النصرانية، د. محمد رجب الشتيوي، ص ٤٠٥ وما بعدها بتصرف . ١٤٠٨هـ ١٩٨٧م .

وجدير بالذكر أن التاريخ قد سجل ظهور حركات إصلاحية ضدّ الكنيسة منذ القرن العاشر في أنحاء متفرقة من العالم الغربي النصراني. يراجَع بهذا الشأن: يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء، د. رؤوف شلبي، ص ٢٦٧ وما بعدها، دار البشير، طنطا. مصر .

(١) الاستشراق وجه للاستعمار الفكري. د. عبد المتعال الجبري. ص ٨٢. مكتبة وهبة. القاهرة. ط الأولى ١٤١٦هـ ١٩٩٥م.

«ومن هنا اتجهوا إلى دراسة العبرانية ، وهذه أدت بهم إلى دراسة العربية فالإسلامية ، لأن الأخيرة كانت ضرورية لفهم الأولى ، وخاصة ما كان منها متعلقا بالجانب اللغوي ، وبمرور الزمن اتسع نطاق الدراسات الشرقية حتى شملت أدياننا ولغاتٍ وثقافاتٍ غيرِ إسلامية وغير عربية» (١) .

الجانب الثاني: دراسة الإسلام بقصد عرض نقائصه [المزعومة] لإشغال جموع النصارى بها عن الإصغاء لزعماء حركات الإصلاح في نقد رجال الكنيسة وكشف فضائحهم:

وفي غمار تلك الحركات الإصلاحية التي تفجّرت ينابيعها ، وتدفق عبر القرون ضدَّ الكنيسة تيارها ، تتحدى سلطانها ، وتهتك الأستار عن حقيقة رجالها ، وتكشف عن كثير من فضائحهم ؛ برز دافع دينيٌّ لدراسة الإسلام ، وتَعَرُّف المزيد عنه بقصد عرض « نقائصه » المُتَوهَّمة ، والإكثار من الحديث عن « مساوئه » - المزعومة - ، رغبة من الكنيسة في تشويه صورته أمام جموع النصارى في الغرب ، حتى تنصرف هذه الجموع عن توجيه النقد لرجال الدين تأثّرا بما يشيعه أرباب الحركات الإصلاحية المتتابعة خلال الأعصار، ولكي ينصرف الغربيون كذلك عن التنبُّه لما في دينهم من تحريفات وخرافات ما أنزل الله بها من سلطان ، وحماية الكنيسة من الأخطار التي تواجهها ، وتزويد رجالها بمعلومات يمكن أن يوظفوها ويتحصنوا بها ضد الإسلام .

وهذا واحد من رجال الكنيسة المضلِّلين ، وهو المسمَّى « بطرس الموقر »، والذي كان « راعيا لأول ترجمة لاتينية للقرآن ، كما كان هو نفسه صاحبَ حملة

(١) الفكر الإسلامي الحديث، د. محمد البهي، ص ٤٣٠، وفيه المراجع التي أخذ عنها.

جدلية طائشة ضدَّ الإسلام »[1]، حيث كان يعتبر الإسلام هَرْطَقةً نصرانية، يبرر جهوده في سبيل إيجاد تلك الترجمة التي ظهرت عام ١١٤٣م فيقول:

« إذا كان هذا العمل يبدو من النوافل الزائدة لأن العدوَّ ليس عرضة للهجوم بمثل هذا السلاح ، فإني أردّ بأن في بلاد ملك عظيم تكون بعض الأشياء للدفاع ، وبعضها للزينة ، وبعضها لكليهما معا ...

[إلى أن قال] : وكذلك الحال مع هذا العمل ، فإذا لم يكن بالإمكان تنصير المسلمين به ، فمن حق العالِم على الأقل أن يساند إخوانه الضعفاء في الكنيسة الذين يَسهُل افتضاحهم بأشياء صغيرة »[2] .

ج ـ دراسة الإسلام من أجل القيام بتنصير المسلمين:

وقد برز الدافع الدينيُّ للاستشراق أكثر ما برز ، وتمثل في اتجاه خطير ، ألا وهو « التبشير » بالنصرانية ، حيث رغب النصارى في تنصير المسلمين ، والقيام بأعمالٍ وأنشطة تبشيرية بينهم ، وعمِلوا على بذل كل ما في وسعهم لحمل المسلمين على ترك الإسلام ، أو هجر تعاليمه ، والتخلي عن اتخاذها منهجَ حياة لهم ، ودستوراً يحكم جميع شئونهم .

ولهذا الدافع كان الإقبال على تعلّم اللغة العربية وآدابها ، ليتم لهم قراءة

---

(١) المستشرقون الناطقون بالإنجليزية ومدى اقترابهم من حقيقة الإسلام . بقلم أ . ل . طيباوي. ملحق بكتاب : الفكر الإسلامي الحديث للدكتور محمد البهي . ص ٤٧٦ .

(٢) الاستشراق والخلفية الفكرية ، ص ٣١ ـ ٣٢ ، نقلا عن: « ساذرن »؛ نظرة الغرب إلى الإسلام في القرون الوسطى ص ٥٦ ـ ٥٧ ، وانظر : تراث الإسلام ، تصنيف « شاخت » و «بوزورث» ص ٤٠ ـ ٤١ .

العلـوم الإسـلامية ، والتعـرف عـلى مبـادئ الإسـلام ومـصادره وشـعوبه وحضارته ، ولكـي يتسنى لهـم وضـعُ الخطـط والتـصورات المناسـبة لتـشكيك المسلمين في دينهم ، وتشويه صورته أمامهم ، حتى يسهل عليهم القيـام بـأعمال التبشير بينهم .

ومـن أظهـر الـدلائل عـلى وجـود هـذا الـدافع التبـشيري للدراسـات الاستشراقية :

أنه « جاء في تقرير المراجع الأكاديميـة المسئولة في جامعـة كمـبردج بالنسبة لإنشاء كرسي اللغة العربية فيها ، في خطـاب مـؤرَّخ في ٩ مـن مـايو ١٦٣٦م إلى مؤسِّسي هذا الكرسيّ :

ونحن ندرك أننا لا نهـدف مـن هـذا العمـل إلى الاقـتراب مـن الأدب الجيـد بتعريض جانب كبير من المعرفة للنـور بـدلا مـن احتباسـه في نطـاق هـذه اللغـة التـي نـسعى لتعلمهـا ، ولكننـا نهـدف أيـضا إلى تقـديم خدمـة نافعـة إلى الملـك والدولة عن طريق تجارتنا مع الأقطار الشرقية ، وإلى تمجيد الله بتوسـيع حـدود الكنيـسة ، والـدعوة إلى الديانـة المسيحية بـين هـؤلاء الـذين يعيـشون الآن في الظلمات » [1] .

فهذا الخطاب ـ كما هو واضح ـ ينص صراحة عـلى خدمـة هـدفين : أحـدهما تجاريّ ، والآخر تبشيري .

كما أن المصادر التاريخية قد ذكرت أن مجمع فيينا الكنـسي قـرّر سـنة ١٣١٢م

---

(١) المستشرقون الناطقون بالإنجليزية ومدى اقترابهم مـن حقيقـة الإسـلام. بقلـم أ . ل . طيباوي . ملحق بكتاب : الفكر الإسلامي الحديث للدكتور البهي. ص ٤٧٧.

إدخال اللغة العربية مع لغات أخرى في جامعات : باريس ، وبولونيا ، وأكسفورد ، وسلمنكا ، وأن الغرض من هذا القرار كان تبشيريا خالصا ، وكَنَسِيًّا لا علميا [1] .

وقد كان ذلك القرارُ نتيجةً لمقترحات المبشِّرين الحاضرين يوم ذاك ، وعلى رأسهم المبشر القديم « رامون لُل القطلوني » ، والذي كان أشهرَ المبشرين في زمانه .

وفي هذا يقول المستشرق « جوستاف إ. فون جرونيباوم » : « فإنه [يقصد : رامون لُل] لمّا مثُل أمام مجلس فيين (١٣١١ ـ ١٣١٢) اقترح أمورا ثلاثة للمحافظة على شرف العقيدة الكاثوليكية المقدسة وتوقيرها ونشرها :

أولها: أنه ينبغي أن تُبنَى أماكنُ معينةٌ يتوفر فيها أشخاص بأعيانهم من القانتين ذوي الذكاء الرفيع على دراسة لغات شتى ، بُغْيةَ التبشير بالإنجيل المقدس للشعوب كافة .

وثانيها : أنه ينبغي أن يتكوّن من جميع الفرسان المسيحيين نظامٌ خاصٌّ، ينبغي أن يدأب جاهدا لفتح الأراضي المقدسة .

وثالثها : أنه معارَضةً لرأي ابن رشد الذي حاول في أشياء كثيرة أن يعارض العقيدةَ الكاثوليكيةَ ؛ ينبغي أن يؤلِّف رجال العلم كتبا تفنّد الآراء المذكورةَ ، وتَبْهَت كلَّ من يرى ذلك الرأي .

وكانت الثمرةُ المباشرةُ لمقترَحه الأولِ هي إصدارَ المجلسِ قرارًا بإنشاء

---

(١) السابق . ص ٤٧٦ هامش ، بتصرف .

خمسِ كلياتٍ لتعليم العبرية والعربية والكلدانية في روما وبولولنيا وباريسَ وأكسفورد وسلامنكا » [١] .

ولقد اعترف « يوهان فيوك » ـ في صراحة ـ بالدافع الدينيِّ التبشيريِّ للاستشراق ، فقال: إن الاستشراق لم يكن عملا علميا محضا؛ بل إن المراد منه هو الردُّ على الإسلام، والتبشيرُ بالنصرانية بين المسلمين، وذلك بتراجم عربية للإنجيل [٢] .

ثم إن سجل الحركة الاستشراقية مليء بالكثيرين من المبشرين ورجال الدين النصارى، الذين لبسوا أردية العلم فوق عباءات الكهان، وراحوا يشتغلون بالاستشراق لخدمة الحركة التنصيرية على مر العصور، حيث سوّدوا ألوف الصحائف في عرض الإسلام والانتقاصِ منه، والطعنِ فيه، فكانوا بمثابة المصنع الذي يُصنِّع الشبهات، ويقذف بالدراسات المناوئة للإسلام والمسلمين، وتقوم الحركة التنصيرية بدور التسويق والترويج لتلك الدراسات المسمومة، واستغلالها بما يخدم أغراضهم.

وهذا "جون سي بلِيَر" أحدُ المستشرقين البريطانيين يُصرِّح في استهلال كتابٍ له عما زعم أنها "مصادر الإسلام"، ـ كتبه عام ١٩٢٥م ـ بأنه يؤمِّل أن

---

(١) حضارة الإسلام. ص ٧٤، نقلا عن: حياة رامون لُل، لكاتب مجهول حوالي سنة ١٣١١م ص ٤٣.

(٢) الاستشراق وجه للاستعمار الفكري ، د . عبد المتعال الجبري ، ص ١٦ـ ١٧ بتصرف . وقد ذَكَر أن كلامَ المستشرقِ المذكورِ جاء في كتاب له بعنوان: « تاريخ الاستشراق والمستشرقين في أوربا بدءً من القرن التاسع عشر »، نشره سنة ١٩٤٣م، وأنه وَضَع رسالة أخرى عن الدراسات العربية في أوربا سنة ١٩٥٥م لتأكيد هذا المعنى .

يكون كتابه مفيدا للمبشرين وللكنيسة في العمل التنصيري بين المسلمين، فيقول:

« إن المؤلِّف ليأْمل بأن الكتاب سيكون مفيدا للمبشرين في عملهم بين المحمديين، ولجميع باحثي الإسلام، كما ستجد دوائر الحلقات الدراسية في الكنيسة الأمِّ فيه عونا في دراستها المسألةَ المحمدية » (١) .

وحقًّا ما يقرره أحد الباحثين قائلا: « ومنذ البداية كان هناك تجاوبٌ في القصد بين المستشرقِ الأكاديميِّ والمبشِّرِ الإنجيليّ » (٢) .

وأخيرا وليس آخرا؛ فقد مرّ بنا في الفصل السابق أن الاستشراق قام في أوّل أمرِه على أكتاف الرهبان والقساوسة، وأوردنا بعض الأسماء القديمة، ونضيف هنا ـ على سبيل المثال لا الحصر ـ المستشرقَ الأمريكيَّ «صمويل زويمر» رأسَ المنصّرين في البلاد العربية والإسلامية، ومهندسَ خطةِ عقدِ المؤتمرات لمتابعة أعمالِ التنصيرِ في النصف الأول من القرن العشرين (٣)،

---

(١) مصادر الإسلام .. بحث في مصادر عقيدة وأركان الديانة المحمدية، تأليف جون سي بلِيَر، ترجمة مالك مسلماني، ص ٦ .

(٢) المستشرقون الناطقون بالإنجليزية، بقلم أ . ل . طيباوي. ملحق بكتاب: الفكر الإسلامي الحديث . ص ٤٧٩ .

(3) كان أشهر المبشرين في مصر والعالم العربي، وهو صاحب فكرة مؤتمرات التبشير، وقد بدأ في البحرين عام ١٩٠١م تقريبًا، وانتقل منها إلى الإحساء، ثم عاد إلى البحرين، وكان يلقِّب نفسه بضيف الله، والأهالي يدعونه ضيفَ الشيطان، وقد فتح أوّلَ أمره حانوتًا في السوق لبيع الكتب المختلفة، ثم تخصص بالتدريج في بيع الكتب التبشيرية، وساعدته القنصلية الإنكليزية في بناء مدرسة ومستشفى، وعُنِيَ بالكتابة عن الإسلام، وأذاع آراء =

والمستشرقَ الفرنسيَّ «لوى ماسنيون»، والمستشرقَ الأسبانيَّ القديم «ريمون لُول» رأسَ المنصرين في عصره، وصاحبَ المقترحات الخطيرة في مجمع فيينا الكنسي بشأن مكافحة الإسلام، والتي أوردناها قبل قليل، والأمريكيَّ «د . ب. ماكدونالد»، والفرنسيَّ «هنري لامانس اليسوعي»، والإنجليزيَّ «ألفرد جيوم»، وغيرهم كثيرون، لا يتسع لذكرهم المقام .

المستشرقون اليهود والدافع الديني

ولا ننسى - ونحن نتحدث عن الدافع الديني للاستشراق - المستشرقين

= المبشرين وشبهاتهم، ومن أهم كتبه (الإسلام: ماضيه، حاضره، مستقبله) الذي دعا فيه أوروبا إلى إثارة حملة من الدعوة إلى الإقليمية في العالم الإسلامي لتمزيق وحدته الفكرية، وخلْقِ قضايا قوميةٍ ذاتِ جذور تاريخية لتفريق الصف وسيادة النفوذ الاستعماري. (الإسلام في وجه التغريب . مخططات التبشير والاستشراق أنور الجندي. ص٩٩ ، دار الاعتصام القاهرة) .

ويقول الأستاذ المجاهد "عبد الله التل": وأعجب العجب أن يعلم القارئ بأن صموئيل زويمر هذا الذي كان يرأس مؤتمرات التبشير من "أدنبرة" في أقصى الغرب إلى "لكنو" في أقصى الشرق، والذي قاد معارك التبشير طول ستين عامًا انتهت بهلاكه سنة ١٩٥٢م، قد كشف عن يهوديته الدفينة الراسخة في أعماق نفسه ، وذلك بأن طلب حاخامًا يُلقِّنه في ساعاته الأخيرة أثناء احتضاره، وقد أخبرني راهب من أصدقائي أيام معركة القدس، أن الكنيسة تحتفظ بهذا السر المُذهل ، ولا تبوح به حتى لا تنكشف حيل اليهود الذين يتظاهرون باعتناق النصرانية ، وحتى لا يظهر إخفاق جمعيات التبشير التي تبذل الملايين عبثًا، وتنخدع بمكر اليهود وخططهم الخبيثة لبث الفتن والبغضاء بين الإسلام والمسيحية. (جذور البلاء ، ص ٢٢٨، المكتب الإسلامي - بيروت، ط الثانية ١٣٩٨هـ ١٩٧٨م) .

وأوصى قبل موته بأن يدفن في مقابر اليهود. (واقعنا المعاصر، محمد قطب، ص ١٩٦ هامش، مؤسسة المدينة للصحافة والنشر - جدة، ط الأولى ١٤٠٧هـ ١٩٨٧م).

اليهود خاصة ، فالظاهر أنهم ـ كما يقول الدكتور البهيُّ ـ « أقبلوا على الاستشراق [أولا] لأسباب دينية ، وهي محاولةُ إضعافِ الإسلامِ والتشكيكِ في قيمه ، بإثبات فضل اليهودية على الإسلام : بادّعاء أن اليهودية في نظرهم هي مصدر الإسلام الأول ، و [ثانيا] لأسباب سياسية تتصل بخدمة الصهيونية : فكرةً أولا ثم دولةً ثانيا .

هذه وجهة نظر ربما لا تجد مرجعا مكتوبا يؤيدها ، غير أن الظروف العامة والظواهر المترادفة في كتابات هؤلاء المستشرقين تعزز وجهة النظر هذه ، وتَخلَع عليها بعض خصائص الاستنتاج العلمي » (١) .

والحقيقة إن عداوة اليهود للإسلام قديما وحديثا أمرٌ لا يحتاج إلى كبير جهدٍ في التعرف عليه ، ويكفي أن الله تعالى قد قال : ﴿ لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِّلَّذِينَ آمَنُواْ الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُواْ ﴾ [سورة المائدة : ٨٢] .

ولما بعث اللهُ رسولَه محمدا ﷺ وأخذ يدعو إلى الإسلام ؛ كان اليهودُ على رأس مَن ناصبه العَداوةَ، وخاصة في مجال الحرب الفكرية ، فلكم قادوا حملات التشكيك والتشويه وتزييف الحقائق، وكانوا يتولون إمداد الكفار الوثنيين بالشبهات التي ينثرونها في وجه الدعوة الإسلامية، واشتعلت بسببهم نار الحرب الفكرية المعادية للإسلام ، ولا نكون مبالغين إذا قلنا إنهم كانوا ـ ولا يزالون ـ بمثابة الشيطان في عصابة المجرمين.

ولقد ظل اليهود خلال أدوار التاريخ المتعاقبة يقذفون بالأفكار المعادية للإسلام، ويصدون عن سبيل الله ويبغونها عوجا، حتى عصرنا الحاضر الذي

---

(١)الفكر الإسلامي الحديث ، ص ٤٣١ .

شهد نشاطا محموما في هذا المجال، فقاموا على كل صعيد، وركبوا كل سبيل، وجندوا كل شيء من أجل نشر الفكر المعادي لبني الإنسان بعامة، والإسلام والمسلمين بخاصة .

وفي عالم الاستشراق وُجِدت رموز كثيرة من اليهود الذين جاءت دراساتهم طافحة بالتحامل والتعصب ضد الإسلام ، وبقيت ـ مع لأسف ـ مراجعَ للباحثين في الإسلاميات من الغربيين، بل وبعضِ المسلمين الذين يدرسون في الغرب، ومن هؤلاء المستشرقين اليهود: المَجَريُّ « جولد زيهر »، والصهيونيُّ الأمريكيّ (الإنجليزي الأصل) « برنارد لويس »، والألمانيّ «ولهلم رودلف»، وزميله « يوسف شاخت » .. وغيرهم كثير .

المبحث الثاني

الـدافـع العلمي

وقد تمثل الدافعُ العلميُّ للاستشراق في جانبين، نفصِّل القول فيهما على النحو التالي:

الجانب الأول: دراسة علوم الشرق الإسلامي في مختلف التخصصات العلمية، ونقلها إلى أوربا لتفيد منها في النهوض الحضاري:

كان الغرْب يعيش في ظلام دامس، ويعاني من تخلف حضاريٍّ مطبِق، ففتح عينه على تقدم المسلمين العلميّ، وتفوقهم الحضاريّ، وسبْقِهم في شتى الميادين، وخاصة عندما فتح المسلمون الأندلس، وأقاموا فيها حضارة زاهرة، ومدنية راقية، واكبها نهضةٌ علميةٌ خارقة .. رأى الغرب هذا، وأدرك ما بينه وما بين المسلمين من مسافات شاسعة في العلم والتقدم والازدهار، فحرَص على أن ينهل من علوم الشرق الإسلامي، ويقتبس من حضارته لينهض من تخلفه، ويَرْقَى كما ارتقى المسلمون، فكان لا بد من تعلم اللغة العربية، والتتلمذ على أيدي علماء المسلمين، والرحلة إلى حيث يقيمون.

وانكبّ الغربيون على علوم الشرق الإسلامي ينهلون من معينها الصافي، وطفقوا يجمعون المخطوطات الإسلامية في شتى الميادين، وينقلونها إلى اللغات الأوربية، وينقلبون إلى أهليهم في الغرب يعلمون بني أوطانهم ما أخذوه عن علماء المسلمين من علوم كي يتفوقوا عليهم، ويتخلصوا من

سيطرتهم؛ إذِ اعتقدوا أنهم لن يستطيعوا التغلب على المسلمين إلا بتعلّم علومهم، ونقل تراثهم .

وقد ظل العلماء المسلمون يبذلون للغربيين ما لديهم من علوم نافعة بسماحةٍ وسخاوة نفس، ولم يضِنّوا على طالبِ علمٍ بشيء، أو يكتموا علما مما علّمهم الله إياهم بدعوى أن العلوم أسرار، بل كانوا يتعبدون لله تعالى بنشر العلم ، وتنوير الجاهل، وإرشاد الضال، وفي ذات الوقت ظل أولئك الطلاب الغربيون يدرسون وينقلون تلك العلوم على يد العرب والمسلمين، وأكثرهم محتفظون لأنفسهم بعقائدهم واتجاهاتهم البغيضة نحو الإسلام والمسلمين.

« وقد بلغ ما تُرجِم من العربية في القرون الوسطى أكثر من ثلاثمائة كتاب، منها تسعون في الفلسفة والطبيعيات، وسبعون في الرياضيات والنجوم، وتسعون في الطب، وأربعون في الفلك والكيمياء، وظلت هذه هي زادَ أوربا الذي أخذت تثريه وتفيد منه شيئا فشيئا، حتى كانت نهضتها المادية الكبرى التي هددت كياننا بعد ذلك » [١] .

وقد ذكر أحد الباحثين عشرات الكتب والمؤلَّفات التي نقلها المستشرقون إلى أوربا ، شملت مختلف التخصصات العلمية ، نورد بعضها فيما يلي [٢] :

في الفلك والجغرافيا:

١ ـ صورة الأرض ، لمحمد بن جابر البتاني . نشره : « لولو فيل ».

٢ ـ زبدة كشف الممالك ، للظاهري . نشره : « رافيس » .

---

(١) الاستشراق وجه للاستعمار الفكري، د. عبد المتعال الجبري ، ص ٥٤.

(٢) السابق، ص ١٧ ـ ٢٢.

٣ ـ كشف المسالك والممالك ، لعبد الله القرطبي . نشره : البارون « دي سلان »سنة ١٨٧٩م .

في التاريخ:

١ـ واسطة السلوك في سياسة الملوك ، للسلطان موسى بن حمو الثاني . نشره وترجمه للأسبانية : « جاسبار ريميرو » .

٢ ـ غانة ، ترجمه للفرنسية : « جوبير » .

٣ ـ مختصر الدول ، لابن العبري مع ترجمة لاتينية له . نشره : « بوكوك » الإنجليزي سنة ١٦٦٣م .

في العلوم والطب :

١ـ فصول في الطب والعلاج العربي، نشره: « د يفزمري » و « سانفيناتي ».

٢ ـ الكرويات ، تصحيح يحي بن محمد المغربي . نشره : « البارون دي فو » .

٣ ـ أسماء النباتات المختلفة ، لابن العوام . ترجمه : « ملله » في جزأين .

٤ ـ النحل ، للسجستاني . ترجمه : «برتولومبو» ، وكذا « لازينيو » الإيطاليين .

٥ ـ طبقات الأطباء ، لابن أبي أصيبعة . ترجمه : « د. لكلر » .

٦ ـ ملخص في الطبيعيات ، للقويني . ترجمه : « موﷲ ».

٧ـ الأشربة، لابن قوتيه . نشره : « كي » .

٨ ـ رسالة الصنامري في دودة القز، نشره: المستشرق «مرسيل الفرنسي».

في الرياضة :

١ ـ مخطوطات الرياضيين الإسلاميين، نشره: « كروازة » الألماني.

٢ ـ الرياضيون المسلمون، ألفه: « كروازة » الألماني . (طبع برلين عام ١٩٣٦م) .

في الفلسفة :

ترجموا ونشروا الكثير .. ومن ذلك : رسالة حيي بن يقظان ، نقله إلى اللاتينية : « بوكوك » الإنجليزي في القرن السابع عشر الميلادي .

الجانب الثاني: دراسة الإسلام وعلومه من منطلق البحث العلمي النزيه، دون تحيز :

وهناك بعض المستشرقين أقبلوا على دراسة الإسلام دراسة علمية خالصة، محاولين التجرد عن الهوى ، والتجافي عن التعصب ، « بدافع حبّ الاطلاع على حضارات الأمم وأديانها وثقافاتها ولغاتها ، وهؤلاء كانوا أقل خطأً في فهم الإسلام وتراثه ، لأنهم لم يكونوا يتعمدون الدس والتحريف ، فجاءت أبحاثُهم أقربَ إلى الحق وإلى المنهج العلميِّ السليم من أبحاث الجمهرة الغالبة من المستشرقين »[(١)] .

« وهم مع إخلاصهم في البحث والدراسة لا يَسْلمون من الأخطاء والاستنتاجات البعيدة عن الحق، إما لجهلهم بأساليب اللغة العربية، وإما لجهلهم بالأجواء الإسلامية التاريخية على حقيقتها، فيحبون أن يتصوروها كما يتصورون مجتمعاتهم، ناسين الفروق الطبيعية والنفسية والزمنية التي تفرق بين الأجواء التاريخية التي يدرسونها، وبين الأجواء الحاضرة التي يعيشونها »[(٢)] .

(١) الاستشراق والمستشرقون، د. مصطفى السباعي ، ص ١٩ .

(٢) السابق، ص ٢٤ .

نماذج من المستشرقين غير المتعصبين، وبعض من أسلم منهم :

ومن الأمثلة على هذه الفئة:

١ ـ المستشرق الألماني « يوهان رايسكة » (١٧١٦ ـ ١٧٧٤م)، الذي كان واحدا من أبرز علماء العربية في عصره، «وإليه يرجع الفضل في إيجاد مكان بارز للدراسات العربية في ألمانيا، ولكن عصره ومعاصريه تجاهلوه، وحاربه رجال اللاهوت متّهمينَه بالزندقة، ولعل ذلك يرجع إلى موقفه الإيجابي من الإسلام، فقد امتدح الدين الإسلامي في كتاب له باللاتينية، ورفَض وصْفَ النبيِّ ﷺ بالكذب أو التضليل، أو وصْفَ دينِه بأنه خرافات مضحكة ـ كما كان ذلك سائدا حينذاك ـ كما رفض تقسيم تاريخ العالم إلى تاريخ مقدس وتاريخ غير مقدس ، ووضع العالمَ الإسلاميَّ في قلب التاريخ العالميّ، وفوق ذلك عبّر عن آرائه بأعظم قدر من الصراحة، غيرَ مكترثٍ بكل العواقب المترتبة على ذلك ، وقد جرّ عليه ذلك ويلات كثيرة ، وعاش طول حياته في ضائقة مالية، ومات بائسا مسلولا وهو في الثامنة والخمسين من عمره » [١] .

٢ ـ المستشرقة الأسترالية المعاصرة « تساريس وادي »، التي كتبت كتابا أسمته (العقل المسلم)، التزمت فيه بالإنصاف والموضوعية ، حيث عرضت لما تضمنه كتابها من أفكار من خلال وجهة النظر الإسلامية، ومن أفواه المسلمين، وهو ـ في جملته ـ دفاع عن الإسلام وتنقية لصورته، ويقدم للقارئ الأوربيِّ شيئا غير ما قرأه في كتب أخرى عن الإسلام .

---

(١) الاستشراق والخلفية الفكرية للصراع الحضاري، ص ٤٣ ـ ٤٤.

وقد أهدت الكتاب إلى شيخ الأزهر الراحل الإمام عبد الحليم محمود رحمه الله، وعندما زارته في مكتبه بعد إخراج الكتاب قدّمت له نسخة منه ، كتبت عليها: «إلى الرجل الذي وقفْتُ عليه هذا الكتاب أُهدي نسخة منه» (١) .

ومن أولئك المستشرقين مَن قاده البحث الحرُّ النزيه، والتمسك بالمنهج الموضوعيِّ في دراسته إلى الاهتداء إلى الإسلام واعتناقه .

« منهم المستشرق الإنجليزي المشهور « جون فيلبي »، فقد استطاع في خلال إقامته في بلاد العرب أن يطّلع على تعاليم الدين الإسلاميّ اطّلاعا مقنعا، حَبّب إليه اعتناقَ هذا الدين القويم ، وقد لاحظ عليه كثير من المجتمعين به ذلك الحبَّ الكبيرَ الذي يبدو منه نحو الدين الإسلاميّ ، وهذا التقدير الصادق الذي كان يشعر به لتعاليمه ، حتى إن مُكاتب « الماتان » سأله في هذا الصدد في حديث له ، فقال : لماذا لم تُقْدِم إذن على اعتناق الإسلام حتى يتم لك ما تريد، وتصبحَ عربيا دينا كما اتخذتَ بلاد العرب وطنا؟ فأجابه: إنني سأكون يوماً ماْ مسلما عندما يتم اقتناعي بهذا الدين ، فإني لا أريد أن يكون إسلامي ظاهريا أتخِذُه قناعا أستتر به وقلبي خالٍ من الإيمان والتقوى ، ولم ينتهِ أسبوع حتى أَسلمَ واعتنق دينَ المساواة » (٢) .

٣ ـ وكان من أولئك المهتدين للإسلام في عصور الاستشراق المتقدمة

(١) يراجَع: صور استشراقية، د. عبد الجليل شلبي، ص ٩٨ ـ ٢١٦، دار الشروق، القاهرة، ط الثانية ١٤٠٦هـ ١٩٨٦م، وقد عَرَض لكتاب المستشرقة المذكور بتفصيل وتوسع، وأطال في الكشف عما احتواه.

(٢) المستشرقون والإسلام. زكريا هاشم زكريا. ص ١٣ .

المستشرق « تورميدا » (١٣٥٢ ـ ١٤٣٢م)، وقد « وُلِد في ميورقة ، وتلقى علومه في إيطاليا، وانضم إلى الرهبنة الفرنسيسكانية، ورحل إلى تونس، حيث أسلم على يد السلطان أحمد بن أبي بكر الحفصي، وتسمّى بعبد الله بن عليّ، واشتغل ترجمانا، ثم ولّاه السلطانُ المكوسَ، ولا يزال قبره داخل باب المنارة، ومن آثاره: تحفة الأريب في الرد على أهل الصليب، معتمدا فيه على آراء ابن حزم »[١] .

٤ ـ ويضاف إلى من سبق: « اللورد " هيدلي "، و " إتين دينيه (ناصر الدين) "، والدكتور " جرينيه " الذي كان عضوا في مجلس النواب الفرنسي، وقد سئل عن سبب إسلامه فقال : إنني تتبعتُ كلَّ الآيات القرآنية التي لها ارتباط بالعلوم الطبية والصحية والطبيعية والتي درسْتُها من صِغَري وأَعلمُها جيدا؛ فوجْدتُ هذه الآياتِ منطبقةً كلَّ الانطباق على معارفنا الحديثة، فأسلمْتُ لأنني تيقنْتُ أن محمدا ﷺ أتى بالحق الصُّراح من قبْلِ ألف سنة ، من قل أن يكون له معلِّم أو مدرِّس من البشر ، ولو أنّ كل صاحبِ فنٍّ من الفنون أو علم من العلوم قارن كلَّ الآيات القرآنيةِ المرتبطةِ بها تعلّم جيدا كما قارنْتُ أيضا ؛ لأسلم بلا شك إن كان عاقلا خاليا من الأغراض »[٢] .

---

(١) المستشرقون، للعقيقي ١ / ١٢٣ ـ ١٢٤.

(٢) أساليب الغزو الفكري للعالم الإسلامي، د. علي محمد جريشة ، محمد شريف الزيبق، ص ٢٩، دار الاعتصام – القاهرة. نقلا عن: التبشير والاستشراق، محمد عزت الطهطاوي، ص ٦٧.

ضرورة الحذر من التسرع في إطلاق وصف «الموضوعية» أو «الإنصاف» على كل من قال بعض عبارات المدح بحق الإسلام:

هذا ؛ وتجدر الإشارة في هذا المقام إلى أمرٍ على قدرٍ كبيرٍ من الأهمية ، ألا وهو ضرورة الحذر من التسرع في إطلاق وصف « الموضوعية » أو «الإنصاف» على كل من قال بعضَ كلماتِ الثناء ، أو ذكَر شيئا من عبارات المدح بحق الإسلام ، أو سطَّر بحثا يشتمل على طَرَف من حقائق الإسلام بحياد ، دون أن نأخذ في الاعتبار بقيةَ كتاباته ، وننظر في كافة مواقفه ومقالاته المتحاملة على الدين الحنيف والمشوِّهة له، حيث إن موضوعيةَ مثلِ هؤلاء يمكن أن نُسمِّيَها (موضوعية نسبية)، أي بالنسبة لغيرهم من المستشرقين السافرين في التحامل على الإسلام، المبالغين في عداوته، أو بالنسبة إلى باقي كتاباتهم هم، وعلى أية حال فهي موضوعية ليست مُطْلَقة، وإلا فإن كتاباتهم الأخرى تنطوي على القدح في الإسلام ، وغمْزِه ولمزِه ، بالتصريح تارة، وبالتلميح أخرى .

وقد يَعْمِد هؤلاء إلى دراسة الإسلام دراسة وصفية ، « تستهدف أن تعرف المزيد عنه لتكون أكثر تهيُّؤًا لعرض (نقائصه) » [(١)]، ولتكون أيضا أكثر قدرة على محاربته ، والقضاء على مكامن القوة فيه.

إن هناك البعضَ من الكتاب والباحثين المسلمين يقرأ - أحيانا - في ما كتبه المستشرقون، فيجد لأحدهم سطورا أو فِقْراتٍ معدودةً يتناول فيها الإسلامَ بما

---

(١) المستشرقون الناطقون بالإنجليزية، ملحق بكتاب الفكر الإسلامي الحديث، ص ٤٧٦.

ظاهِرُه الحيادُ أوِ الموضوعية، وعلى الفور يحكم بأن كاتبه من المستشرقين المنصفين ، والباحثين المدققين ... إلى آخر ما يقال في هذا الشأن

ولو تأمّلَ أولئك البعضُ من مفكرينا وكُتّابِنا المسلمين في كلام هذا المستشرق أو ذاك من الذين يَعُدُّونه منصفا ، وقرأ بقيةَ ما سطرتْ يداه ؛ لتبين له الأمرُ على حقيقته ، وأدرك كُنْه خبيئته ، وعرف خُبْث طويّته !!

خطأ «شكيب أرسلان» في جعله «جولد زيهر» من المنصفين، ووصفِه إياه بـ «سيد المدققين»:

ومن الأمثلة الملفِتة على هذا الأمر، بل من أعجب العجب ما وقع فيه الباحث المعروف شكيب أرسلان؛ حيث أَوْردَ بضعةَ أسطرٍ للمستشرق اليهوديِّ « جولد زيهر »، وزعم أن فيها إنصافا وشهادةً لصالح الإسلام ونبيه ﷺ، وليس هذا فحسب؛ بل إنه بلغ به الأمرُ أن جعل ذلك المستشرقَ (الأثيمَ) في مصافّ العلماء المدقِّقين والمنصفين للإسلام، وذلك على النحو التالي:

قال "شكيب":

« وقال "غولد زيهر" سيد المدققين، وحجة المستشرقين في كتابه: «عقيدة الإسلام وشريعته» في الصفحة الثالثة من هذا الكتاب الجليل ما يلي:

إن دعوة النبيّ العربيّ كان فيها نخبةُ مبادئَ اعتقدها هو بالاختلاط مع اليهود والنصارى وغيرهم ، واقتنع بها ورآها جديرة بإحياء الشعور الدينيِّ بين قومه، ولقد كانت هذه المبادئُ المقتبسةُ من الأديان الأخرى في نظره ضرورية لتثبيت سير الإنسان بحسب الآراء الإلهية، فتلقاها هو بصدق وأمانة، وبمقتضى إلهام أيدَتْه فيه المؤثراتُ الخارجية، وجاءه وحيا إلهيا، كان هو مقتنعا

بكونه وحيا إلهيا نازلا على لسانه »[1] .

لست أدري كيف ساغ لباحثنا الكبير أن يصف « جولد زيهر » بـ « سيد المدققين »، وأن يصف كتابه بـ « الكتاب الجليل » ؟ !!

إن هذا الوصفَ غير واقعيٍّ بالمرة ، بل إنه حكم مليء بالمجازفة .

وإذا أردنا الإنصافَ والدقة فالواجب أن نقول : إنه (سيد المزورين)، وكتاباتُه عن الإسلام تشهد بهذا وتُوَكِّده، ومنها كتابه المذكور ، الذي لا يحوي سوى الإفك والبهتان .

وهذا هو البيان:

أولا: أما عن «جولد زيهر» نفسِه؛ فإنه يُعدُّ من أبرز الخصوم الألدّاء للإسلام، حتى إن الدكتور " محمد البهيَّ " قد صنفه ضمن قائمة بالمتطرفين من المستشرقين، وقال عنه:

« جولد زيهر » : مَجَرِيٌّ عُرِف بعدائه للإسلام ، وبخطورة كتاباته عنه ، ومِن محرِّري « دائرة المعارف الإسلامية »، كتب عن « القرآن والحديث »[2] .

كما أن الدكتور " البهي " صنّف بعض كتبه ضمن قائمةٍ ببعض الكتب الاستشراقية المتطرفة[3] .

وقال عنه الشيخ " محمد زاهد الكوثريُّ " - في معرض حديثه عن كتابات

---

(١) حاضر العالم الإسلامي، تأليف لوثروب ستودارد، ترجمة عجاج نويهض ١ / ٣٧، من حواشي الأمير شكيب أرسلان على الكتاب.

(٢) الفكر الإسلامي الحديث وصلته بالاستعمار الغربي، ص ٤٤٨ .

(٣) السابق، ص ٤٥٤ .

المستشرقين ضد الإسلام ـ :

« ومن أخطر هذا الفريق المموِّه " جولد زيهر " المجريُّ الدم، اليهوديُّ النحلة، العريقُ في عداء الإسلام، الماضي في هذا السبيل طول حياته.

وهو من رجال أوائل القرن الميلادي الحاضر [١]، وله دراسات في القرآن وعلومه، والفقه وأصوله، وفي الكلام وفِرَق المتكلمين .

إلا أنه مُحتالٌ ماهرٌ في توليد ما يشاء من نصوصٍ يتصيدها من مصادرَ تعجبه باعتبار غايته ، مغالطا في تحميلها ما لا تحتمله من المعاني عند أهل البصيرة ، ومتجاهلا اختلافَ منازلِ تلك المصادرِ في الثقة والتعويل » [٢] .

ثانيا : النص الذي أورده " شكيب أرسلان " يَعِجُّ بالقدح في الإسلام ونبيه ﷺ ؛ وهو يلح على فكرة واحدة هي نزع صفة الربانية عن الدين الإسلاميّ الحنيف ، وتجريد الرسول الكريم ﷺ من النبوة والرسالة المؤيَّدة بالوحي من الله رب العالمين ، وما يصاحبها من معجزات يؤيد الله بها رسله ، وأن دعوة الإسلام التي جاء بها النبيُّ ﷺ بشريةٌ مخترَعة ، لفّقها صاحبُها من اليهودية والنصرانية وغيرهما .

ثم إن " جولد زيهر " لم يترك لنا مجالا للاستنباط ، بل قال في صراحة ووضوح :

« إن دعوة النبيِّ العربيِّ كان فيها نخبة مبادئ اعتقدها هو بالاختلاط مع

(١) يقصد القرن العشرين، حيث وُلِد " جولد زيهر " سنة ١٨٥٠م، وهلك سنة ١٩٢١م.
(٢) دفاع عن العقيدة والشريعة ضد مطاعن المستشرقين، محمد الغزالي، ص ١٧، دار الكتب الإسلامية، القاهرة، ط الخامسة ١٤٠٨هـ ١٩٨٨م .

اليهود والنصارى وغيرهم ، واقتنع بها ...

ولقد كانت هذه المبادئ المقتبسة من الأديان الأخرى ...

وبمقتضى إلهام أيدته فيه المؤثرات الخارجية ...

وجاءه وحيا إلهيا، كان هو مقتنعا بكونه وحيا إلهيا نازلا على لسانه ... » .

فهل أخبر " جولد زيهر " في كلامه هذا أن محمدا ﷺ كان نبيا مرسَلا من عند الله ، وأن مبادئه التي جاء بها إلهيةٌ مصدرُها الوحيُ الإلهيُّ ؟؟

أم تُراه يخبر بأن محمدا ﷺ هو الذي كان يتصور هذا الأمر ، ويعتقد هو هذا الفهم وذاك التخيل .. وأن المؤثّرات الخارجية ـ وليست المعجزات التي أيده الله بها ـ قد خدمته وأيدته في دعواه .. !!

ثالثا : وأما عن كتاب « عقيدة الإسلام وشريعته » الذي نقل منه "شكيب أرسلان" كلامَ « جولد زيهر » ووصفَه بـ « الكتاب الجليل » ؛ فلو أنه كلَّفَ نفسه عناء مطالعته ، والنظرِ فيما حواه لظهر له الوصف الدقيق اللائق بهذا الكتاب وبكاتبه ، حيث إنه كتاب يطفح بالتجنّي على الإسلام ، والتشكيكِ في شرائعه وشعائره ، وزعزعةِ الثقة في مبادئه ومصادره ، وأن كاتبه أطلق العِنان لأحقاده الدفينة وخيالاته المريضة في النيل من العقيدة الإسلامية، والقرآن الكريم والسنة النبوية ورواتها ..

وقد ردّ عليه العلماء وفنّدوا ضلالاته وأباطيله ، ومنهم الشيخ محمد الغزالي في كتابه « دفاع عن العقيدة والشريعة ضد مطاعن المستشرقين » ، والدكتور مصطفى السباعي في كتابه « السنة ومكانتها في التشريع الإسلامي » ، والشيخ "عبد الفتاح القاضي" شيخ المقارئ المصرية ، في كتابه « القراءات في نظر

المستشرقين والملحدين » .

تصدِّي الغرب وعموم المستشرقين لمن ينحو جانب الإنصاف من زملائهم :

ثم إن البيئة الغربيةَ وجموعَ المستشرقين تتصدى لكل مَن يحاول أن يسلك سبيل الإنصاف للإسلام في دراساته ، وتمارس ضغوطها لكي تصدَّ عن أيّ توجّه نحو الحيدة العلمية ، ويطالبون مَن يحاول أن يكون منصفا بأن يكتب كتابات علمية وموضوعية ، وأن يتحلى بروح المنهج العلميّ ، زاعمين أنه ـ بإنصافه للإسلام ، وقولِه الحقَّ ـ قد خالف ضوابط منهج البحث العلمي السليم ، وأنه يكتب كتاباتٍ عاطفيةً لا تخلو من رغبة في مجاملة المسلمين .

وباختصار فإن أصحاب الاتجاه العلميِّ النزيهِ من المستشرقين يَكُونون عرضة للعنت الشديد ، ويدفعون لقاء توجههم العلميِّ الخالص ثمنا باهظا ، ويحارَبون معنويا وماديا .

من دلائل الحرب المعنوية ضد المنصفين من المستشرقين:

وقد حُورب العديد ممن مالوا إلى جانب الإنصاف من المستشرقين أدبيا ومعنويا في الغرب ، « كما فعلوا مع " توماس أرنولد " حين أنصف المسلمين في كتابه القيم « الدعوة إلى الإسلام » ، فقد برهن على تسامح المسلمين في جميع العصور مع مخالفيهم في الدين ، على عكس مخالفيهم معهم ، هذا الكتاب الذي يُعتبر من أدقّ وأوثق المراجع في تاريخ التسامح الديني في الإسلام يَطعن فيه المستشرقون المتعصبون وخاصة المبشرين منهم ، بأن مؤلِّفه كان مندفعا بعاطفة قوية من الحب والعطف على المسلمين ، مع أنه لم يذكر فيه حادثة إلا

أرجعها إلى مصدرها »[١] .

ومن الأمثلة على هذا أن المستشرق الفرنسي « كاستريز » حين كتب كتاب (الإسلام) الذي صدر في باريس عام ١٨٩٦م ، وكان فيه شيء من الإنصاف للإسلام والنبي محمد ؛ انتقده كلٌّ من « رينيه باسيه » و « كارادي فو » ، كما علّق عليه المستشرق الألماني « جوستاف بفانموللر » في كتابه (موجز في أدب علوم الإسلام) الذي صدر أول مرة عام ١٩٢٣م في برلين بقوله :

« إن رأي « كاستريز » في محمد إيجابيٌّ أكثر مما ينبغي ، كما أنه يرى في القرآن أيضا من البداية حتى النهاية عملا فريدا ورائعا ، وباختصار : إنها انطباعات ، وليست دراسة علمية »[٢] .

وحين كتب المستشرق " بولا نفلييه " كتابه (حياة محمد) الذي ظهر في

---

(١) الاستشراق والمستشرقون ، د. مصطفى السباعي ، ص ٢٥ .

(٢) راجع: الإسلام في تصورات الغرب ، د. محمود حمدي زقزوق ، ص ٥٥ - ٥٦، دار وهبة، القاهرة ، ط الأولى ١٤٠٧هـ ١٩٨٧م .

وهو عبارة عن ترجمة لفصول مختارة من كتاب (موجز في أدب علوم الإسلام) للمستشرق «جوستاف بفانموللر ».

ولقد كان ينبغي على الدكتور "زقزوق" - فيما يظهر لي - أن لا يقوم بترجمة كتاب أو أجزاء منه، ثم يعمِد إلى اسم مغاير لما سماه به مؤلفه ، من دون أي داع ، ويضع اسمه على الغلاف موهما القارئ بأنه مَن قام بالتأليف ، وفي حالتنا هذه كان أجدر به أن يُسمِّيَ ترجمته هذه - مثلا - : « فصول مختارة من كتاب (موجز في أدب علوم الإسلام)؛ للمستشرق جوستاف بفانموللر » ثم يضع اسمه مشيرا له بأنه المترجم . . هذا ما يتمشى مع الأعراف الواجب مراعاتها في إطار منهج البحث العلمي، وهو ما لا ينقص من جهده ولا قدْره شيئا، فليُتأمَّل !! .

لندن عام ١٧٣٠م ، ومجّد فيه الإسلام ، ومدح النبي ﷺ ؛ هاجت الدنيا من حوله ، وانبرى له المتعصبون من أهل ملته، ورموه بالعداء للكنيسة، وعدم العلمية والموضوعية فيما كتب ، ووصف المستشرق " جان جانييه " الكتاب بأنه « مبالغات مضحكة » [١] .

سبحان ربي !!

هل دراسة الإسلام لا تكون علمية ـ في نظر المستشرقين ـ إلا إذا اشتملت على قدح وطعن فيه ؟!!

أما إذا تضمنت إنصافا أو شهادةَ حقٍّ للدين الحنيف فإنها حينئذٍ ـ في نظرهم ـ تكون إنشاءً ، وانطباعات شخصية لكاتبها ، ومبالغاتٍ تثير السخرية ، ولا تكون من قبيل الدراسة العلمية !!

أهذا هو المنهج العلميُّ الذي يتبناه السادة المستشرقون وتلامذتهم ؟!!

من دلائل الحرب المادية ضد المنصفين من المستشرقين:

وأما من الناحية المادية ؛ فإن دراسات ومؤلفات هذه الفئة ذات الدافع العلميِّ الخالص لا يُروَّج لها كما يُروَّج لدراسات مَن عداها من الفئات المتحيزة والمتحاملة ضد الإسلام والمسلمين، « لأن أبحاثهم المجردةَ عن الهوى لا تَلقَى رواجا؛ لا عند رجال الدين، ولا عند رجال السياسة، ولا عند عامة

(١) راجع ترجمة ما كتبه المستشرق « بفانمولر » بهذا الخصوص في كتابه (موجز في أدب علوم الإسلام) ، الذي ترجم بعضه د. محمود زقزوق تحت عنوان (الإسلام في تصورات الغرب)، ص ٨٥ ، ٨٦ .

الباحثين، ومن ثَم فهي لا تُدِرّ عليهم ربحا ولا مالا »[1].

ويظلون بحاجة إلى موارد مالية تؤمِّن لهم حياتهم المعيشيةَ بدرجة يُمْكِنُهم معها الانصرافُ إلى دراساتهم، وهيهات أن يكفل الغرب لمثل هؤلاء تأمينَ احتياجاتهم المادية على النحو اللائق.

بل إن بعضهم ربما تعرض لملاحقات ومحاكمات قضائيةٍ على آرائه المبثوثة في بحوثه ودراساته، والتي لا تُرضِي العقليةَ الغربيةَ الكارهةَ للإسلام، والمتعصبةَ ضد كل ما ينتمي إليه بصلة .

ومن الأمثلة على هذا الأمر ما حدث مع المفكر الفرنسي "رجاء جارودي" الذي اعتنق الإسلام؛ فقد ظل الرجل نحو نصف قرن تتهافت دور النشر على إصدار ونشر كتبه ، فلما كتب كتابه (الأساطير المؤسسة للسياسة الإسرائيلية)، والذي دافع فيه عن الحقوق التاريخية للعرب والمسلمين في فلسطين ، وردّ على مزاعم اليهود، وقال في هذا الكتاب: « إن النصوص التوراتية أو اضطهادَ "هتلر" لليهود لا يمكن أن يبررا سرقة أراضي فلسطين، واقتلاعَ سكانها وقمعَهم بتلك الصورة الوحشية والدموية ، كما أنهما لا يمكن أن يبررا الخطةَ الإسرائيليةَ الراميةَ إلى تفكيك أواصر الدول العربية وتفريقها .. » ، عندئذ لم يجد ناشرا في الغرب ينشر له الكتاب ، فاضطر إلى نشره على نفقته ، فضلا عما لاقاه من عنت ماديّ ومعنوي كبيرين، لدرجة أنه قُدِّم إلى المحاكمة في فرنسا بموجب قانون ظالم يَعتبِر النظرَ في تاريخ اليهود جريمة ضد الإنسانية.

ولقد نوّه "جارودي"بهذا في صدر كتابه المذكور، فقال: « إنه بعد أكثر من

(١)الاستشراق والمستشرقون ، ص ١٩.

نصف قرن صدرَتْ خلاله كتبي عن أكبر دور نشر فرنسية ، فإني مضطر اليوم لأن أطبع هذا الكتاب على نفقتي الخاصة ، لأنني منذ عام ١٩٨٢م قد خرقْتُ أحد المحرَّمات عندما انتقدتُ السياسة الإسرائيلية التي يدافع عنها الآن قانون "جيسوفايوش" الغاشم الذي صدر في ١٣ يوليه ١٩٩٠م، والذي يعيد في فرنسا جريمةَ الرأي التي سادت في عصر "نابليون الثالث" وجعلتْ قانونا قمعيًّا يُعوِّض ضعفَ الحجج »[١] .

هذا؛ وفي يوم الجمعة السابع والعشرين من فبراير ١٩٩٨م تمت محاكمة "جارودي" ـ بحسب ما ذكرتْه وكالات الأنباء ونشرته وسائل الإعلام المختلفة يومها[٢] ـ وقد أصدرت محكمة باريس حكمها عليه بدفْع غرامةٍ قدرُها مائةٌ وعشرون ألفَ فرانك، (أي ما يعادل عشرين ألف دولار وقتها)، بناء على اتهامه بالتشكيك في جرائم ضد الإنسانية في كتابه المشار إليه ـ في زعم المحكمة ـ ، كما قضت بالإفراج عن الناشر "بيار جيوم" باعتباره غيرَ مسئول عن توزيع الكتاب.

وجدير بالذكر أن هذا يحدث في فرنسا ، بلد ما يُزعَم بالتنوير وحرية الفكر والرأي !!! .

---

(١) راجع: الأساطير المؤسِّسة للسياسة الإسرائيلية، ص ٥ وما بعدها، ترجمتْه عن الفرنسية ونشرتْه بالعربية: دار الغد العربي – القاهرة، ط السابعة ١٩٩٦م .

(1) نُشِر هذا في جميع وكالات الأنباء والصحافة الصادرة في هذا التاريخ، وقرأْتُه يومَها بنفسي، ومن يراجع أيةَ صحيفةٍ صادرةٍ في ذلك اليوم ـ سواء أكانت عربية أم أجنبية ـ سيجد فيها هذا الخبر مفصَّلا.

حجم الدافع العلمي:

أما بعد : فهذا هو حال أصحاب الاتجاه العلميّ النزيه داخل الحركة الاستشراقية ، ولذلك يستطيع الباحث أن يقرر باطمئنان أن موقع الدافعِ العلميّ الخالصِ في الدراسات الاستشراقية يظل محدودا وضئيلا ، حتى إنه ليتوارى في كثير من الأحيان من خريطة تلك الدراسات ، كما أنه يظل كذلك محدود الأثر ، بدرجة يعجز معها عن ترسيخ تيار عام في إطار دراسات المستشرقين ، يَقْوَى على مزاحمة تيار التحامل والتحيز ضد الإسلام ، ويعدِّل من صورته الشائهة لدى الغرب .

المبحث الثالث

الدافع الاستعماري

قِدَم النزعة الغربية لاستعمار الشرق الإسلامي:

في الفترة ما بين القرنين الحادي عشر والرابع عشر الميلاديين أغار الغرب الصليبيُّ على الشرق الإسلاميِّ فيما عرف تاريخيًّا باسم "الحروب الصليبية"، وإذا كان السببُ الدينيُّ قد لعب الدورَ الأبرز في قيام تلك الحروب ؛ فإن الرغبة في سيطرة الغرب على العالم الإسلاميّ ، والاستحواذ على خيراته وثرواته كانت من الأسباب التي لا تقل في أهميتها وخطورتها عن العامل الدينيّ، بل إن بعض الباحثين يجعل رغبة الغرب في السيطرة على الشرق الإسلاميّ السببَ الرئيسَ وراء تلك الحروب، ويقرر ـ في معرض الحديث عن أسبابها ـ « أن تلك الأسبابَ كانت في ظاهرها دينيةً غايتُها تخليصُ بيتِ المقدسِ من يد المسلمين، بينما كانت في حقيقتها سبيلًا للسيطرة على الشرق الإسلاميِّ بما فيه من خيرات اقتصادية ومراكز حربية » (١) .

ولقد فشلت تلك الحروبُ على الصعيدين العسكري والسياسي ، وعادت فلولُ الصليب المنهزمةُ تجر أذيال الخيبة ، بينما كادت أوربا تتميز من الغيظ حيال الإسلام والمسلمين ، ومنذ ذلك الحين والعالمُ الأوربيُّ متحفِّزٌ مترقِّب يخطط لكيفية الثأر من العالم الإسلاميّ، تراوده رغبة السيطرة عليه والاستيلاءِ على بلاده بالغلبة وقوة السيف، وأخذ الغرب في اهتبال الفرص، « ودبّت

---

(١) التبشير والاستعمار ، ص١١٤ .

أوربة دبيبًا حول هذا العالم وجعلت تطوِّق شواطئ القارة الإفريقية من الغرب إلى أن بلغت شواطئ الهند، طوّقتْه يومئذ بطوق من الثغور تحتلها، ثم تنفذ من كل ثغر إلي بدن العالم الإسلامي شيئا فشيئا علي حذر شديد وبلا ضجيج يزعج »[1]، إلى أن انتصف القرن التاسع عشر الميلادي وأخذت أقطار العالم الإسلامي تخضع فعليا لدول أوربة ، وتسقط في قبضة الغرب واحدة تلو الأخرى ، وما إن جاءت الحرب العالمية الأولى (١٩١٤ـ١٩١٨م) التي انتهت بهزيمة تركيا وحلفائها حتى « سنحت الفرصة الكاملة لأقوى شعوب أوربة (إنجلترا وفرنسا) وإلى جوارهما(إيطاليا) فوضعت يدها على هذا الميراث الضخم من أمم الإسلام وشعوبه، وبسطت سلطانها عليها بأسماء مختلفة من احتلال واستعمار ووصاية وانتداب »[2] .

وهكذا حلَّ الاستعمار الغربيُّ في العالم الإسلامي ضيفًا ثقيلًا ، وأقبل بخيله ورجِله، ينتهب ثرواته ويمتص خيرات بلاده .

ومن هنا اتجه الغرب إلى الاستشراق لخدمة الهدف الاستعماري للعالم الإسلاميِّ ، وتلقَّف الحركةَ الاستشراقية وجعَلها محل رعايته ، سواء أكان ذلك في مرحلة الإعداد والتحضير للهجوم على العالم الإسلامي ، وقبل الاحتلال الفعليِّ لأقطاره؛ أم كان ذلك في المرحلة التالية، بعد أن تم له بالفعل

---

(١) أباطيل وأسمار، محمود محمد شاكر، ص ١، مطبعة المدني، القاهرة؛ ط الثانية ١٩٧٠م.

(٢) رسالة بين الأمس واليوم، مجموعة الرسائل، للإمام الشهيد حسن البنا ص ١٥٢، دار الدعوة ١٤١١هـ ١٩٩٠م، وقد عرض بالتفصيل لتقاسم الدول الاستعمارية وانتهابها ميراثَ دولةِ الخلافة الإسلامية، وراجع أيضا: الفكر الإسلامي الحديث، د. محمد البهي، ص ٢٣ ـ ٢٤.

استيلاؤه على البلاد الإسلامية « المستعمرة » ، وبَسطُ نفوذه عليها .

حاجة الاستعمار إلى الاستشراق في المرحلة التحضيرية لاحتلال الشرق الإسلامي:

فأما في المرحلة الأولى (مرحلة الإعداد للاحتلال) فقد كان الاستعمار بحاجة إلى معرفة المزيد من المعلومات عن العالم الإسلامي، مثل جغرافيته ؛ مكامن قوته ؛ نقاط ضعفه ؛ شعوبه ؛أديانه؛ لغاته ... إلى غير ذلك من المعلومات التي تُزوِّده بتصور تام عن البلاد التي ينوي احتلالَها كي يتمكنَ من إحكام الخطط الناجحةِ التي تمكّنه من تحقيق أغراضه الاستعمارية ، وأطماعه التخريبية ، ونواياه العدوانية ... وهنا يبرز دورُ الاستشراق ليكون بمثابة دليلِ الطريقِ للاستعمار ، ورائدِه في أودية الشرق وشِعابِه.

يقول الدكتور عبد المتعال الجبري: « يقدِّم المستشرقون للساسة في بلادهم تقارير في صورة مؤلَّفات .. أحيانا عن أخلاق وعادات البلاد الإسلامية ليُدرَس أمرها عند غزوها، فمثلا: "إدوارد لين" (١٨٠١ـ ١٨٧٦) وهو مستشرق إنجليزي قدم إلى مصر عام ١٨٢٥م للتضلع من العربية كتابة وحديثًا، ثم عاد إليها فأقام بها (إلى عام ١٨٣٥)، وأكبّ على درس الحياة في القاهرة دراسة مباشرة وعاش عيشة المصريين فكان يلقبه أصدقاؤه بمنصور أفندي ، فلما عاد إلى بلاده حتى نشر كتابه (أخلاق وعادات المصريين المعاصرة) عام ١٨٣٦، ونفدت طبعته الأولى بعد أسبوعين، فأعيد طبعه مرات في إنجلترا وألمانيا وأمريكا، وقد انتفعت به هذه البلاد في التعرف على عاصمة الشرق الأولى قبل القيام بغزوها »[(١)].

---

(١) الاستشراق وجه الاستعمار الفكري، ص١٣٣ .

حاجـة الاسـتعمار إلى الاسـتشراق في مرحلـة الاحتلال الفعلي للبلاد الإسلامية:

وأما في المرحلة التالية (مرحلة الاستيلاء الفعلي على البلاد الإسلامية)؛ فقد احتاج الغربُ المستعمِرُ إلى تثبيت أقدامه في الشرق الإسلامي، كما احتاج كذلك إلى تبرير سياسته الاستعمارية، وحماية نفوذه ومصالحة في البلاد الإسلامية، فكان لابد من دراسة بواعث القوة لدى المسلمين لشلِّها ، ومعرفة نقاط الضعف لاستغلالها ، كما احتاج كذلك إلى طبقة عملية من أبناء البلاد المستعمَرة تخدمه وتؤازره ، وهنا يبرز مرة أخرى دورُ الاستشراق ، ليقوم كهنتُه بدراسات مستفيضةٍ عن البلدان الإسلامية وتقديمِ النصائح المناسبة لأرباب الاستعمار، والتي تكفل لهم قهرَ المسلمين وإذلالهم ، واستمرارَ السيطرة عليهم، وقد ساعد الاستعمارُ المستشرقين في دراساتهم وذلّل لهم جميعَ الصعاب التي تعترض طريقهم ، وهكذا اهتم الاستعمار بالحركة الاستشراقية « فكان ملوك الدول الاستعمارية رعاتها ، وكان قناصلهم في بلدان الشرق عُمّالَها »[1] .

ولقد أسهمت الدراسات الاستشراقية بالنصب الوافر والجهد الواسع في تمكين الاستعمار الغربي في البلاد الإسلامية ، ومحاولة تهيئة الأجواء والنفوس لقبوله والخضوع لولايته ، ورأينا كثيرين من المستشرقين ارتضوا أن يسخروا علمهم وإمكاناتهم في سبيل قهر المسلمين وإذلالهم ، بدعم الحركة الاستعمارية، فكثير منهم «كانوا سياسيين ينفذون رغبات الاستعمار الغربي، فالمستشرقون "لويس ماسنيون"، و "هانوتو"، و "دوق دراكو"، و "سانت هلير"، وغيرهم كانوا أعضاء في المجالس النيابية في بلادهم، وكانوا

---

(١) المستشرقون والإسلام، زكريا هاشم، ص٢٠.

مستشارين لوزارات الخارجية فيها» [١] .

وكان "ماسنيون" يعمل مستشارًا لوزارة المستعمرات الفرنسية في شمال أفريقيا، وكان الراعي الروحي للجمعيات التبشيرية الفرنسية في مصر، وخدم بالجيش الفرنسي خمس سنوات في الحرب العالمية الأولى [٢] .

وقد كان من المستشرقين المعاونين للاحتلال البريطاني لمصر "إدوارد هنري بالمِر ١٨٤٠ـ ١٨٨٣"، الذي كان خبيرا ومتضلعا في لهجات بدْو سيناء وعاداتهم، ولما نشبت ثورة "عرابي" سنة ١٨٨٢م استُدعِي إلى مصر، وكلفته حكومتُه بالاتصال ببعض شيوخ البدو، فمنحَهم بِدَرًا من الذهب [٣]، ثم عُيِّن رئيسا لمترجمي القوة البريطانية في مصر [٤] .

ولا ننسى في هذا المجال "اللورد كرومر" المندوب السامي للاحتلال البريطاني في مصر، والذي كان العقلَ المدبِّرَ، والذراعَ الفاعلةَ لكل جرائم المستعمر الإنجليزيِّ الغشوم في مصر.

ومن المستشرقين مَن كان مِن أفراد القوة العاملة في جيوش بلادهم، مثل المستشرق الإنجليزي "السير جون مالكوم" الذي كان يعمل في وظيفة "مقدَّم

---

(١) الأساليب الحديثة في مواجهة الإسلام، د. سعد الدين صالح ، ص٩١ ، دار الأرقم، الزقازيق، مصر، ط الأولى ١٤٠٩هـ ١٩٨٩م، نقلًا عن: الفكر الإسلامي، أنور الجندي، ص ٢٠٠.

(٢) الفكر الإسلامي الحديث، ص٤٥٠ بتصرف .

(3) (البَدْرَة) كيس فيه مقدار من المال يُتعامل به ويقدَّم في العطايا، و يختلف باختلاف العهود. المعجم الوسيط ١/ ٤٤ .

(4) المستشرقون ، ٢/ ٦٥ بتصرف.

في الجيش" ـ بحسب ما ذكر " نجيب العقيقي " ـ [١] .

والمستشرق "فردريك بيك" الذي كان برتبة "عقيد" في الجيش البريطاني، ومن كتبه: تاريخ شرق الأردن وقبائله ، في ٤٩٢ صفحة [٢] .

والمستشرق الإرلنديُّ الأصل، الفرنسيُّ الجنسية " البارون دي سلان ١٨٠١ـ ١٨٧٨م " الذي كان يعمل مترجِمًا في وزارة الحربية الفرنسية [٣] .

والمستشرق البريطاني البروفسور "أندرسون" رئيس قسم قوانين الأحوال الشخصية المعمول بها في العالم الإسلامي، في معهد الدراسات الشرقية في جامعه لندن، وهذا المستشرق متخرج من كلية اللاهوت في جامعة كمبردج، وكان من أركان حرب الجيش البريطاني في مصر خلال الحرب العالمية الثانية ـ كما ذكر هو ذلك بنفسه للدكتور "مصطفى السباعي" رحمه الله ـ، وقد تعلم العامّيةَ المصريةَ من اختلاطه بالشعب المصريِّ حين تولّيه عملَه العسكريَّ ، ولما عاد إلى لندن بعد الحرب انتقل من الخدمة العسكرية إلى الجامعة، وشغل الوظيفة المشار إليها [٤] .

يقول الدكتور "محمد البهيّ": « وينطوي عمل الدارسين للإسلام من المستشرقين على نزعتين رئيسيتين:

---

(1) السابق ، ٢/ ٥٣ .

(2) المستشرقون ، ٢/ ١٠٨ بتصرف .

(3) السابق ١/ ١٨٠ بتصرف .

(4) راجع: السنة ومكانتها في التشريع الإسلامي، ص ١٢ ــ ١٣، الاستشراق والمستشرقون، ص ٥١ ـ ٥٢ .

النزعة الأولى: تمكين الاستعمار الغربي في البلاد الإسلامية، وتمهيد النفوس بين سكان هذه البلاد لقبول النفوذ الأوربيّ والرضا بولايته.

النزعة الثانية: الروح الصليبية في دراسة الإسلام، تلك النزعة التي لبست ثوب البحث العلمي، وطلاها خدمة الغاية الإنسانية المشتركة.

[ويُبيِّن أن مظهر النزعة الاستعمارية يتجلي في] : أولًا : إضعاف القيم الإسلامية. وثانيًا في تمجيد القيم المسيحية الغربية »[1].

وهذا مثال خطير يدل على تسخير الاستعمار للمستشرقين، وما بين الاثنين من تعاون وترابط وثيق.

يقول الدكتور عبد المتعال الجبري : « في أواخر القرن التاسع عشر وأوائل هذا القرن [العشرين] واجهت هولندا حركة إسلامية وطنية تعارض التسلط الاستعماري الصليبي، وعجزت هولندا عن مواجهه هذا المدِّ الإسلاميِّ التحرريِّ الذي بلغ غايته عندما تأسست أول منظمة إسلامية « شركت داكنج إسلام » وظهرت العلاقات الطيبة بين مسلمي " اتجه " وسلطانها وبين كل من "سومطره" والخلافة العثمانية.

واستقر تفكير ساسة هولندا على تجنيد المستشرق الهولندي " سنوك هورو جونجى " لدراسة خطة تُعجِزُ الحركةَ الإسلاميةَ عن المسير، إن لم تقتلها، وهبط المستشرق " سنوك " على أرض سلطنة " اتجه " مركز التأثير الواسع على الحركة الإسلامية، يدرس الأمر على الطبيعة ثلاث سنوات، ونشر تقاريره في كتاب سماه " اتجه "، أشار فيه إلى نُقَط الضعف التي اكتشفها في

(١) الفكر الإسلامي الحديث، ص٤٣.

المجتمع الإسلامي والحركات الإسلامية في أندونيسيا ، وقال : إن هذه الحركة لا يمكن ضربُها من الخارج ، والقضاءُ عليها بقوة الجيش واعتقالِ زعمائها وإلغاءِ نشاطها ، إذ إن العقيدة الإسلامية متمكنة من نفوس المسلمين ، ولهذا وجب أن يكون الاتجاه إلى ضربها من الداخل عن طريق زرع بذور الخلاف في صفوفها ، وتشكيك القائمين عليها ، وتوريد آراء وعقائد جديدة إلى المنطقة ، وأهم هذه الآراء نشر التيار القومي والتيار الماركسي .

فعن طريق القومية تنحلّ الروابط بين " اتجه " و " سومطره " ، أو بينها وبين " تركيا " ، وبينها وبين كافة القوي والشعوب الإسلامية ، كما تضعف قوة اندفاع الحركة الإسلامية العالمية بشل الحركة في أندونيسيا .

أما التيار الشيوعي فهو كفيل ببث الإلحاد ونشر الفساد ، وشغل الوطنيين بمحاربته ، وبهذا ينشغلون عن قبضة هولندا ومؤسساتها » [١].

اتفاق الدول الاستعمارية على أن الإسلام خطر يجب مكافحته:

هذا ومن الجدير بالذكر أن الدول الاستعماريةَ قد اجتمعت كلمتها على أن الخطر الأكبر الذي يتهددهم إنما يكمن في الإسلام وتمسك المسلمين به، فهو يأبى على أتباعه المذلة والاستكانة، ويأمرهم بالجهاد وتحرير الأوطان، ويعدهم بإحدى الحسنيين: النصر أو الشهادة ، ويأمرهم بإعداد العدة والوَحدة والإخاء فيما بينهم ، وغيرِ ذلك من المبادئ التي تشكل تهديدًا فعليًا للمستعمر الأجنبي، فاتفق رأي هذا المستعمر على ضرورة محاربة الدين العظيم وإضعاف

---

(١) الاستشراق وجه الاستعمار الفكري، ص ١٥٩ـ ١٦٠ .

تمسك المسلمين به، والحيلولة بينهم وبين تطبيق مبادئه .

ولقد « قرر المؤتمر الاستعماري في برلين ١٩١٠م :

إن ارتقاء الإسلام يتهدد نمو مستعمراتنا بخطر عظيم ، لذلك فإن المؤتمر الاستعماريّ ينصح للحكومة بزيادة الإشراف والمراقبة على أدوار هذه الحركة ، والمؤتمر الاستعماري يشير على الذين في أيديهم زمام المستعمرات أن يقاوموا كل عمل من شأنه توسيع نطاق الإسلام ، وأن يزيلوا العراقيل عن طريق انتشار التبشير » .

ويقول " جلاد ستون " الزعيم البريطاني الذي احتلت بريطانيا مصر عام ١٨٨٢م في عهد وزارته:

« ما دام هذا القرآن موجودًا فلن تستطيع أوربا السيطرة على الشرق..بل ولا أن تكون هي نفسها في مأمن » .

ويقول الحاكم الفرنسي في الجزائر - بمناسبة مرور مائة عام على احتلالها - :

« يجب أن نزيل القرآن العربيَّ من وجودهم ، ونقتلع اللسان العربيَّ من ألسنتهم ، حتى ننتصر عليهم » [١] .

وقد سُخِّر المستشرقون في العمل على مكافحة الإسلام وإضعاف شأنه ، تنفيذا لتلك المخططات الاستعمارية .

يقول المستشرق الألماني المعاصر " استيفان فيلد " : « ... والأقبح من ذلك أنه توجد جماعة يسمون أنفسهم مستشرقين سخّروا معلوماتهم عن الإسلام

---

(١) يراجع الغزو الفكري التحدي والمواجهة، للمؤلف، ص ٧١ - ٧٦ باختصار، وفيه المراجع التي أخذ عنها، دار الكلمة، المنصورة، مصر، ط الأولى ١٤٢١هـ ٢٠٠٠م .

وتاريخه في سبيل مكافحة الإسلام والمسلمين، وهذا واقع مؤلم لا بد أن يعترف به المستشرقون المخلصون لرسالتهم بكل صراحة »[(١)] .

دور الاستشراق في خدمة الاحتلال الصهيوني لفلسطين المسلمة:

ولا يفوتنا في هذا المجال أن نشير إلى الدور الخطير للحركة الاستشراقيه في تثبيت أركان الاستعمار اليهودي الصهيوني لفلسطين المسلمة ، ومحاولات تبريره وإضفاء الشرعية على وجوده وممارساته العدوانية وأطماعه الجشعة .

ولقد سبق القول بأن من أكبر الدوافع وراء دخول اليهود ميدان الاستشراق الأسبابَ السياسيةَ التي تهدف إلى خدمة الصهيونية فكرة أولًا، ثم دولة ثانيًا.

واليهود ـ لا شك ـ يعتقدون كغيرهم من أعداء الإسلام، أن وجودهم الاستعماريَّ في فلسطين لا يهدّده شيء مثل الإسلام، وأن عليهم لضمان بقائهم، أن يعملوا على مكافحته ، وضرْبَ الحركةِ الإسلامية أينما وُجِدت ، ويجندوا كلّ السبل لإنجاح هذا العمل.

وقد صدرت أقوال عن رموز الاستعمار اليهودي تؤكد على تلك الحقيقة .

قال "بن جوريون" رئيس وزراء العدو الصهيوني الأسبق :

إن كبت المسلمين وتصفيتَهم شرط ضروريٌّ للتفاهم والتعامل مع العرب لأن عقيلتهم المتعصبة (أي تمسكهم بالحق ومقارعتهم للباطل بما يفرضه الإسلام) تشكِّل أكبر عقبة في طريق السلام .

(١) الاستشراق والخلفية الفكرية، ص٥٤ : ٥٥ .

ويقول أيضا : إن أخشي ما نخشاه أن يظهر في العالم العربي محمد من جديد .

وقال راديو إسرائيل(٨أيلول ١٩٧٨م) : إن أخطر ما يتهدد مستقبل إسرائيل هو استيقاظ الروح الإسلامية من جديد .

إن على اليهود وأصدقائهم أن يدركوا أن الخطر الحقيقيَّ الذي يواجه إسرائيل هو خطر عودة الروح الإسلامية إلى الاستيقاظ من جديد ، وإن على كل المحبين لإسرائيل أن يبذلوا كل جهودهم لإبقاء الروح الإسلامية خامدة ، لأنها إن اشتعلت من جديد فلن تكون إسرائيل وحدها في خطر ، ولكن الحضارة الغربية ستكون في خطر [1] .

ولقد غزا المستشرقون اليهود ومناصروهم الموسوعات العلمية الثقافية بأفكارهم الاستعمارية التي تطمس الحقائق ، وتزور التاريخ بما يخدم الأطماع الاستعمارية الصهيونية في فلسطين .

وفي هذا الصدد يقول الدكتور كامل العسلي في مقابلة أجرتها معه صحيفة الدستور الأردنية في ١٥/ ٥/ ١٩٨٢ ما يلي :

« إن قراءة سريعة للموسوعة البريطانية " إنسايكلو بيديا بريتانيكا " والموسوعة الأمريكية " ماير " والموسوعة الألمانية ، والموسوعة الفرنسية " لاروس " تؤكد أن هذه الموسوعات تتبنى بجلاء وجهة النظر الصهيونية ، وتدافع وتصِرّ جميعًا على إطلاق اسم " أرض إسرائيل " على " فلسطين " ، وتزعم أنه لم يكن هناك في التاريخ ولا في القانون الدولي بلد يدعي فلسطين ، وهذه الموسوعات تبدأ تاريخ القدس بمملكة داود وسليمان، متجاهلة أن

(1) الغزو الفكري التحدي والمواجهة، ص ٧٢ ـ ٧٣، وفيه المراجع التي أخذ عنها.

القدس الكنعانية قامت قبل داود وسليمان بألفي سنة على الأقل .

ويشير الدكتور " العسلي " ـ بأسى ومرارة ـ إلى أن الموسوعة الإسلامية قد عَهِدت إلى يهودي صهيوني ليكتب لها الفصل الخاص بالقدس .

وتعتبر الموسوعة المسماة " انسيكلوبيديا نيو كاكستون " التي تصدر في بريطانيا من أشد الموسوعات تهجمًا على العرب والمسلمين ، وقد مُنع تداولها في معظم البلاد العربية، كما تعتبر دائرة المعارف البريطانية " بريتانيكا انسيكلوبيديا " من أشهر الموسوعات الوثائقية وأكثرها انتشارًا، ويستطيع المرء أن يكتشف السموم الصهيونية في ثنايا صفحات هذه الموسوعة بكل وضوح»[1] .

« ويشتد الأسى ويتعاظم حين نرى السموم الصهيونية قد امتدت إلى موسوعة تصدرها منظمة اليونسكو الدولية التي يشكل المال العربي الإسلامي عصب ميزانيتها ، ففي المجلد الثالث من موسوعة " تاريخ الجنس البشرى وتقدمة الثقافي والعلمي " وتحت عنوان : (الحضارات الكبرى في العصر الوسيط) يطالعنا التعريف الوقح التالي للإسلام :

إن الإسلام هو تركيب ملفَّق من المذاهب اليهودية والنصرانية ، بالإضافة إلى التقاليد الوثنية العربية التي أبقى عليها الإسلام كطقوس إسلامية قبلية ، تجعلها أكثر رسوخًا في العقيدة »[2] .

---

(١) السيطرة الصهيونية على وسائل الإعلام العالمية، زياد أبو غنيمة، ص١١٥، دار عمار، الأردن، ط الأولى ١٤٠٤ هـ ١٩٨٤م .

(٢) السابق، ص ١١٦، ١١٧، وينظر أيضا ما بعدها .

وأما عما تقيَّأه المستشرقون اليهود من كتابات تطفح بالضغينة والعداوة للإسلام من أمثال " جولدزيهر "، و " إسرائيل ولفنسون " و " مكسيم رودنسون " الذي تظاهر ببعض المواقف المناهضة للصهيونية، لكنه في حقيقة أمره من أعداء الإسلام وأقسى مهاجميه، و" مرجليوث " و " برنارد لويس "، و " كارل بروكلمان "، وغيرهم فهذه الكتابات لا يخفى أمرها .

وثيقة خطيرة تدل على تسخير الاستشراق لخدمة المشروع الاستعماري اليهودي :

ومن أجل التمكين للاستعمار الصهيونيِّ واحتلالِه أرضَ فلسطين ، ومحاولةِ إطالة أمدِه إلى الأبد ؛ يقوم المستشرقون اليهود على وجه الخصوص بالدراسات التي تضمن لهم تحقيق تلك الغاية .

و من أخطر الدراسات التي تمت بهذه الخصوص ـ وتعدُّ وثيقةً خطيرةً دالة على النشاط الاستشراقي المسخَّر لخدمة المشروع الاستعماري اليهودي ـ تلك الدراسة الخطيرة التي تنطوي على تصور ومخطط لتفتيت العالم الإسلامي، وتفكيكه وإلغاء الأمة الإسلامية وتحويلها إلى ركام من الطوائف والملل والنحل والمذاهب والأقوام والأعراق ، لضمان العُلوِّ الإسرائيليِّ وهيمنةِ اليهود ليس فقط على فلسطين ، وإنما على وطن العروبة وعالم الإسلام .

وقد أعدّ هذه الخطةَ وصاغها المستشرقُ الصهيونيُّ " برنارد لويس " ، ونشرتها مجلة " Executive Intelligence research project " التي تصدرها وزارة الدفاع الأمريكية (البنتاجون)، والتي يخطط فيها لتقسيم الشرق إلى دويلات إثنيه أو مذهبية .

وقد كشف عن هذه الخطة الاستعمارية الصهيونية التي صاغها هذا المستشرق ؛ الدكتور " محمد عمارة " ، ونتابع معه عرضها وهو يقول [1] :

وبموجب تلك الخطة يدعو برنارد لويس إلى :

١ - ضم إقليم بلوشستان الباكستانى إلى مناطق البلوش المجاورة في إيران ، وإقامة دولة بلوشستان .

٢ - ضم الإقليم الشمالي الغربي من ا لباكستان إلى مناطق البوشتونيين في أفغانستان ، وإقامة دولة بوشتونستان.

٣ - ضم المناطق الكردية في إيران والعراق وتركيا ، وإقامة دولة كردستان .

٤ - إن اقتطاع المناطق الكردية والبلوشية من إيران ، يفتح ملف التقسيم الداخلي لإيران في ضوء الواقع الإثني ، مما يحقق إقامة الدويلات التالية :

أ ـ دويلة إيرانستان . ب ـ ودويلة أذربيجان.

ج ـ ودويلة تركمانستان . د ـ ودويلة عربستان .

٥ ـ إقامة ثلاث دول في العراق:

أ ـ إحداها كردية سنية في الشمال . ب ـ والثانية سنية عربية في الوسط.

---

(1) يُراجع دراسة للأستاذ الدكتور " محمد عمارة " بعنوان : (المشروع الصهيوني لتفكيك العرب والمسلمين) ، نُشِرت في جريدة " الشعب " المصرية ، عدد ١١٧٦، ص ٤ ، في الثلاثاء ٣ من ربيع الأول ١٤١٨هـ ٨ من يوليو ١٩٩٧م .

ج ـ والثالثة شيعية عربية في الجنوب .

٦ ـ إقامة ثلاث أو أربع دول في سوريا :

أ ـ منها واحدة درزية . ب ـ وثانية علوية (نصيرية) .

ج ـ وثالثة سنية .

٧ ـ وتقسيم الأردن إلى كيانين :

أ ـ أحدهما البدو . ب ـ والآخر للفلسطينيين ، (دون إشارة إلى الضفة الغربية للأردن التي ستضمها إسرائيل) !.

٨ ـ أما العربية السعودية فسوف يحسن إعادتها إلى الفسيفساء القبلية التي كانت فيها قبل إنشاء المملكة سنة ١٩٣٣م ، بحيث لا يعود لها من الوزن سوى ما للكويت والبحرين وقطر وإمارات الخليج الأخرى !

٩ ـ يعاد النظر في الجغرافيا السياسية للبنان على أساس إقامة :

أ ـ دويلة مسيحية . ب ـ ودويلة شيعية .

ج ـ دويلة سنية . د ـ ودويلة درزية .

هـ ـ دويلة علوية.

١٠ـ تقسيم مصر إلى دولتين على الأقل:

أ ـ واحدة إسلامية . ب ـ والثانية قبطية .

١١ـ يفصل جنوب السودان عن شماله لتقام فيه :

أ ـ دولة زنجية مستقلة في الجنوب . ب ـ ودولة عربية في الشمال .

١٢ ـ يعاد النظر في الجغرافيا السياسية للمغرب العربي، بحيث تقام للبربر

أكثر من دولة حسب التوزيع والانتماء القبليين .

١٣- كذلك يعاد النظر في الكيان الموريتاني ، من خلال الصراع القائم بين العرب والزنوج والمولدين .

وبعد هذا التخطيط الذي يضيف إلى « تجزئه وتفتيت " سيكس بيكو " سنة ١٩١٦م » أكثر من ثلاثين دويلة عرقية ودينية ومذهبية ، يضيف " برنارد لويس " قوله : « إن الصورة الجغرافية الحالية للمنطقة لا تعكس حقيقة الصراع ، وإن ما هو على السطح يتناقض مع ما هو في العمق : على السطح كيانات سياسية لدول مستقلة ، ولكن في العمق هناك أقليات لا تعتبر نفسها ممثَّلة في هذه الدول ، بل ولا تعتبر أن هذه الدول تعبِّر عن الحد الأدنى من تطلعاتها الخاصة » .

فالمخطط لا يرى إلا الصراع ، وهو يريد تفتيت الأقوام والملل والمذاهب إلى دويلات ليس لها أدنى مقومات الدول ، كل ذلك لحساب جعل الطوائف اليهودية التي لا تجمعها روابط الأمة الواحدة أو الحضارة الواحدة والتي لم تُقِم عبر تاريخها الطويل دولة متحدة ؛ كل ذلك لحساب أن تصبح هذه الطوائف الدولةَ المهيمنةَ على وطن العروبة وعالم الإسلام !

نعم، يفصح برنارد لويس عن هذا المقصد ، فيقول في هذا المخطط : « ويرى الإسرائيليون أن جميع هذه الكيانات ، لن تكون فقط غير قادرة على أن تتحد ، بل سوف تشملها خلافات لا انتهاء لها على مسائل حدود وطرقات ومياه ونفط وزواج ووراثة ...إلخ .

ونظرًا لأن كل كيان من هذه الكيانات سيكون أضعف من إسرائيل فإن

هذه ستضمن تفوقها لمدة نصف قرن على الأقل » .

ففي سبيل العلو الإسرائيلي الموظف لحساب المشروع الغربي يكون التخطيط والتنفيذ لتفتيت وحدة الأمة الإسلامية إلى ذرات من الأقوام والملل والنحل والمذاهب والطوائف والأعراق والألوان . أ.هـ كلام الدكتور " محمد عمارة " .

وهكذا تَحكّم الدافع الاستعماري اللعين في توجيه الحركة الاستشراقية كما تَحكّم فيها وسيطر عليها من قبل الدافعُ الدينيُّ المتعصِّب .

المبحث الرابع

الدافع السياسي

لقد برز هذا الدافع مع بداية استقلال البلدان الإسلامية عن الاستعمار الغربي ، وتجلى أكثر عندما رجعت جيوش المستعمر إلى بلاده ، ثم أقامت الدول الغربية علاقات دبلوماسية مع الدول الإسلامية ، وصار لها سفارات وقنصليات ، ومُلحقون ثقافيون وعسكريون وغيرهم ، يقومون على رعاية مصالح تلك الدول الغربية .

حرص الدول الغربية على الاسترشاد بنصائح المستشرقين:

والدول الغربية تظل دائما بحاجة إلى مشورة المستشرقين ، والاسترشاد بآرائهم ونصائحهم عند رسم سياستها الخارجية في بلاد الشرق الإسلامي ، كما أنها تحتاج إلى من يرصد لها باستمرار واقع تلك البلاد ، وما تموج به من تيارات أو حركات مناوئة أو ممالئة لها ولمصالحها ، ونحو ذلك من الأمور ، وهذا يتطلب إيجادَ متخصصين في دراسة الشرق الإسلامي دراسة دقيقة ، ومنحَهم الرعاية الشاملة والدعم اللازم ، ماديًّا ومعنويًّا، لأجْل الحفاظ على مصالح الغرب في منطقة الشرق الإسلامي ، تلك المصالح التي يتشبث بها ولا يمكن أن يستغني عنها ، أو يفرِّط فيها أبدًا .

يقول الدكتور إبراهيم اللبان: « ... والواقع أن رجال السياسة في الغرب على صلة وثيقة بأساتذة هذه الكليات (كليات اللغات الشرقية في أوربا)،

وإلى آرائهم يرجعون قبل أن يتخذوا القرارات الهامة في الشئون السياسة الخاصة بالأمم العربية والإسلامية ، وقد سمعْتُ أحدَ كبارِ المستشرقين يتحدث أمامي فيذكر أن مِسْتر " إيدن " كان قبل أن يضع قرارًا سياسيًّا في شئون الشرق الأوسط ؛ بجمع المستشرقين المستعرِبين ويستمع إلى آرائهم ، ثم يقرر ما يقرر في ضوء ما يسمعه منهم ، هذا إلى أن بعضهم كان يؤسس صِلاتِ صداقةٍ بالبارزين من رجال الأمة العربية ، ويتخذ من هذه الصلات ستارًا يقوم مِن ورائه بأعمال التجسس في أثناء الحرب »[(١)] .

ومن المستشرقين مَن كان يعمل في السلك السياسي لبلاده ، مثل المستشرق البريطاني " السير وليم ماكنجتن ١٧٩٣ـ ١٨٤١م " حيث أورده " العقيقي " وذكر أنه : « سياسيٌّ ؛ قصَد مِدراس (١٨٠٩)، وعمل في البنغال (١٨١٦)، وعُيِّن سكرتيرا للورد " وليم بنتنج " (١٨٣٠) ، ثم أمينا للحاكم العام (١٨٣٧) »[(٢)] .

والمستشرق الفرنسي " بيلِن ١٨١٧ــ ١٨٧٧م " الذي أُلحِق بالسلك السياسي ، فتنقل بين سالونيك ، والقاهرة ، والقسطنطينية حيث رُقِّي إلى درجة قنصل[(٣)] .

---

(١) الاستشراق والخلفية الفكرية، ص ٥٨، نقلا عن د. اللبان، ص ١٨، وانظر: الاستشراق وجه للاستعمار الفكري ، ص ١٧٣ .

و "إيدن " هو " أنتوني إيدن " وزير خارجية، ورئيس وزراء بريطاني سابق، وقد أسهم في العدوان الثلاثي على مصر سنة ١٩٥٦م .

(2) المستشرقون ٢/ ٥٣ .

(3) السابق ١/ ١٨٧ .

خوف الغرب من صحوة إسلامية تعيد للمسلمين عزتهم:

ثم إن النفسية الأوربيةَ الكارهةَ للإسلام والمتخوفةَ من عودة سلطانه من جديد لم تزل باقية ، ولا يزال الغرب يرى في الإسلام عدوًّا يهدد حضارته الغربية المادية بقدرته الحيوية على الانتشار والتوسع ، وبما يملكه من نظرة كلية متكاملة للكون والإنسان والحياة .

ومن أجل هذا فهُم على يقظة تامة ، ومتابَعةٍ دائبةٍ للصحوة الإسلامية المعاصرة ، ورصْدٍ حثيثٍ لحركة المدِّ الإسلاميِّ ، وجاهدون في العمل بكل السبل لوقف مسيرته ومحاصرته داخل أقطاره ، بل ومزاحمته والتضييق عليه في عقر داره ، والحيلولة دون تبنِّي الإسلامِ منهجَ حياة في البلاد الإسلامية ، وخاصة بعد انهيار ما كان يُعرَف بالاتحاد السوفيتي في العِقْد الأخير من القرن العشرين ، وانتهاء ما كان يُسمَّى بالحرب الباردة بين المعسكرين الشيوعي والرأْسمالي .

ثم إن الغرب لا يزال يتبني بقوة إشاعةَ الأفكار والتوجّهات التي تُضعِف من تماسك المسلمين ، مثل الدعوة إلى القوميات ، وإحلالِ اللهجات العامية محل الفصحى ، والترويجِ للعلمانية في البلاد الإسلامية وتزيينِها لحكام العالم العربي والإسلامي ، فيسهروا على حمايتها ، ويُفسِحوا المجال لدعاتِها ، وهذا وأمثالُه من شأنه أن يعبِّد الطريق للهيمنة الغربية على الشرق الإسلامي ، ويُبقِي على تبعيّة هذا الشرق للغرب الأوربي .

ومن ناحية أخرى فإن الدول الغربية تقف وقفة يقظة في وجه أية دعوة أو حركة إسلامية صادقة وجادة في العمل من أجل التمكين للإسلام ، وعودة

المسلمين إلى التمسك به ، وتطبيق شريعته تطبيقًا شموليًّا يعيد للمسلمين مجدهم وعِزّهم كما كانوا في سالف عهدهم ، ولذلك يتابع الغرب مسيرة هذه الدعوات الجادّة ويرصد حركتها ، ويقوم المستشرقون بدراستها تمهيدًا لوضع التصورات والخطط اللازمة لشلِّ فاعليتها والقضاء عليها .

« وتتعاون المخابرات الغربية بوجه عام ، والمخابرات الأمريكية بوجه خاص تعاونا وثيقا ، مع مراكز الدراسات الاستشراقية ، وبخاصة مراكز دراسات الشرق الأوسط في الغرب، ولا سيما فيما يتعلق بالصحوة الإسلامية وتطوراتها.

وقد كشفت الوثائق أخيرا أن المستشرق اليهوديَّ الأمريكيَّ " ناداف سفران " مدير مركز دراسات الشرق الأوسط بجامعة هارفارد (ويعدُّ من أخطر المراكز في العالم الغربي كله ، وكان مديره الأسبق المستشرق البريطاني هاملتون جب) قد تلقَّى سِرًّا مبلغَ ٤٥ ألفَ دولار من المخابرات المركزية الأمريكية CIA لعقد مؤتمر دولي عن الأصولية (وهو المصطلح الذي يُطلِقونه في الغرب على الصحوة الإسلامية) ، وكان سيقال عنه ـ كالعادة ـ إنه مؤتمر للبحث العلمي النزيه »[1] .

ومن الأمثلة في هذا الصدد؛ ما تقوم به الدول الغربية من متابعة دقيقة لحركة الإخوان المسلمين ، منذ أن ظهرت على يد مؤسسها الإمام الشهيد "حسن البنا"، والعمل الدؤوب من جانب تلك الدول على القضاء عليها

---

(1) رؤية إسلامية للاستشراق، د. أحمد غراب ، ص ١٤٤ : ١٤٥ ، المنتدى الإسلامي، لندن. وقد أحال فيما أورده إلى مجلة تايم الأمريكية (١٣/ ١/ ١٩٨٦م) ص ٢٦، والأيكونوميست البريطانية (٢٢/ ٢/ ١٩٨٦م) ص ٣٧ ـ ٣٨ .

وإغراء الحكام في العالم العربي بضربها ومصادرة نشاطها ، وتشويه سمعتها داخليًا وخارجيًا ، مع أنها حركة تدعو إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة ، وتتبنى منهج الرسول ﷺ في الدعوة وتغيير المنكر ، وتهدف إلى إيجاد الفرد المسلم والبيت المسلم والمجتمع المسلم ، كما فعل النبيُّ ﷺ في بناء دولة الإسلام الأولى ، وتدعو إلى تطبيق شرع الله تعالى بشموله تطبيقًا يتسنَّم به المسلمون ذُرى المجد ، وقمة الفلاح والعزِّ ، وترى ـ انطلاقًا من مبادئ الإسلام ـ أن الأمة الإسلامية أمة ذات رسالة ، وعليها أن تقودَ الدنيا بالإسلام إلى بَرِّ النجاة وشاطئ الأمان .. إلى غير ذلك مما قامت عليه ومن أجله مبادئ هذه الدعوة المباركة ، منذ أن صدع بها مرشدها الأول الشيخ حسن البنا ـــ رحمه الله ـ .

ولكن دول الغرب ـ راعيةَ مشروعِ الهيمنة الغربية الصهيونية على العالم الإسلاميِّ ـ رأت في تلك المبادئ الخطر الأكبر عليها ، فلم تتردد في القضاء على الدعوة ، وبدأ التخطيط للقضاء عليها باجتماع سفراء انجلترا وأمريكا وفرنسا في مدينة " فايد " بالإسماعيلية (من مصر) بتاريخ ١٠/ ١١/ ١٩٤٨م ، وقرروا اتخاذ الإجراءات اللازمة بواسطة السفارة البريطانية في القاهرة لحل الجماعة، الذي تم فيما بعد، وأعقبه اغتيال مؤسسها الإمام الشهيد "حسن البنا" في ١٢ فبراير سنة ١٩٤٩م الموافق ٤ ربيع الآخِر سنة ١٣٦٨هـ [١] .

(١) للاستزادة حول هذا الأمر يراجع : الأسرار الحقيقية لاغتيال حسن البنا ، جابر رزق ، ص ٤٧ وما بعدها ، وص ٥٩ وما بعدها ، حيث إن فيه وثائق بهذا الشأن لا يتطرق إليها الشك ، دار الدعوة ، الإسكندرية ، ط الثانية ١٤٠٤هـ ١٩٨٤م .

« ويذكر " ريتشارد . ب. ميتشيل " في دراسته التي نال بها الدكتوراه عن " الإخوان المسلمين والتيار السلفي عند رشيد رضا " ، أن هذا الاهتمام بالتاريخ العربي والإسلامي هو جزء من السياسة الأمريكية العليا ، وقد بدأت الحكومة الفيدرالية تهتم بذلك منذ الخمسينيات ، وظهر بأمريكا برنامج (التعليم من أجل الدفاع القومي) ، أي تعلم لغات وأحوال الدول الأسيو أفريقية للانتفاع بها في خدمة السياسة الأمريكية ، وربما كان الاستشراق ستارًا للتجسس » [1] .

هذا و " ميتشيل " نفسه واحد من المستشرقين العاملين بالدوائر السياسية في بلادهم « وقد عمل بالسلك الدبلوماسي الأمريكي ، قائما بالأعمال في السفارة الأمريكية باليمين الشمالي خلال السنوات التي سبقت ثورة ١٩٦٢م ، وكذلك شغل نفس المنصب في الكويت ، ثم عمل أستاذًا للتاريخ المصري والعربي الحديث بجامعة ميتشيجان » [2] .

«وغالبا ما يستخلص المستشرقون من دراساتهم عن الصحوة نتائج يصوغونها في صورة مقترحات وتوصيات، يقدِّمونها إلى حكوماتهم وإلى الحكومات العميلة في العالم الإسلامي، وذلك لوضعها موضع التنفيذ التدريجي، على المدى القريب والبعيد في كيفية معاملة الصحوة بهدف تصفيتها»[3].

---

(١) الاستشراق وجه للاستعمار الفكري ص ١٢٣، نقلًا عن الإخوان المسلمون، ريتشارد ميتشيل، ص ٧، من تقديم صلاح عيسي.

(٢) السابق ١٧٠ .

(3) رؤية إسلامية للاستشراق، د. أحمد غراب، ص ١٦٣ .

ومن المستشرقين الذين كانوا على صلة بدوائر صنع القرار وبالمخابرات في الغرب، وقدموا خلال دراساتهم عن الصحوة الإسلامية، أو ما يُسمُّونه (الأصولية الإسلامية) المقترحات والتوصيات الكفيلة بمواجهة تلك الصحوة والقضاء عليها (1) :

المستشرق الأمريكيّ " ريتشارد دكمجيان " في كتابه (الأصولية في العالم العربي) ، الذي صدر في الولايات المتحدة الأمريكية سنة ١٩٨٤م.

والمستشرق الأمريكي الدبلوماسي " هيرمان آيلتس "، الذي يُعدّ من أخطر الشخصيات الأمريكية الخبيرة في العالم العربي ، كما أنه عمل في المخابرات الحربية الأمريكية (١٩٤٢ـ ١٩٤٥م)، ثم تولى مناصب دبلوماسية متعددة في العواصم الإسلامية: طهران، جدة، عدن، صنعاء بغداد، طرابلس، الرياض، القاهرة .

والمستشرق السياسي " دانيل بايبس " الذي أعد وثيقة هامة ضمَّنها خلاصة لبحثٍ تقدم به إلى مركز دراسات الشرق الأوسط بجامعة هارفارد ، بعنوان (المسلمون المتعصبون وسياسة الولايات المتحدة) .

وبالإضافة إلى هؤلاء خبيرُ المخابرات الأمريكية "ريتشارد ميتشيل" الذي ألف كتابا عن الإخوان المسلمين، وسبقت الإشارة إليه قبل قليل، حيث كتب هو الآخر توصيات موجّهة إلى الحكومات الموالية لأمريكا بشأن التعامل مع الصحوة الإسلامية، تتضمن التضييقَ عليها وحصارَها، وتصفيتَها والقضاء عليها .

---

(1) السابق، ص ١٥٢ : ١٧١، حيث ذكر خلاصة ما حوتْه دراسات وتقارير هؤلاء المستشرقين، وما تضمنته من تحريض وخطط للقضاء على الصحوة الإسلامية .

المبحث الخامس
الدافع الاقتصادي

ومن بين دوافع الاستشراق كان هناك الدافع الاقتصادي ، حيث رغبت الدول الأوربية في تنشيط تجارتها مع دول الشرق الإسلامي، وتسويق منتجاتها، والبحث عن مواد خام لصناعاتها ، فلزِم الأمر القيام بالتعرف على الشرق وطبيعته وجغرافية بلاده ، وعادات شعوبه ومعتقداتهم ، وتوظيف هذه المعرفة بالشرق فيما يخدم الهدف الاقتصادي .

وقد سبقت الإشارة إلى ما جاء في تقرير المراجع الأكاديمية المسئولة في جامعة كمبردج بشأن كرسي اللغة العربية فيها ، في خطاب مؤرخ في ٩ مايو سنة ١٦٣٦م إلى مؤسسي هذا الكرسيّ، حيث أشار صراحة إلى خدمة هدفين: اقتصادي يكمن في « تقديم خدمه نافعة إلى الملِك والدولة عن طريق تجارتنا مع الأقطار الشرقية »، وتبشيري يتمثل في « تمجيد الله بتوسيع حدود الكنيسة، والدعوة إلى الديانة المسيحية بين هؤلاء الذين يعيشون الآن في الظلمات »[1].

وهناك ما يمكن أن يسمي الدافع الاقتصادي الفردي والذي يشير إليه الدكتور " البهيّ " بقوله: « ويبدو أن أفريقيا من الناس دخلوا ميدان الاستشراق من باب البحث عن الرزق، عندما ضاقت بهم سبل العيش العادية، أو دخلوه هاربين عندما قعدت بهم إمكانياتهم الفكرية عن الوصول

---

(١) راجع: المستشرقون الناطقون بالإنجليزية، ملحق بكتاب الفكر الإسلامي الحديث، ص ٤٧٧ .

إلى مستوى العلماء في العلو الأخرى، أو دخلوه تخلصًا من مسئولياتهم الدينية المباشرة في مجتمعاتهم المسيحية؛ أقبل هؤلاء على الاستشراق تبرئة لذمتهم الدينية أمام إخوانهم في الدين، وتغطية لعجزهم الفكري، وأخيرًا بحثًا عن لقمة العيش، إذ إن التنافس في هذا المجال أقلُّ منه في غيره من أبواب الرزق»[1].

وبالإضافة إلى امتهان بعض الغربيين للاستشراق طلبًا للرزق ؛ فهناك أيضًا « كثير من أصحاب المكتبات التجارية والقائمين عليها ، يشجعون نشر المؤلفات والكتب التي تدور حول الإسلاميات والشرقيات ، ويشرفون على نشرها لما يرون لها من سوق نافقة في أوربا وآسيا ، وتنال هذه المؤلفات من القبول والإعجاب ما يجعلها عظيمة الانتشار كثيرة الذيوع ، وهي ولا شك وسيلة لتجارة رابحة وكسب أموال خطيرة » [2] .

تلك أبرز الدوافع التي كانت وراء نشأة وازدهار الحركة الاستشراقية ، وربما كان هناك بعض الدوافع الأخرى ، لكن أصحابها كانوا قلة ، وبالتالي لم يتمخض عنها تيار بارز داخل الحركة الاستشراقية ، ومن هذا القبيل ما يشير إليه أستاذنا " البهي " من دوافع « شخصية مزاجية عند بعض الناس الذين تهيأ لهم الفراغ والمال ، واتخذوا الاستشراق وسيلة لإشباع رغباتهم الخاصة في السفر أو في الاطلاع على ثقافات العالم القديم » [3]، وبدافع من غريزة حب

(١) الفكر الإسلامي الحديث ، ص ٤٣٠ ــ ٤٣١.

(٢) الصراع بين الفكرة الإسلامية والفكرة الغربية في الأقطار الإسلامية، أبو الحسن علي الحسَني الندوي ، ص ١٨٨، دار القلم - الكويت، ط الرابعة ١٤٠٣هـ ١٩٨٣م .

(٣) الفكر الإسلامي الحديث، ص ٤٣٠ .

الاستطلاع التي فطر عليها الإنسان ، ومن هنا رأيت الاكتفاء بالحديث عن الدوافع السالفة ، وهي الدينية والعلمية والاستعمارية والسياسية والاقتصادية.



الفصل الثالث

وسائل المستشرقين

المبحث الأول

نشر الكتب وإصدار المجلات

المبحث الثاني

الجامعات والمؤتمرات العلمية

المبحث الثالث

الاشتراك في المجامع العلمية الرسمية في العالم الإسلامي

المبحث الرابع

استخدام تلاميذ المستشرقين والمبشرين من الوطنيين

المبحث الرابع

إرساليات التبشير في العالم الإسلامي

المبحث الأول
نشر الكتب وإصدار المجلات

أولا: الكتب:

لا يخفى أن للكتاب دورًا كبيرًا في نشر المبادئ وشيوع الأفكار ، وهو وسيلة قديمة لم تستطع المخترعات الحديثة في مجال الاتصال والإعلام أن تقلل من خطورتها ، وتقلِّص من دورها الفعّال في ترويج ونشر الثقافات والأفكار .

من هنا اهتم المستشرقون بهذه الوسيلة الفعالة ، فعكفوا على تأليف الكتب، وإصدار الموسوعات وإخراج المعاجم ، حتى صار لهم إنتاج ضخم ، وسيل متدفِّق من الكتب والموسوعات التي تحمل أفكارهم، وخلاصةَ آرائهم، بشتى اللغات الأجنبية ، وكثيرٌ من هذه الكتب تُرجِم إلى اللغة العربية .

ولقد أنتج المستشرقون الألوفَ المؤلفة من الكتب والبحوث التي تضمنت الحديث عن جوانب الإسلام المختلفة ونواحيه المتشعِّبة ، فتناولت العقيدة والشريعة ، والسنة والتاريخ ، والسيرة والفقه ، والدعوة الإسلامية ، واللغة العربية ، والفِرَق والمذاهب ، وغيرها من جوانب الثقافة والمعارف الإسلامية، وهذه الكتب ـ في أغلبها ـ قد حوت تزويرًا للحقائق ، وافتراءات على الإسلام وهجومًا عليه، وانتقاصًا منه وتحقيرًا لمبادئه وتعاليمه ، وازدراءً لأهله، بأساليبَ غايةٍ في المكر والخبث، منها ما يتسم بالوضوح، ومنها ما يَتدَثّر بالالتواء ويكتنفه الخفاء .

وقد أورد الأستاذ الدكتور "محمد البهيّ" قائمة ببعض الكتب الاستشراقية

المتطرفة المشوِّهة للإسلام ، والشائعةِ الانتشار ، أوْ لَها شبه حجية عند المسلمين، ومنها :

– حياة محمد . تأليف سير وليام موير .

– الإسلام . من تأليف ألفرد جيوم .

– الإسلام . ظهر بالفرنسية من تأليف هنري لامنس .

– تاريخ مذاهب التفسير الإسلامي . ظهر بالألمانية ، وتُرجم إلى العربية ، من تأليف جولد زيهر .

– مصادر تاريخ القرآن ـ بالإنجليزية ـ ، تأليف آرثر جيفري .

– التطورات المبكرة في الإسلام . بالإنجليزية. تأليف د.س مرجليوث .

– الحلاج الصوفي الشهيد في الإسلام . ظهر بالفرنسية من تأليف لوي ماسنيون.

– اليهودية في الإسلام . ظهر بالإنجليزية من تأليف إبراهام كاسن .

– مقدمة القرآن ، بالإنجليزية من تأليف كينيث كراج .

– دراسات في تاريخ الثقافة الإسلامية . بالإنجليزية ، تأليف فون جرونيباوم [1] .

ومن « المؤلفات الخطيرة :

١ – كتاب ميزان الحق ، للدكتور فاندر المستشرق الأمريكي ، والدكتور سنكلير تسدل .

٢ – كتاب الهداية ، ويقع في أربعة أجزاء ، وهو تفنيد مريع للإسلام ،

---

(١) الفكر الإسلامي الحديث ص٤٥٣ : ٤٥٥ باختصار .

وطعن سافر في القرآن الكريم .

٣- كتاب : مقالة في الإسلام ، للدكتور المستشرق سال .

٤- كتاب : مصادر الإسلام ، للدكتور سنكلير تسدل .

وهذه الكتب الأربعة تعتبر للمستشرقين والمبشرين من أخطر المراجع للهجوم على الإسلام والقرآن الكريم والرسول الأمين » (١) .

« ولعل أخطر ما قام المستشرقون حتى الآن هو إصدار " دائرة المعارف الإسلامية " بعدة لغات ، وكذلك إصدار موجز لها بنفس اللغات الحية التي صدرت بها ، وقد بدأوا في الوقت الحاضر في إصدار طبعة جديدة تظهر في أجزاء ، ومصدر الخطورة في هذا العمل هو أن المستشرقين عبؤوا كل قواهم وأقلامهم لإصدار هذه الدائرة ، وهي مرجع لكثير من المسلمين في دراساتهم ، على ما فيها من خلط وتحريف وتعصب سافر ضد الإسلام والمسلمين » (٢) .

هذا ، وهناك بعض الكتب والمعاجم وضعها المستشرقون، وبعض المخطوطات التي نشروها أفادت الدراسات الإسلامية والعربية إفادة طيبة، لكن هذه الإفادة جاءت عرضًا ولم تكن مقصودة، ومن الأمثلة على هذا: "المعجم المفهرس لألفاظ الحديث النبوي"، الذي اعتنى به المستشرق الهولندي " فنسنك " وعدد آخر من المستشرقين .

---

(1) الاستشراق والتبشير وصلتهما بالإمبريالية العالمية، إبراهيم خليل أحمد، ص ٧٢ ـ ٧٣، مكتبة الوعي العربي، القاهرة .

وجدير بالذكر أن الأستاذ " إبراهيم خليل أحمد " كان قسيسا وتقلد مسئوليات دينية وكهنوتية في الجهاز الكنسي في مصر، ثم أنعم الله عليه بالهداية للإسلام .

(٢) الفكر الإسلامي الحديث، ص ٤٣٣ .

وهو ـ بلا شك ـ عمل ضخم ، وإنجاز عظيم ، وقد « اشترك في تمويله مؤسسات حكومية رسمية معروفة بنشاطاتها في خدمة الاستعمار الغربي ، وفي حرب الإسلام والمسلمين ، ومنها على سبيل المثال الأكاديمية الهولندية نفسها، وكذلك الأكاديميات الرسمية في كل من بريطانيا وفرنسا وأمريكا، والدول الإسكندنافية ويوغسلافيا .

ولا يقول عاقل إن هذه المؤسسات قامت بتمويل المشروع خدمة للعلم لوجه العلم، أما انتفاع المسلمين بالمعجم فقد جاء عرَضًا، ولم يكن قط مقصودًا من المستشرقين أو مموِّليهم .

وهذا يذكِّرني بإنشاء المستعمرين الأوربيين لخطوط السكك الحديدية في مستعمراتهم في إفريقيا وآسيا ، فلا شك أنها أنشئت لاستنزاف ثروات الشعوب المستعمَرة ، ولنقلها إلى الدول الأوربية بأسرع طريقة ممكنة ، ولكنها أفادت أهالي المستعمرات عندما قدِروا على الانتفاع بها ﴿وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَـٰكِرِينَ﴾ [الأنفال: ٣٠] »[1] .

يقول الأستاذ محمود محمد شاكر : « لا تصدِّقْ من يقول لك إن الاستشراق قد خدم اللغة العربية وآدابها وتاريخها وعلومها ، لأنه نشر هذه الكتبَ التي اختارها مطبوعة ، فهذا وهم باطل؛ كانوا لا يطبعون قطّ من أيّ كتاب نشروه أكثر من خمسمائة نسخة ، ـ ولم تزل هذه سنّتَهم إلي يومنا هذا ـ توزَّع على مراكز الاستشراق في أوربا وأمريكة، وما فضَل بعد ذلك وهو قليل جدا، كانت تسقط منه إلى بلاد العرب المسلمين النسخة والنسختان والعشرة على الأكثر، لم

(١) الاستشراق وجه للاستعمار الفكري، ص ١١٩ .

يسعوا قط إلى تسويقها بين ملايين العرب المسلمين ، كما يسوِّقون بضائعهم وتجارتَهم وسائرَ ما ينتجون، بين هذه الملايين طلبًا لربح المال، هدفهم كان ما قلت لك لا غير » (١) .

ولقد عُنِي بعض الباحثين بمحاولة إحصاء التراثِ الاستشراقيِّ ، أو ما كتبه المستشرقون في التراث العربيّ الشرقيِّ عامة ، وما كتبوه في الإسلاميات خاصة، ومع أنه قد ظهرت كتب كثيرة وأعداد من البحوث وفيرة بعد محاولاتهم تلك ، إلا أنه قد صفا لهم الكثير ، واستطاعوا أن يحصروا ويذكروا أعددًا وفيرة من عناوين وأسماء الكتابات الاستشراقية في الموضوعات الإسلامية وغيرها.

ومن هذه النماذج كتاب « موجز في أدب علوم الإسلام » للمستشرق الألماني الدكتور " جوستاف بفانموللر " حيث أورد فيه مؤلفه عددًا كبيرًا من المراجع الغربية التي تناولت الإسلام في مختلف فروع ثقافته ومعارفه ، وصنفها تصنيفًا موضوعيا ، مع عرض موجز لما يحتويه كل مرجع ، وهو يتناول في دراسته ما كتب في الفترة من بداية القرن الثامن عشر إلى نهاية الربع الأول من القرن العشرين (١٩٢٣م) .

وقد ترجم بعضَ فصولِه الدكتور محمود زقزوق، وجعلها في كتاب بعنوان: « الإسلام في تصورات الغرب » (٢) .

---

(١) رسالة في الطريق إلى ثقافتنا، محمود محمد شاكر، ص ٧٨ هامش، من سلسلة كتاب الهلال، تُصدره دار الهلال بالقاهرة، العدد ٤٨٩ سبتمبر ١٩٩١م، ط الثالثة .

(٢) انظر الفصول: الثاني والثالث والرابع، من ص١٩ إلى آخر الكتاب.

وكذلك كتاب (المستشرقون) لنجيب العقيقي في أجزائه الثلاثة، حيث عرض لمستشرقي كلِّ بلد أوربيٍّ، وعند الحديث عن كل مستشرق يذكر آثاره وما خلفه من مؤلفات ودراسات ، ثم خصَّص الفصلَ السابعَ والعشرين من كتابه لِذكْر أعمال المستشرقين العلميةِ المختصةِ بتراثنا عامة والإسلاميات خاصة ، بلغات عديدة ، وفي بلدان كثيرة ، وعلى مدى أجيال متواصلة ، سواء ما كان في مجال تحقيق المخطوطات ونشرها ، أو ما كان في مجال الدراسة والتصنيف [١] .

ثانيا : المجلات :

وللمستشرقين عدد كبير من المجلات السيارة في كثير من بلدان أوربا ، وقد « زادت المجلات والدوريات الشرقية لدى المستشرقين على ثلاثمائة مجلة متنوعة خاصة بالاستشراق ، ما عدا مئات تتعرض له في موضوعاتها العامة ، كمجلة القانون المقارن ومحفوظات التاريخ ، ومباحث العلوم الدينية ، وهي تنشر بمختلف اللغات ، وبعضها بثلاث ، وتتناول مباحثُها الشرقَ في لغاته وأديانِه وعلومِه وآدابِه وفنونِه ، قديمِها وحديثِها ، وتأثّرِها وأثرِها ومقارنتِها بغيرها » [٢] .

ومن هذه الدوريات ـ كما ذكر الدكتور محمد البهيّ ـ :

ـ « مجلة العالم الإسلامي » مجلة تبشيرية تصدر بالإنجليزية في هار تسورد بأمريكا ، وتوزع في جميع أنحاء العالم .

ـ « مجله العالم الإسلامي » مجلة تبشيرية تصدر في فرنسا ، وتوزع في جميع

---

(١) يراجع الجزء الثالث ص ٣٩٤ ـ ٥٩٧ .

(٢) المستشرقون ٣/ ٣٧٧ .

أنحاء العالم .

ـ « مجلة جمعية الدراسات الشرقية »أنشاها المستشرقون الأمريكيون في جامبير بولاية أوهايو ، وكان لها بعض فروع في أوربا وكندا .

ـ « مجلة شئون الشرق الأوسط » تصدر بالإنجليزية في أمريكا ، ويحررها عدد من المستشرقين المعادين للعرب والمسلمين ، واهتمامها موجه في الدرجة الأولى إلى الجوانب السياسية .

ـ « مجله الشرق الأوسط » مجلة أمريكية سياسية تتعرض للإسلام من وقت لآخر في بعض المقالات ... [1] .

وجدير بالذكر« أن مجلة العالم الإسلامي » الفرنسية نشرت في (عدد نوفمبر ١٩١١م) إصدارًا « ضخما ليس فيه غير بحث واحد، وهو بحث تبشيري يدور حول ما تقوم به إرساليات التبشير البروتستانتية في العالم الإسلامي، وما قيل في المؤتمرات التي عقدتها تلك الإرساليات في أوقات مختلفة، وقد جعلت المجلة عنوان هذا البحث: (الغارة على العالم الإسلامي)، أو (فتح العالم الإسلامي) » [2] .

وكان الهدف من هذا ـ كما يرى العلامة محب الدين الخطيب ـ « أن المجلة الفرنسية بنشرها هذا العدد الخاص بأعمال المبشرين البروتستانت، تقول للمبشرين الكاثوليك: انظروا كيف سبقكم الآخرون إلى الغارة والفتح،

---

(١) الفكر الإسلامي الحديث وصلته بالاستعمار الغربي ، ص ٤٥٥ ـ ٤٥٦ .

(٢) الغارة على العالم الإسلامي، تأليف ا.ل شاتليه، لخصها ونقلها إلى العربية محب الدين الخطيب، ومساعد إليافي ص ٣ ، المطبعة السلفية ، القاهرة ط الرابعة ١٣٩٨هـ .

فيجب أن تضاعفوا جهودكم وتنظروا في أساليبهم فتستفيدوا منها »[١] .

وقد قام الأستاذان : "محب الدين الخطيب" ، و "مساعد إليافي" بترجمة ذلك العدد من المجلة المذكورة، وتلخيصه ونشره في جريدة " المؤيد " سنة ١٣٣٠هـ ، ونقلت ذلك عنها صحفٌ ومجلاتٌ أخرى في حينه ، ثم طبع هذا ـ فيما بعد ـ في كتاب مستقل بنفس العنوان (الغارة على العالم الإسلامي) .

وقد كان أبرز الخطوط العريضة التي حواها عدد المجلة المشار إليها بعد مقدمة المسيو " شاتليه " عن إرساليات التبشير البروتستانتية ما يلي :

ـ تاريخ إرساليات التبشير .

ـ مؤتمر التبشير الأول في القاهرة (مصر) سنة ١٩٠٦ .

ـ مؤتمر التبشير الثاني في أدنبرج (انكلترا) سنة ١٩١٠ .

ـ مؤتمر التبشير الثالث في لكنو (الهند) سنة ١٩١٣ .

ـ التنظيم المادي لإرساليات التبشير .

ـ مقاصد المبشرين وآمالهم في المستقبل .

ـ أدبيات إرساليات التبشير .

ـ النتائج[٢] .

وهكذا تتبين خطورة المجلات الاستشراقية ، ونشاطاتها المكرَّسة لخدمة أغراض وأهداف القوى المعادية للإسلام .

---

(١) السابق نفس الموضع .

(٢) يُنظَر: فهرس كتاب الغارة على العالم الإسلامي، وموضوعاته بالداخل .

ثالثا : دور النشر الاستشراقية :

وإذا كان للكتاب والمجلة ونحوهما من المطبوعات أهمية كبرى ، باعتبارها وسيلة هامة وفعالة لنشر المعارف والمعتقدات ؛ فإنه ـ في عصرنا الحاضر ـ لا غنى لها عن دار النشر التي تتولاها ، فتقوم على إعدادها وتجهيزها ، والترويج لها وتوزيعها في الأماكن والبلدان المختلفة ، إلى غير ذلك مما تقوم به دور النشر في الوقت الحاليِّ ، وما تضطلع به من مهامَّ تسهم في إنجاح المطبوعات ، وتحقيقِ الهدفِ المرجوِّ من وراء تأليفها وإصدارها .

ومن هذا المنطق كان من وسائل إذاعة الفكر الاستشراقي في العالم الغربي ، وأحيانا خارجه ، والترويج لأبحاث ومجلات وكتب المستشرقين عن الإسلام والمسلمين ـ خاصة ـ ؛ دورُ النشر ، ومن أشهرها ـ كما ذكر العقيقيُّ ـ :

في باريس:

ـ دار إرنست لرو، معروفة بنشر المطبوعات الاستشراقية من كتب ومجلات ونشرات، وبإصدار فهرس مفصل دقيق كل عام بعنوان: مسرد عام.

ـ دار هنري فلتر ، وفيها الكثير من المخطوطات العربية والفارسية والتركية النفيسة ، وقد وُصفت في عدة فهارس متلاحقة .

ـ دار مزونيف ، من أكبر دور النشر الاستشراقية في فرنسا وأوربا .

ـ مكتبة جابلادا وشركاه .

في انجلترا :

ـ دار بروبستاين وشركاه في لندن ، وتنشر فهرسًا دوريًا باسمه .

ـ دار هيفر وأولاده في كمبريدج ، وتنشر بعنوان المكتبة الآسيوية فهارس

دقيقة للمطبوعات الشرقية على اختلاف موضوعاتها .

ـ دار برنارد كواريتش في لندن ، وتنشر فهرسًا دقيقًا مشهورًا بعنوان : فهرس المؤلفات الشرقية .

في أسبانيا :

ـ دار مايستري في مدريد .

في ألمانيا :

ـ دار هاراشوفتش في فيسبادن ، ولها نشرة شهرية لوصف ما يصدر من الكتب في مصر ولبنان وسوريا والهند والمغرب الأقصى .

في هولندا :

ـ دار بريل في بولونيا [1] .

(١) المستشرقون ٣ / ٣٨٩ ـ ٣٩٠ باختصار .

المبحث الثاني

الجامعات والمؤتمرات

أولا : كرسيّ التدريس في الجامعة :

استخدم المستشرقون التدريس في الجامعة لنشر أفكارهم ، وتوسلوا بذلك لتحقيق أغراضهم ، وخاصة من خلال إنشاء أقسام للدراسات الإسلامية والعربية بالجامعات الغربية .

كثرة أقسام الاستشراق ومعاهده في جامعات الغرب:

ولا تكاد تخلو عاصمة من عواصم الغرب الآن من جامعة بها تخصص أو قسم خاص للاستشراق ، وأحيانا يكون في بعضها معاهد مستقلة للدراسات الاستشراقية ، وداخل هذه الأقسام والمعاهد في الغرب أقيمت تخصصات وأقسام في الدراسات الإسلامية على وجه الخصوص ، وذلك « لاستقطاب مَن يستهويه هذا الجانب ، ثم تقديمه من وجهه نظرِ خصومٍ بارعين مدرَّبين على العرض المشوه للإسلام ، بما يخدم أغراضهم التي من أهمها تقزيز غير المسلمين منه ، ثم تشويهه وجعله في نظر المسلمين قضية فيها نظر ، وليس من مسلَّمات الفكر المتعمدة .

وقد بلغ عدد هذه الأقسام [الإسلامية] في الجامعات الغربية أكثر من ستين قسمًا في أكثر من ستين جامعة في الغرب ، على رأس الأقسام أساتذة يهود، ومحاورهم الأصلية تدور ـ في كياسة ـ حول التشكيك في الوحي ، وفي السنة ، وفي تجريح الرسول [ﷺ] والصحابة ، وتجريحِ كبارِ حمَلة الإسلام في

تاريخه الفكريِّ والحركيّ »[1] .

ويتخرج من أقسام الاستشراق ومعاهده في الغرب آلافٌ من الدارسين ، يتوجهون بعد ذلك إلى ساحات العلم والفكر والسياسة وغيرها ، وقد أُشرِبوا فِكرَ أساتذتهم من المستشرقين ، وتأثروا بأخلاقهم ، والتزموا بمناهجهم ، ولا ننسى أن من بين أولئك المتخرجين كثيرين من أبناء العروبة والإسلام ، ابتُعِثوا ليتعلموا في الغرب ويتخرجوا بأيدي المستشرقين ، ومنهم مَن يعود إلى بلاده بفكر معوجٍّ أو مشوَّش ، ومعتقدات غير صالحة فيما يتعلق بدينه وأمته ، إلا من عافاه الله ، وقليل ما هم .

وهذه الأقسام تمنح درجات الماجستير والدكتوراه في أي فرع من فروع الدراسة بها سواء أكان للغربيين أم لغيرهم من أبناء العرب والمسلمين ، ويُشرف على هذه الأقسام ، وعلى الرسائل العلمية فيها ـ في غالب الأحيان ـ مستشرقون ذوو توجهات وأديان مختلفة ، فمنهم اليهوديُّ ، ومنهم الاستعماريُّ ، ومنهم صاحبُ النزعة التبشيرية ... وغيرهم ، وهم يتحكمون في توجيه وتسيير برامج الدراسة في أقسامهم بما يتمشى مع أهدافهم وتوجهاتهم التي لا تكون ـ غالبًا ـ منصفة للإسلام والمسلمين .

تضييق المجال على الباحثين المنصفين للإسلام في الجامعات الغربية :

وهناك دلائل على أن المستشرقين حريصون ما وسِعهم الحرصُ ، على أن لا يُمكِّنوا باحثًا تحت إشرافهم من كشف باطلهم ، وهدم شبهاتهم التي نسجوها

(١) الاستشراق وجه للاستعمار الفكري، ص ٦٩ .

حول الإسلام، فلا يسمحون لطالب قصَد معاهدهم، وأرد أن يُمنَح الشهادةَ بواسطتهم أو يحصل على إجازة منهم؛ لا يسمحون له بإنصاف الإسلام، وذِكْر الحقِّ مجرَّدًا من كل هوى، ودحض أباطيلهم ومفترياتهم ضد الإسلام وأهله، وإن خرج عن مألوفهم وأراد أن يقترب من إحقاق الحق وإبطال الباطل في قضية تتصل بالإسلام وشريعته؛ بُخِس حقَّه في نَيْل الدرجة العلمية، بل وتعرض ـ في غالب الأحيان ـ للرسوب ، والحرمان من الشهادة التي أراد الحصول عليها ، غيرَ مأسوفٍ عليه .

وهذان دليلان على ذلك، قد ذكرهما شاهدُ عيان، هو الدكتور "مصطفى السباعي" ـ يرحمه الله ـ ، أُورِدهما نقلًا عنه فيما يلي:

أما الدليل الأول: فقد ذكره في معرض حديثه عن زياراته لجامعه لندن، ولقائه مع البروفسور " أندرسون " رئيس قسم قوانين الأحوال الشخصية المعمول بها في العالم الإسلامي ، في معهد الدراسات الشرقية في جامعه لندن ، وهذا المستشرق متخرج من كلية اللاهوت في جامعة كمبردج ، وكان من أركان حرب الجيش البريطاني في مصر خلال الحرب العالمية الثانية ـ كما ذكر هو ذلك للدكتور السباعي ـ .

قال الدكتور السباعي : لا أريد أن أذكر أمثلة عن تعصبه ضد الإسلام ـ وقد حدثني كثيرًا عن ذلك المرحوم الدكتور " حمود غرابه " مدير المركز الثقافي الإسلامي في لندن ـ حينذاك ـ ، ولكني أكتفي بأن أذكر ما حدثني به البروفسور " أندرسون " نفسه من أنه أسقط أحد المتخرجين من الأزهر الذين أرادوا نوال شهادة الدكتوراه في التشريع الإسلامي من جامعة لندن لسبب

واحد ؛ هو أنه قدم أطروحته عن حقوق المرأة في الإسلام ، وقد برهن فيها على أن الإسلام أعطى المرأة حقوقها الكاملة .

فعجبتُ من ذلك وسألت هذا المستشرق : وكيف أسقطتَه ومنعتَه من نوال الدكتوراه لهذا السبب ، وأنتم تدّعون حرية الفكر في جامعاتكم ؟! قال : لأنه كان يقول : إن الإسلام يمنح المرأة كذا ، والإسلام قرر للمرأة كذا ، فهل هو ناطق رسميٌّ باسم الإسلام ؟ هل هو أبو حنيفة أو الشافعيُّ حتى يقولَ هذا الكلامَ ويتكلمَ باسم الإسلام؟ إن آراءه في حقوق المرأة لم يَنصَّ عليها فقهاء الإسلام الأقدمون [1] ، فهذا رجل مغرور بنفسه حين ادعى أنه يفهم الإسلام أكثر مما فهمه أبو حنيفة والشافعي [2] .

وأما الدليل الثاني: فقد ذكره الدكتور " السباعي " وهو يقرِّر أن المستشرقين لا يوافقون أبدًا على رسالة للحصول على شهادة علمية مثل الدكتوراه ، يقوم موضوعها على إنصاف الإسلام ، وكشف دسائس أولئك المستشرقين .

وأردف قائلًا : وقد حدثَنا الدكتور " محمد أمين المصري " ـ وهو خِرّيج كليةِ أصول الدين في الأزهر، وكليةِ الآداب، ومعهد التربية في جامعة القاهرة ـ

---

(١) إن هذا الكلام لجَهْلٌ أو تجاهلٌ من هذا المستشرق الحقود؛ حيث إنه لا يُتصور أن فقهاءَ الإسلام ـ وهم قِممٌ في الفقه وبحور في العلم ـ لم يَنصُّوا في كتبهم ومصنَّفاتهم على حقوق المرأة في الشريعة الإسلامية، وكتبهم تشهد بخلاف ما زعم .

(٢) السنة ومكانتها في التشريع الإسلامي، ص ١٢ ـ ١٣، الاستشراق والمستشرقون، ص٥١ ـ ٥٢.

عما لقيه من عناء في سبيل موضوع رسالته التي أراد أن يتقدم بها لأخذ شهادة الدكتوراه في الفلسفة من جامعات انجلترا .

لقد ذهب إليها (في عام ١٩٥٨م) لدراسة الفلسفة وأَخْذِ شهادة الدكتوراه بها، وما كاد يطّلِع على برامج الدراسة ـ خاصة دراسةَ العلوم الإسلامية فيها ـ حتى هالَهُ ما رآه من تحامل ودسٍّ في كتب المستشرقين، وخاصة "شاخت" فقرر أن يكون موضوعُ رسالتِه هو نقدَ كتابِ "شاخت".

تقدم إلى البروفسور " أندرسون " ليكون مشرفًا على تحضير هذه الرسالة ، وموافِقًا على موضوعها ، فأبى عليه هذا المستشرقُ أن يكون موضوعُ رسالته نقدَ كتاب " شاخت "، وعبثا حاول أن يوافق على ذلك .

فلما يئس من جامعة لندن ذهب إلى جامعة كمبردج، وانتسب إليها، وتقدم إلى المشرفين على الدراسات الإسلامية فيها برغبته في أن يكون موضوع رسالته للدكتوراه هو ما ذكرناه ، فلم يُبْدُوا رضاهم عن ذلك ، وظن أن من الممكن موافقتَهم أخيرًا ، ولكنهم قالوا له بصريح العبارة : إذا أردتَ أن تنجح في الدكتوراه فتجنب انتقاد " شاخت " ، فإن الجامعة لن تسمح لك بذلك، وعندئذ حوّل موضوع رسالته إلى: « معايير نقد الحديث عند المحدثين »، فوافقوا ونجح في الدكتوراه [١].

---

(١)السنة ومكانتها في التشريع الإسلامي، ص ١٧ـ ١٨، الاستشراق والمستشرقون، ص ٥٨ ـ ٥٩ .

قيام المستشرقين بالتدريس في الجامعات الموجودة في البلاد العربية والإسلامية :

ثم إن المستشرقين لا يبثون آراءهم من خلال التدريس عبر كراسيِّ الاستشراق في جامعات الغرب فقط؛ بل يأتون كذلك للتدريس والمحاضرة في الجامعات الموجودة في البلاد الإسلامية والعربية، وخاصة الجامعاتِ غيرَ الحكومية مثل الجامعة الأمريكية في القاهرة وبيروت، وغيرهما من عواصمَ إسلامية وعربية أخرى، كما أنهم يُستقدَمون بين الحين والآخر ليحاضروا في بعض الجامعات الوطنية في البلاد الإسلامية، وقد أَتَوا بشكل ملحوظ إلى جامعة القاهرة أيام ربيبهم وصنيعهم "طه حسين"، الذي «فتح أبواب لجامعه (وكليةَ الآداب بالذات) للمستشرقين وعتاة الدراسات التبشيرية والتغريبية، ليحطموا في نفوس أبناء أمتنا كلَّ عقائدِهم ومقدساتهم»[1].

جناية الجامعة الأمريكية في القاهرة في حق الإسلام:

ولقد اكتُشِف ـ في عام ١٩٩٨م ـ أن الجامعة الأمريكية في القاهرة أسنَدت إلى أحد المستشرقين الفرنسيين يسمَّى " دودييه " ، تدريسَ مادة (تاريخ المجتمع العربي) ـ وهي مادة تدرَّس لجميع الطلبة ـ ، وذلك خلال العامِ الدراسيِّ ٩٧/ ١٩٩٨م، وأن المستشرق المذكور قد أضاف إلى المقرر دراسةَ كتاب " محمد " للمستشرق الفرنسي " ماكسيم رودنسون "، مترجمًا إلى الإنجليزية[2] .

(١) الوجه الآخر لطه حسين، أنور الجندي، ص ٩، دار الاعتصام – القاهرة .

(٢) الفرنسيُّ السافلُ في الجامعة الأمريكية، محمد القدوسي، مقال بجريدة الشعب =

والكتاب يطفح بعبارات السوء والبهتان في حق رسول الإسلام ﷺ ، وقد كشف عن هذه الجريمة الكاتب الصحفي " صلاح منتصر " في جريدة الأهرام، وطالب بوقف الكتاب ، ولنترك له الكلام، وهو يتحدث عن تلك الجريمة ، فيقول :

« ... وندخل في الموضوع مباشرة ، ففي الجامعة الأمريكية بالقاهرة ، يصر أستاذ مادة تاريخ المجتمع العربي ـ وهى مادة تدرس لجميع الطلبة ـ على أن يضيف إلى المقرر كتابًا جديدًا هو كتاب (محمد) ، وهو من أسوأ ما كتبه الكاتب الفرنسي " ماكسيم رودنسون "، وقد طلب من الطلاب استيعابَه وتلخيصَه ، بعد أن وُزِّع على الطلبة مترجمًا إلى الإنجليزية في ٣٨١ صفحة .

وعلى الرغم من أن الطلبة الذين أفزعهم ما قرءوه في الكتاب حاولوا الاحتجاج ، إلا أن إدارة الجامعة بكل أسف لم تتخذ أيَّ إجراء .

والكتاب فيه أكثر من ٥٠ فقرة تستفز أيَّ مسلم، لكنني أكتفي بنماذج منها:

ـ **في صفحة ٧٨** : يقول المؤلف : « إن محمدًا تزوج من السيدة خديجة كي يخرج من الفقر ، ويضمن مستقبلًا مزدهرًا ، وأنه كان يعاني كبتًا (عقد نفسية) في طفولته بسبب اليتم والفقر ، فتعلق بهذه الزوجة ، على الرغم من أنها لم تُشبع نزواته الجنسية » .

ـ **في صفحة ١١٥**: يحاول المؤلف تأكيد أن القرآن من اختراع محمد

= المصرية، ص ٢ (بتصرف)، عدد ١٢٦، الثلاثاء ٢٣ من محرم ١٤١٩هـ ١٩مايو ١٩٩٨م، والكتاب المذكور ترجمتْه إلى الإنجليزية " آن كارتر " في عام ١٩٧١م، وطبعتْه في نيويورك: دار " راندوم "، السابق.

[ﷺ]، وأنه يأتي بالآيات وفقًا لهواه ، ويقول : « نظرًا لأن محمدا تزوج من السيدة خديجة التي كانت تكبره سنًا، وأنها تزوجت قبله مرتين، فقد جاءت القرآن تواسيه بقولها﴿ وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَىٰ ﴾ [الضحى:٤] » .. !

ـ وفي صفحة ١٥١ : يقول المؤلف : « إن قصص القرآن ما هي إلا ترديد لما تعلَّمه محمد وسرقه من الأديان السابقة ، ومن الكتب اليهودية » .

ـ وفي صفحة ١٦٢ : يقول المؤلف : « إن في آخر الرسالة أصبحت لغة القرآن أقلَّ عصبيةً وأكثرَ هدوءً » .

ـ وفي صفحة ٢٥١ : يقول المؤلف: « إن السور القرآنية التي نزلت في المدينة تغيَّر مضمونها، وأصبح القرآن شِبهَ جريدة يومية تُنشَر فيها التعليمات الخاصة بالقوات، والأحكام الخاصة بالنظام الداخلي للدولة »، ويضيف المؤلف: «إن هذا النثر الذي صيغ به القرآن مملوء بالتكرار والأخطاء اللغوية ».

ـ وفي صفحة ٣٣٨ : يقول المؤلف : « لقد بقي القرآن بعد محمد ، وهو نتاج عقله الباطن الذي ابتدع نوعًا غريبًا من الشعر » .

هذه بعض نماذج مما ورد في الكتاب ، فهل يمكن أن يسمَّى هذا حريةَ تفكير تُعلِّمها الجامعة لطلبتها ؟

هذا كتاب يجب وقفُ تدريسِه فورًا ، فقضيتُه لا تقبل المساومة » [1] .

ومن البذاءات التي تضمّنها الكتاب أيضًا:

ـ يقول المؤلف في صفحة ٥١ : « كان من سوء الحظ أن شعر (أي

---

(١) كتاب يجب وقفه، صلاح منتصر، جريدة الأهرام، ص ١١، العدد ٤٠٧٠٠، الأربعاء ١٧ محرم ١٤١٩هـ ١٣مايو ١٩٩٨م .

محمد) تجاه خديجة بالعاطفة الطبيعية، التي أرواها بعد ما تقدمت به السنُّ مع النساء الشابات والمحبوبات في حريمه » .

ونلاحظ هنا استخدام الكتاب للفظ Procure ، ومن معانيه : يعمل قَوّادًا ويجلب النساء للزنا، مع إمكانية استخدام ألفاظ أخرى، وكذلك استخدام لفظ الحريم ، لكنها السفالة تأبى إلا أن تختار ألفاظها .

ـ وكأن المؤلف عزّ عليه أن يترك ذنبًا أو نقيصةً دون أن يلصقها بالنبي [ﷺ]، **فقال في صفحة ٥٥** :

« كان محمد مرتبطًا بأم أولاده بروابط أقوى من أي وثيقة ، رغم ما عرفناه من ميوله الغرامية بعد ذلك ، ويصعب أن نتخيل أوقاتًا كثيرة مر بها دون أن يكون مستحقًا للعبارة الإنجيلية التي كان سماعها سيفزعه ـ لو سمعها ـ ، وهي أنه « ارتكب الزنا في قلبه » .

... كان عليه أن يتجنب الإغراءات عدة مرات ربما ببساطة خادعة ، ولكن بصرف النظر عن بساطة أو صعوبة الأمر فإننا نعرف كم كلفه التغلّبُ على نداء الغريزة الذي ربما يكون قد نجح في التخلص منه » .

هل تحتاج هذه الفقرة إلى تعليق ؟ هل هناك سفالة أكبر من « ارتكب الزنا في قلبه » ؟ بل والتشكيك في نجاحه في التغلب على « نداء الغريزة » [(١)] .

وقد أصدرت دارُ الإفتاء المصريةُ بيانًا ردّت فيه على بعض أكاذيب "ماكسيم رودنسون" في الكتاب المشار إليه، ثم قالت في ختام البيان:

« وبدلاً من أن يندسّ هذا الأستاذ [تقصد : دودييه] بين جدران الجامعة

(١) الفرنسيُّ السافل في الجامعة الأمريكية، محمد القدوسي (مرجع سابق) .

الأمريكية، وينفث سمومه بين طلاب ما زالوا في بداية حياتهم الدراسية ، وهم غير مؤهَّلين علميا لمناقشته والرد عليه ؛ يجب عليه أن تكون لديه الشجاعة الأدبية ، ويَبرُز ليناقش أهل العلم والرأي القادرين على إفحامه، وقطع لسان السوء عنده ، ومن هم على شاكلته » [١] .

ولقد أمر وزير التعليم العالي [٢] على الفور بوقف تدريس الكتاب في الجامعة الأمريكية ، ولكن هذا وحده لم يكن كافيًا ، بل كان من الواجب طردُ هذا الفرنسيِّ الأثيم « دودييه » وترحيلُه من بلد الأزهر فورًا ، بل ومحاكمتُه ومعاقبتُه على إساءته وتطاوله على مقام النبي ﷺ ، وتحقيرِه للأمة وعقيدتها ، ليكون عبرة لأمثاله ، كما حاكمت بلده (فرنسا) التي تزعم أنها موطن حرية الفكر والتنوير ؛ حاكمت المفكر المسلم "رجاء جارودي" لمجرد أنه فضح أكاذيب اليهود ، وأبطل ادعاءاتهم فيما يتعلق بالمحرقة التي يزعمون أن هتلر صنعها لهم ، وفيما يتعلق بأنهم أصحاب حق في فلسطين - كما يزعمون - ، ومع أن " جارودي " كان يتكلم بالحجة والبرهان ، فضلًا عن أنه لم يكن الوحيدَ فيما ذهب إليه من رأي ، بل هناك مفكرون غربيون يرون رأيه ؛ إلا أن فرنسا الحاقدة حاكمته وعاقبته ، فكانت محاكمةُ هذا المتطاول على الرسول ﷺ في بلدنا ومعاقبتُه أولى .

---

(١) صحيفة الأهرام، ص ١٠، عدد ٤٠٧٠٣ ، السبت ٢٠ محرم ١٤١٩هـ ١٦مايو ١٩٩٨م .
(٢) هو الدكتور "مفيد شهاب".

ثانيا :المؤتمرات العلمية :

اتخذ المستشرقون من المؤتمرات وسيلة لطرح أفكارهم ونشر آرائهم ، وتقوية أواصر التعاون ، وزيادة فرص التنسيق فيما بينهم .

وقد عقدوا عشرات المؤتمرات التي اشترك فيها جموع غفيرة من المستشرقين من بلدان وجامعات شتى ، ناقشت مئات القضايا والبحوث المتعلقةَ بالشرق في كافة جوانبه ، وخاصة ما يتصل بالدراسات الإسلامية ، وهذه المؤتمرات منها ما هو دوليٌّ ، ومنها ما هو إقليميٌّ .

يقول " العقيقيّ " : « ومنذ أواخر القرن التاسع عشر طفق المستشرقون يعقدون المؤتمرات الدولية مرة كل ثلاث سنوات أو سنتين أو بعد أربع ، وتشرف على تنظيم كل مؤتمر لجنةٌ من علماء الدولة التي يُعقَد فيها ، لبحث جدول أعماله ، ولها زيادتها أو إنقاصها ، وتحديد موعدُ انعقاده ومدّتُه .

ويضم المؤتمر مئات العلماء من أعلام المستشرقين وأقطاب الوطنيين في الغرب والشرق ، (فقد اشترك في مؤتمر أكسفورد [1] ٩٠٠ عالم عن ٢٥ دولة ، و ٨٥ جامعة ، و ٦٩جمعية علمية) .

وينقسمون إلى أربع عشرة جماعة، تنفرد كلٌّ منها بقسم من جدول الأعمال وهي :

الدراسات المصرية القديمة، والدراسات الآسوية البابلية، وآثار الشرق الأدنى، والعهد القديم، وآثار الكتاب المقدس، والشرق المسيحي، وبيزنطة، والدراسات السامية، والدراسات الإسلامية (اللغة والأدب)،

---

(١) عُقِد في سنة ١٩٢٨م .

والدراسات الإسلامية (التاريخ الفني)، والدراسات التركية، والدراسات الخاصة بإيران والقوقاز وما جاورهما، والدراسات الهندية، ودراسات آسيا الوسطى، ودراسات آسيا الشرقية، ودراسات آسيا الشرقية الجنوبية، والدراسات الأفريقية.

وجدول المؤتمر وما يضاف إليه من خطب وأبحاث وآراء ومقترحات تنشر في مجلدات بعنوان : أعمال المؤتمر ، يُهتدَى بها كنظم ومناهج ووسائل ، للمضيّ في هذه الحركة العالمية ، كما تصبح أصولًا وأمهات وأسانيد للباحثين »[(١)] .

وقد عَقد المستشرقون منذ عام ١٨٧٣م إلى عام ١٩٧٦م ثلاثين مؤتمر دوليا، بالإضافة إلى بعض المؤتمرات الإقليمية، مثل مؤتمر المستشرقين السوفييت (لينينجراد ١٩٣٥ – ١٩٣٧م)، وحلقة المستشرقين في بروكسل، حيث نُشِرت أبحاثُها في كتاب بعنوان: تطور العقيدة الإسلامية (باريس ١٩٦٢)[(٢)] .

(١) المستشرقون ٣/ ٣٦٧ ـ ٣٧٠ باختصار .

(٢) السابق ٣/ ٣٦٥ وما بعدها باختصار وتصرف .

هذا؛ ولا يستطيع الباحث أن يُخفِيَ تعجُّبَه ـ بل اشمئزازَه ـ من إصرار المستشرقين على ما يطلقون عليه: « تطور العقيدة الإسلامية »؛ حيث إن هذا الأمرَ لا وجود له إلا في خيالهم، فالعقيدة الإسلامية ــ سواء أكانوا يعلمون أم لا يعلمون ـ واحدةٌ منذ أن أعلنها الرسول ﷺ إبّانَ بعثتِهِ، كما أنها واضحة دعا إليها دون مواربة أو غموض، ولم يطرأ عليها تغيير أو إضافات، ولم يُصِبْها تطوُّرٌ ـ كما يزعم هؤلاء المستشرقون ـ ، فأركان الإيمان وأصوله ثابتةٌ لدى جميع المسلمين وهي: الإيمان بالله تعالى، وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، والقدَر، كما أن هذه الأركانَ محدَّدة منذ زمن الوحي، ومقرَّرة في القرآن الكريم، وسنة =

وقـد أحـصى العقيقـي مـؤتمرات المستـشرقين الثلاثـين الدوليـة مـن سـنة ١٨٧٣الى سنة ١٩٧٦م ، فذكَر مكانَ كلِّ واحد منها ، وتاريخَ انعقادِه، وحَجْمَ أعمالِـه، كـأن تكـون مجلـدين أو ثلاثـة أو خمسة ، وهكـذا .. كما أورد نـماذجَ مما تناولته بالدراسة على جداول أعمالها ، مثلَ إيراده لجدول أعمال المؤتمر الخامس عشر الذي كان مخصَّصًا للشئون التاريخية ، والـذي انعقـد في كوبنهـاجن سـنة ١٩٠٨م، وجـدول أعـمال المـؤتمر الرابـع والعـشرين الـذي اخـتص باللغـات الشرقية قديمها وحديثها، والذي انعقد سنة ١٩٥٧م في ميونيخ [١] .

= الرسول ﷺ، ولم تُقرَّرْ أو تُخْتَرَعْ في مؤتمرات دينية أو مجامعَ لاهوتية ـ كما هو الحـال عنـد النصارى ـ؛ بل إنها واحدة منذ آدم ومَن جاء بعده من الرسل والنبيين عليهم جميعا الصلاة والسلام.

فالقضية منتهية ومحسومة بكل وضوح، ومـع هـذا يجعلـون منهـا مـادة تلوكهـا ألـسنتهم بالنقاش، وتتناولها أقلامهم بالبحث في كتاباتهم ومؤتمراتهم !! .

(1) يُراجَع : المستشرقون ٣/ ٣٦٥ ـ ٣٦٨ .

المبحث الثالث

الاشتراك في المجامع العلمية الرسمية
في العالم الإسلامي

أسباب التحاق المستشرقين بالمجامع العلمية واللغوية:

استطاع المستشرقون أن يتسللوا إلى بعض المجامع العلمية الرسمية في بعض البلاد العربية والإسلامية، مثل مصر ودمشق وبغداد، وهم يَعتبرون التمثيل في هذه المجامع وسيلة لتحقيق أهدافهم؛ حيث يعملون جاهدين على تحويل هذه الأهداف إلى مناهج براقة، تتدثّر بعباءة البحث العلميّ، مثل قيامهم بالدعوة إلى إحياء العاميات، أو الدعوة إلى تعديل النحو العربي، أو اللغة الوسطى أو الكتابة العربية المعاصرة، وكلها محاولات ترمي إلى إيجاد فجوة بين لغة القرآن ولغة الكتابة.

ولقد سبق لهم أن تسللوا من قبل للبحث عن العاميات، ولبسوا ملابس التجار والدبلوماسيين، وصاروا يعملون بشتى الوسائل لجمع الأمثال العربية والمواويل، بهدف مسموم هو الزعم بأن العامية لغة لها تراث [1] .

وبالإضافة إلى هذا فإن اشتراكهم في المجامع العلمية الرسمية واللغوية، واهتمامَهم باللغة العربية ؛ يرجع في بعض أسبابه إلى التمهيد للحملات الاستعمارية، ومحاولة فهم الشرق الإسلامي من جميع نواحيه ، وإدراك أسرار

---

(١) يراجَع تفصيل هذا الكلام وأدلته في: مقدمات العلوم والمناهج، للأستاذ أنور الجندي ـ يرحمه الله ـ، ٤/ ٥٩ وما بعدها .

الشعوب التي يتسلطون عليها ، ومعرفة مكامن القوة والضعف لديها ، ولا شك في أن دراسة اللغة تعين على تحقيق هذا كله .

بعض المستشرقين الذين التحقوا بمَجْمَعَي القاهرة ودمشق، وعداوتهم للإسلام ولغته:

ومن المستشرقين الذين كانوا أعضاء في المجمع اللغوي بمصر؛ " جب " و " مرجليوث "، و " نيكلسون " ، وثلاثتهم من انجلترا، و " لوي ماسنيون " الفرنسي [(١)].

ومنهم أيضا: " أ . ج . فينسينك "، وهو « عدوٌّ لَدود للإسلام، كان عضوا بالمجمع، ثم أُخرِج منه على إثر أزمة أثارها الدكتور الطبيب " حسين الهواري " مؤلف كتاب (المستشرقون والإسلام . صدر في سنة ١٩٣٦م)، وحدث بعد ذلك أن نَشَر " فينسنك " رأيه في القرآن والرسول [ﷺ]، مُدّعِيًا أن الرسول [ﷺ] ألّف القرآن من خلاصة الكتب الدينية والفلسفية التي سبقته»[(٢)].

ومن المستشرقين الذين كانوا أعضاء في المجمع العلمي بدمشق: " جريفني " الإيطالي، و " جوتهيل " الكولومبي، و " جويدي " الإيطالي، و " جي سو " الفرنسي، و " نالينو " الإيطالي، و " هارتمان " ألماني الأصل، و " م . هوتمان " الهولندي، وكذلك " ماسنيون "، و " مرجليوث " [(٣)].

(١) الاستشراق والتبشير، إبراهيم خليل أحمد ، ص ٦١ باختصار وتصرف .
(٢) الفكر الإسلامي الحديث، ص٤٥٠ .
(٣) الاستشراق والتبشير، ص ٦١ ـ ٦٢ باختصار وتصرف .

وجدير بالذكر أن أولئك المستشرقين الذين اشتركوا في عضوية مَجْمَعَي القاهرة ودمشق، منهم مَن اشتُهِر عنه العداوة الشديدة والكراهية للإسلام ولغة القرآن، من خلال كتاباتهم ومواقفهم، بل إن بعضهم لا يُعَدُّ من المستشرقين المعادين للإسلام فحسب؛ وإنما من المتطرفين في عداوته، مثل "ماسنيون"، و "مرجليوث"، و "فينسينك" .

ونشير على سبيل المثال لعداوة أحدهم للغة العربية ، وهو " ماسنيون "، الذي عمل مستشارًا لوزارة المستعمرات الفرنسية في شمال أفريقيا ، وكان الراعيَ الروحيَّ للجمعيات التبشيرية الفرنسية في مصر ، وخدم بالجيش الفرنسيِّ خمس سنوات في الحرب العالمية الأولى [١] .

« نجد محاضرةَ " ماسنيون " الشهيرة عام ١٩٣١م في بيروت للدعوة إلى العامية ، وإلى كتابة هذه العامية بالحروف اللاتينية ، وكان قد ألقاها قبل ذلك في جمع من شباب العرب في باريس عام ١٩٢٩م .

ولقد وقف "ماسنيون" يخطب في بيروت، وكان همه أن يبث سمومه في الشباب السوري ، فزعم لهم أن كرامة اللغة العربية توجب أن تتفرع إلى لغات عديدة كما تفرعت اللغة اللاتينية، فيا سعادة الشرق العربي عندما تصير اللغة العربية إلى ما صارت إليه اللغة اللاتينية .

وقال هذا المستشرق في محاضرة له في (الكوليج دي فرانس) : إنه لا حياة للغة العربية إلا إن كتبت بحروف لاتينية » [٢] .

---

(١) الفكر الإسلامي الحديث، ص٤٥٠ بتصرف .

(٢) مقدمات العلوم والمناهج، أنور الجندي ٤/ ٦٢ .

« من هذا يستطيع المرء أن يدرك مدى خطورتهم وتداخلهم في المجالات العلمية ، وهم يعملون وفق خطة مدروسة ، حيث يجتمعون في هيئة مؤتمرات بين الحين والحين » (١) .

إن الباحث لا يستطيع أن يُخفِيَ دهشته من وجود أمثال هذا المستشرق في مجامع اللغة العربية التي ما أنشئت إلا للحفاظ على لغة القرآن الكريم ، ومواجهة التحديات التي تصدر عن خصومها ، وحراستها من مكائد دعاة العامية ، سواء أكانوا من المستشرقين أم من أتباعهم وأذيالهم في بلادنا !! .

المستشرقون ليسوا أصحاب كفاءات علمية في معرفة لغتنا وديننا:

ثم إن هؤلاء المستشرقين لا يمكن أن يصلوا إلى درجة إتقان اللغة العربية، وفقه البيان العربيِّ ، وإدراكِ أسرار البلاغة العربية ، بدرجة تؤهلهم لأن يكونوا في مصافِّ علماء اللغة المقتدرين ، فضلًا عن أن علماءنا في مجال اللغة كثر والحمد لله ، فلسنا في حاجة ألبته إلى هؤلاء الأعاجم .

« تقول الدكتورة بنت الشاطئ : إن اللغة العربية بالنسبة للمستشرقين لغة أجنبية عنهم ، ومهما أتقنوها وأجادوا تعلمها فهم يعجزون عن تذوق بعض أساليبها ، ويَحُول تركيبهم الاجتماعيُّ وتكوينهم الحضاريُّ دون النفاذ إلى ما وراء الكلمات والحروف من شفافية وحسن وأسرار مبثوثة، وهذا أوقع بعضهم في أخطاء دفعتهم إلى إصدار أحكام مجحفة، سجّلوها ظلمًا على مفاهيم الإسلام، فادّعى " فيليب فونداس " (٢) أن الأموال عند المسلم من أصل

(١) الاستشراق والتبشير، ص ٦٢ .

(٢) فرنسيٌّ من ألدّ أعداء الإسلام، ومن كتبه: "الاستعمار الفرنسي في أفريقيا السوداء".

شيطانيّ نجس ، استنادًا على الآية الكريمة ﴿ خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا ﴾ [التوبة:١٠٣] ، وادعى آخرون أن الحكم الدينيَّ الإسلاميَّ كان ينظر إلى المحكومين الأعاجم كقطيع من الغنم ، ويستنبط هذا الاكتشاف من فهمٍ لمعنى الراعي والرعية » [١] .

بل إن جهلَ بعضِهم المطبِق باللغة العربية ، أوقعهم في تفسيرات خاطئة ومضحكة في آن واحد .

يقول العقاد ـ حاكيا بعض تفسيراتهم الخاطئة لكثير من أمور اللغة الدين ـ :

« ومنها ما كتبه بعض المستشرقين تفسيرًا لاسم " أبي بكر " رضي الله عنه من أنه: (أبو العذراء!!) » [٢] .

ومنها ما قالوه في تفسير لمعنى " القصيد " [٣] . من أنه القصود .

---

(١) مقدمات العلوم والمناهج ٤/ ٦٣، وانظر : الاستشراق والمستشرقون للسباعي، ص٦٤، حيث ذكر أن ممن فهم هذا الفهم لمعنى الرعية المستشرق "بروكلمان" في كتابه: تاريخ الشعوب الإسلامية، وقد ردّ عليه الدكتور السباعي بما بدد شبهته وسوء فهمه .

(٢) البَكْر ـ بِالْفَتْحِ ـ: الفَتِيُّ مِنَ الْإِبِلِ، بِمَنْزِلَةِ الْغُلَامِ مِنَ النَّاسِ، وَالْأُنْثَى بَكْرَة، وَقَدْ يُسْتعار لِلنَّاسِ. النهاية في غريب الحديث والأثر، مجد الدين أبو السعادات المبارك بن محمد بن محمد الشيباني الجزري ابن الأثير (المتوفَّى ٦٠٦هـ)، ١/ ١٤٩، تحقيق: طاهر أحمد الزاوي، محمود محمد الطناحي، المكتبة العلمية – بيروت ١٣٩٩هـ ١٩٧٩م.

(٣) " القصيد ": جَمْعُ القَصِيدَة، واللَّحْمُ اليَابِسُ، والقَصِيدُ من الإِبل: النَّاقَةُ السَّمِينةُ المُمْتَلِئةُ الجَسِيمَةُ، والعَصَا، والسَّمِينُ مِنَ الأَسْنِمَةِ، والقَصِيد مَنَ الشِّعْرِ: المُنَقَّحُ المُجَوَّدُ المُهَذَّب، الَّذِي قد أَعْمَلَ فِيهِ الشاعرُ فِكْرتَه وَلم يَقْتَضِبْه اقْتِضَاباً. تاج العروس، محمّد بن محمّد بن عبد الرزّاق الحسيني، الملقّب بمرتضى، الزَّبيدي (المتوفى: ١٢٠٥هـ)، ٩/ ٣٧ وما بعدها باختصار وتصرف، دار الهداية. =

ومنها ما تورط فيه ذلك المستشرق من خطأ معيب في تفسيره لقوله تعالى : ﴿وَتَرَى ٱلْمَلَـٰٓئِكَةَ حَآفِّينَ مِنْ حَوْلِ ٱلْعَرْشِ﴾ [الزمر : ٧٥] بقوله: أي بدون أحذية !! » [١] .

« و " الصعيد " معناها : السعيد، كما في دائرة المعارف البريطانية » [٢] .

ويعلل العقاد ذلك قائلًا : « ذلك أنهم على غير علم دقيق باللغة العربية ، وليس هذا غريبًا فهم لا يفهمون أدب أمتهم ، ولا يجيدون معرفة هذا الأدب في لغتهم ، فمن باب أولي أن لا يحسنوا فهم الأدب العربي !

وقد كانت لهم مكانة أكثر مما يستحقون ، حتى وقفنا أمامهم ووضعناهم في موضعهم ! » [٣] .

ألا ليت المفتونين بأولئك المستشرقين، يخففون من غلوائهم وافتتانهم بهم، ويضعونهم في أحجامهم الطبيعية، بعد الذي تكشف من أخطائهم وتعصبهم وجهلهم .

= وبَيْتُ القصيد: الأمر المهمّ، وخلاصة الموضوع، وأحسن أبيات القصيدة وأنفسها. معجم اللغة العربية المعاصرة، د أحمد مختار عبد الحميد عمر ، ٢/ ١٨٢٠، عالم الكتب، ط الأولى ١٤٢٩ هـ-٢٠٠٨م.

(١) الإسلام دعوة عالمية، عباس العقاد ، مجموعة الأعمال الكاملة ٦ / ١٩٤ـــ ١٩٥، دار الكتاب اللبناني، بيروت ، ط الأولى ١٩٧٤م .

(٢) أوربا والإسلام، د/ عبد الحليم محمود، ص ١٣٧، دار المعارف – القاهرة، ط الرابعة.

(٣) الإسلام دعوة عالمية، العقاد ٦/ ١٩٥ .

المبحث الرابع

استخدام تلاميذ المستشرقين والمبشرين من الوطنيين

إن من أخطر الوسائل وأخبثها في نشر وإذاعة الفكر الاستشراقيِّ المعادي للإسلام ؛ استخدامَ بعض أبناء العرب والمسلمين من تلاميذ المستشرقين والمبشرين ليقوموا بهذه الوظيفة (أعني : نَشْرَ الفكر الاستشراقي) نيابة عن أساتذتهم، والترويجِ لآراء المستشرقين والمبشرين من غير نسبتها إليهم ، بل على أنها من نتاج قرائح أولئك التلاميذ والعملاء ، وثمرة اجتهادهم وتفكيرهم ، بينما هي في واقع الأمر لا تعدو أن تكون صدى لآراء وسموم خصوم الإسلام.

حرص أعداء الإسلام على صناعة المفكِّر المستغرب من أبناء البلاد الإسلامية والعربية:

وأعداء الإسلام ـ بشكل عام ـ يحرصون دائمًا على إيجاد صنائعَ أو عملاء لهم من أبناء البلاد الإسلامية والعربية ، يدربونهم ويُعِدُّونهم ويصنعونهم على أعينهم ، لينوبوا عنهم في الكيد للإسلام ومحاربته عبر مجالات شتى ، فكان لهم عملاء يكيدون للإسلام في مجال السياسة ، ومثلهم في مجالات الفكر ، وآخرون في مجالات التعليم والإعلام والثقافة ، وهكذا ...

وهذا الأمر لا يأتي عشوائيًّا أو عرضًا ؛ وإنما هو ثمرة تآمرٍ حقود ، وتخطيطٍ دءوب، ومكرٍ بالليل والنهار ، كما أنه يظل محلَّ عنايتِهم ورعايتِهم، ومتابعة متواصلة من جانبهم، وهذا ما أفصح عنه المستشرق المبشر "صمويل زويمر"

بقوله: « تبشير المسلمين يجب أن يكون بواسطة رسول من أنفسهم ، ومن بين صفوفهم ، لأن الشجرة يجب أن يقطعها أحد أعضائها »[1] .

وهذه شهادة ـ بل وثيقة ـ صدرت عن أحد دعاة التخريب والإفساد في العالم ، وهو الوجوديُّ الانحلاليُّ " جان بول سارتر " ، تكشف عن اهتمامهم بصناعة « المفكر المستغرب » الذي يقوم بترديد آراء الغربيين ، وتسويقها بين قومه الشرقيين ، وهى في ذات الوقت شهادة واحد من أهلها ، فيقول ـ مشيرًا إلى بعض طرق صناعة المفكر الشرقيّ في الغرب ، ومجال استخدامه ـ :

« كنا نُحضِر رؤساء القبائل وأولاد الأشراف والأثرياء والسادة من أفريقيا وآسيا ، ونطوف بهم بضعة أيام في إمستردام ولندن والنرويج وبلجيكا وباريس ، فتتغير ملابسهم ، ويلتقطون منا بعض أنماط العلاقات الاجتماعية الجديدة ، ويتعلمون منا طريقة جديدة في الرواح والغدوّ ، ويتعلمون لغتنا ، وأساليب رقصنا وركوب عرباتنا ، وكنا نُدبِّر لبعضهم أحيانًا زيجات أوربية ، ثم نلقنهم أسلوب الحياة الغربية ..

كنا نضع في أعماق قلوبهم الرغبة في أوربا، ثم نرسلهم إلى بلادهم، وأيُّ بلاد !! .. بلادٌ كانت أبوابها مغلقة في وجوهنا، ولم نكن نجد منفذًا إليها، كنا بالنسبة إليها رجسًا ونجسًا، لكن منذ أن أرسلنا المفكرين الذين صنعناهم إلى بلادهم؛ كنا نصيح من إمستردام أو برلين أو باريس: "الإخاء البشري"، فيرتدّ رجع أصواتنا من أقاصي أفريقيا والشرق الأوسط أو شمالي أفريقيا .. كنا نقول: "لِيحُلّ المذهب الإنساني أو دين الإنسانية محل الأديان المختلفة"،

(١) الغارة على العالم الإسلامي، ص ٣٠ .

وكانوا يرددون .. هذه أصواتنا من أفواههم وحين نصمت يصمتون ! إلا أننا كنا واثقين من أن هؤلاء المفكرين ـ !! ـ لا يقولون كلمة واحدة غير ما وضعنا في أفواههم ! » (١) .

ويقول المستشرق " ماسنيون ": « إن هؤلاء الطلابَ المسلمين الذين يصلون إلى فرنسا يجب أن يُصاغوا صياغة غربية خالصة، حتى يكونوا أعوانًا لنا في بلادهم » (٢) .

بل إن سَدَنَة الاستشراق والتبشير في الغرب، لا مانع لديهم من مَنْح بعضِ أبناء العرب والمسلمين الدرجات أو الشهادات العلمية من إحدى جامعات الغرب ـ مثل درجات الماجستير والدكتوراه ـ بسهولة ويسر، في مقابل أن يكون جنديَّ فكرتِهم المخلصَ.

وهذه شهادة على ذلك لأحد المنظِّرين الغربيين، يقول فيها:

«لا شك أن المبشرين فيما يتعلق بتخريب وتشويه عقيدة المسلمين قد فشلوا تمامًا، ولكن هذه الغاية يمكن الوصول إليها من خلال الجامعات الغربية، فيجب أن تَخْتار طلبةً من ذوي الطبائع الضعيفة والشخصية الممزقة، والسلوك المنحل من الشرق، ولا سيما من البلاد الإسلامية وتمنحَهم المنح الدراسية، حتى تبيع لهم الشهادات بأي سعر، ليكونوا المبشرين المجهولين لنا، لتأسيس

(١) شبابنا في وجه الإعصار الغربي، عبد القادر عبار، مقال في مجلة الأمة، ص ٢١، تصدر عن رئاسة المحاكم الشرعية والشئون الدينية في قطر، العدد الخمسون، السنة الخامسة، صفر ١٤٠٥هـ نوفمبر ١٩٨٤م .

(٢) من التبعية إلى الأصالة في مجال التعليم واللغة والقانون، أنور الجندي، ص ١٦، دار الاعتصام، القاهرة .

السلوك الاجتماعي والسياسي الذي نصبوا إليه في البلاد الإسلامية.

إن اعتقادي لقويٌّ بأن الجامعات الغربية يجب أن تَستغِل استغلالًا تامًا جنون الشرقيين للحصول على الدرجات العلمية والشهادات، واستعمال أمثال هؤلاء الطلبة كمبشرين ووعاظ ومدرسين لأهدافنا ومآربنا باسم تهذيب الإسلام والمسلمين »(١).

إن هؤلاء المستغربين الذين هم عملاء الاستشراق والتبشير أخطر على الأمة من أعدائها السافرين؛ حيث إنهم يستترون خلف أقنعة مُموِّهة، ويندسّون في صفوف الأمة ينخرون في عظامها كما ينخر السُّوس، ولا يُلتفَت إلى خطرهم، أو يُتَفطَّن إليهم إلا بعد حين، شأنهم في ذلك شأن أسلافهم من المنافقين.

ولقد عرفت البلاد الإسلامية في العصر الحديث طائفة من المفكرين المستغربين، كانوا أبواقًا يردِّدون إفك المستشرقين والمبشرين، وضلالهم، وينفثون سمومهم الفكريةَ على أنها آراؤهم أنفسِهم، زعموا أنهم توصلوا إليها بعد دراسة وبحث، ثم لم تلبثِ الأمور طويلًا، فإذا الحقيقة والواقع أنهم يَجترُّون أباطيل ومفتريات أساتذتهم من المستشرقين والمبشرين.

---

(١) غزو في الصميم، عبد الرحمن حسن حبنكة الميداني، ص ٧٠ ـ ٧١، دار القلم، دمشق، ط الثانية ١٤٠٥هـ ١٩٨٥، نقلا عن كتاب: (المشكلة الشرقية، طبع لندن، سنة ١٩٥٧م صفحة ١٤٦)، أجنحة المكر الثلاثة وخوافيها: التبشير ـ الاستشراق ـ الاستعمار، عبد الرحمن حسن حبنكة الميداني، ص ٢٦٢، دار القلم، دمشق،ط الثالثة ١٤٠٢هـ ١٩٨٢م.

الفكر الاستشراقي في كتابات " طه حسين " :

ومن هؤلاء المستغربين "طه حسين"، الذي كشف الباحثون والعلماء عن حقيقة آرائه التي نال بها من الإسلام وقرآنه وعظمائه وتاريخه، وأثبتوا أنها ترديد لأفكار أساتذته المستشرقين الماكرين، من أمثال "مرجليوث"، و "دوركايم"، و "جب"، وغيرهم.

ومن كتبه التي امتلأت بالباطل والزيف؛ كتاب (الشعر الجاهلي)، وقد أثبت الباحثون أنه منقول عن كتابٍ حول الشعر الجاهليّ للمستشرق "مرجليوث" .

وممن ذكر هذا وأكّد عليه العلامةُ الأستاذ " محمود محمد شاكر " ، لدرجة أنه أطلق على كتاب " طه حسين " المذكور : « حاشية طه حسين على بحث مرجليوث »[1] .

كما أن الدكتور " محمد البهيّ " عقد مقارنة وموازنة بين ما كتبه " طه حسين " في كتابه المذكور، وبين ما كتبه المستشرق " جب " في كتابه (المذهب المحمديّ)، وانتهى من تلك المقارنة العلمية الموضوعية إلى أن الأهداف والنتائج واحدة لدى كليهما[2] .

ومن الآراء الخطيرة التي ذهب إليها " طه حسين " في هذا الكتاب :

أن العرب « لم يكونوا على دين ، ولم يكونوا جُهّالًا ولا غِلاظًا، ولم يكونوا

---

(١) مؤلفات في الميزان، أنور الجندي ، ص٣٧ ، هدية مجلة منار الإسلام (تصدرها وزارة الشئون الإسلامية بالإمارات العربية المتحدة) ، العدد الخامس ، السنة الحادية عشرة .

(٢) تُراجَع خلاصة هذه الموازنة في: الفكر الإسلامي الحديث، ص ١٩٠ ـ ١٩١ .

في عزلة سياسية أو اقتصادية بالقياس إلى الأمم الأخرى .. كذلك يُمثِّلهم القرآن ، وإذا كانوا أصحابَ علم ودين وأصحابَ ثروة وقوة وبأس ، وأصحابَ سياسة متصلة بالسياسة العامة ـ متأثرين بها مؤثرين فيها ـ فما أخلقَهم أن يكونوا أمة متحضِّرة راقية لا أمةً جاهلة همجية ! وكيف يستطيع رجل عاقل أن يصدِّق أن القرآن ظهر في أمة جاهلة همجية » [1] .

وهو « يريد أن يُفهِم قارئَه أن القرآن انطباع للحياة القائمة في وقت صاحبه ـ وهو النبي ﷺ ـ وهو يمثل لذلك بيئة خاصة : في عقيدتها ولغتها ، وعاداتها في الحياة .. وهى البيئة العربية في الجزيرة العربية » [2] .

« ومنهج دراسة الحياة الجاهلية للعرب قبل الإسلام دراسة علمية ، كان يدور عند صاحب كتاب (الشعر الجاهلي) بين أمرين لا ثالث لهما : بين ما يُسمَّى بالشعر الجاهلي وبين القرآن .. كلاهما للإنسان وكلاهما يتحدث عن الحياة العربية الجاهلية ! ولكنه استبعد الشعرَ الجاهليَّ واختار القرآن لهذه الدراسة لأنه صادق في كونه (انطباعا) دقيقا لهذه الحياة ! القرآن إذن مصنوع ومؤلَّف .

---

(١) الفكر الإسلامي الحديث، ص ١٨٤ نقلًا عن: الشعر الجاهلي ، لطه حسين، ص ١٥ . هذا ؛ وكلام " طه حسين " ـ المشار إليه ـ مناقض لكلام رب العالمين؛ حيث يقول سبحانه: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ ﴾ [الجمعة : ٢]، فالآية تفيد أن العرب كانوا أميين جاهلين في تيهٍ وضلال، وهم لذلك كانوا في أمس الحاجة إلى بعثة الرسول ﷺ .

(٢) الفكر الإسلامي الحديث، ص ١٨٦ .

هو مرآة لأفق خاص من الحياة في شبة الجزيرة العربية، وهي مكة بوجه خاص » [١] .

ومما قاله " طه حسين " في كتابه المذكور : « للتوراة أن تحدِّثَنا عن إبراهيم وإسماعيل ، وللقرآن أن يحدِّثَنا أيضًا ، ولكنّ وُرود هذين الاسمين في التوراة والقرآن لا يكفي لإثبات وجودِهما التاريخيّ » [٢] .

ويقول أيضًا: « أمْرُ هذه القصةِ (قصة إسماعيل) إذن واضح ... فهي حديثة العهد ، ظهرت قبيل الإسلام ، واستغلّها الإسلامُ لسبب دينيٍّ ، وقَبلتْها مكةُ لسبب دينيٍّ وسياسي ! » [٣] .

وقد كلَّف " الأزهر " لجنة من كبار علمائه ـ في ذلك الوقت ـ لدراسة كتاب (الشعر الجاهليّ) ، فقامت بذلك ورفعت تقريرًا لشيخ الأزهر قالت فيه : « إن الكتاب مملوءٌ بروح الإلحاد والزندقة ، وهو دعامة من دعائم الكفر ، ومِعْول لهدم الأديان ، وفَنّدت اللجنة شبهات وأوهام المؤلف ، ووضعت النقاط على الحروف بأسلوب علميٍّ رزين، وكتب الشيخ " عبدُ ربِّهِ مفتاح " ـ أحدُ أعضاء اللجنة ـ مقالًا نشرته صحيفة الكواكب ، يقول فيه لطه حسين: « إن العلماء أجمعين، وعلى بكرة أبيهم يَحكُمون عليك بالكفر، وبالكفر الصريح الذي لا تأويل فيه ولا تجوُّز، وأتحداك أن تدلني على عالم واحد يحكم عليك بالفسوق

---

(١) السابق، ص١٨٧.

(٢) العالم الإسلامي والمكائد الدولية خلال القرنِ الرابع عشر الهجريِّ، فتحي يكن، ص ١١٩، مؤسسة الرسالة بيروت، ط الثالثة ١٤٠٣هـ ١٩٨٣م، نقلًا عن كتاب: الشعر الجاهلي، ص ٢٦.

(٣) الفكر الإسلامي الحديث، ص ١٨٩ نقلًا عن: الشعر الجاهلي، ص ٢٩.

والعصيان دون الكفر ، وعليك تبرئةُ نفسِك من هذا الاتهام الشائن.. »[١] .

هذا ، ولم يثبت أن " طه حسين " قد رجع عن تلك الآراء ، أو أمثالها مما في كتبه الأخرى[٢] .

" علي عبد الرازق " على خُطى " طه حسين " :

ومن الذين كانوا وسيلة لنشر سموم المستشرقين ـ على شاكلة طه حسين ـ ؛ " علي عبد الرازق " صاحب كتاب « الإسلام وأصول الحكم » ، الذي زعم فيه أن الشريعة الإسلامية شريعة روحية محضة ولا علاقة لها بشئون السياسة والحكم .

« لم يكن علي عبد الرازق نفسه إمامًا مجتهدًا .. وإنما كان قاضيًا شرعيًّا تلقفته قوى التغريب فاصطنعته تحت اسم (التجديد) ، ودُعِي علي عبد

---

(١) الزور والبهتان فيما كتبه طه حسين في (الشيخان)، إعداد : د/ جمال عبد الهادي، د/ وفاء محمد رفعت ، أستاذ/ علي لبن ، ص٨٢ ، دار الوفاء ، المنصورة .

(2) ذكر الأستاذ الدكتور " محمد عمارة " ـ غير مرة ـ في محاضراته وكتاباته، أن " طه حسين " قد رجع عن تلك الآراء، وتاب منها ، وإنّا لنتمنى هذا ونحبُّه؛ ولكنّ الواقع أنه لم يُؤثَر عن طه حسين أنه كتب كتابا ، أو أعلن في مؤتمر على الناس أنه بريء من هذا الرأْي أو ذاك ، أو تراجَع عمّا قاله في كتاب كذا أو كذا ، مما أُخِذ عليه وانتُقِد فيه ، وأُدين بسببه علميًّا وقانونيًّا .

والظاهر أن الرجل بقِي على آرائه حتى رحل عن الدنيا ، بل إنه عندما تعرّض للتحقيق والمساءلة في القضاء بشأن بعض آرائه التي تقدح في صدق أخبار القرآن الكريم وربّانية مصدره ، مثل ما قاله في شأن ثبوت قصة إبراهيم وإسماعيل ، وأن وُرودَهما في التوراة والقرآن لا يكفي لإثبات وجودِهما التاريخيّ ، لم يجزم بأنه يصدّق بما ورد في القرآن بشأن القصة صراحة ، وعمد إلى المراوغة .. فأين هذا الرجوع والتوبة المزعومة ؟! .

الرازق إلى لندن لحضور حلقات الاستشراق التي تروِّج للأفكار المعارضة لحقيقة الإسلام وهدم مقوماته .. وأُهدِي هذا الكتابَ الذي وضع عليه اسمه مترجمًا إلى اللغة العربية ، وطُلِب إليه أن يضيف إلى مادته بعضَ النصوص العربية التي يستطيع اقتباسها من كتب الأدب .

أما الكتاب نفسه فكان من تأليف قَرْمٍ [1] من أقرام الاستشراق ، وداهيةٍ من رجال الصهيونية واليهودية العالمية ، وهو " مرجليوث " الذي تقضي الصدف أن يكون صاحبَ الأصل الذي نقل عنه طه حسين بحثه عن (الشعر الجاهلي)، والذي أطلق عليه محمود محمد شاكر : (حاشية طه حسين على بحث مرجليوث) ، ويمكن أن نطلق الآن اسم (حاشية " علي عبد الرازق " على بحث " مرجليوث ") ، وقد كشف عن هذه الحقيقة الدكتور " ضياء الدين الريّس " في بحثه القيم (الإسلام والخلافة في العصر الحديث) » [2] .

وقد قدم الدكتور " الريس " أدلة قويه ترجح وتثبت أن أصل كتاب " علي عبد الرازق " هو بحث لمرجليوث [3] .

وكان « أول من كشف حقيقة الكتاب هو الشيخ (محمد بخيت) الذي ردّ على الشيخ " علي عبد الرازق " في كتابه (حقيقة الإسلام وأصول الحكم)، وهو واحد من الكتب التي صدرت في الرد عليه .. حيث قال :

---

(١) القَرْم من الرجال : السيد المعظَّم ، المعجم الوسيط ٢/ ٧٥٨ .

(٢) إعادة النظر في كتابات العصريين في ضوء الإسلام، أنور الجندي، ص ٥٥ ــ ٥٦، دار الاعتصام، القاهرة .

(٣) يُراجَع: السابق ، ص ٥٩ ـ ٦٠ .

(لأنه علِمنا من كثيرين ممن يترددون على المؤلف أن الكتاب ليس له منه إلا وضع اسمه عليه فقط .. فهو منسوب إليه فقط .. ليجعله واضعوه من غير المسلمين ضحية هذا العار ، وألبسوه ثوب الخزي إلى يوم القيامة) » [1] .

وقد انعقدت هيئة كبار العلماء برئاسة المرحوم الشيخ " محمد أبي الفضل الجيزاوي " ، شيخ الأزهر في ذلك الوقت ،صباح الأربعاء ٢٢ المحرم ١٣٤٤هـ (١٢أغسطس سنة ١٩٢٥م) ، وكان عدد أعضائها أربعةً وعشرين عالمًا ، وبعد مناقشة طويلة أصدرت الهيئة حكمها بإدانة الشيخ علي عبد الرازق وإخراجه من زمرة العلماء [2] .

اعترافٌ خطيرٌ من " أحمد أمين " :

وهناك اعتراف من " أحمد أمين " ، يُقِرُّ فيه بأنه أحدُ المروِّجين لآراء المستشرقين في كتبه بدون أن ينسبها إليهم ، بل يقدِّمها للناس على أنها من خالص أفكاره ، وهو ـ لا شك ـ اعتراف له خطورته ، حيث يجيب عن كثير من علامات الاستفهام حول آراء بعض الكاتبين المحدَثين ـ ومنهم " أحمد أمين " ـ حول كثير من القضايا الإسلامية ، كما يؤكِّد على أن مدرسة تلاميذ المستشرقين الذين يُسخَّرون في نشر آراء أساتذتهم ، موجودة في حياتنا ، وتشكِّل رافدا من روافد الغزو الفكريِّ الهدّام في المجتمعات الإسلامية .

وهذا الاعتراف يرويه الدكتور " مصطفي السباعي " رحمه الله، فيقول :

« ولما ثار نقاشٌ في الأزهر حول الإمامِ الزهْريِّ عام١٣٦٠هـ، قال الأستاذ

(١) إعادة النظر في كتابات العصريين في ضوء الإسلام ، أنور الجندي ، ص ٥٦ .
(٢) العالم الإسلامي والمكائد الدولية خلال القرنِ الرابع عشر الهجريِّ، ص ١٠١ باختصار .

" أحمد أمين " للدكتور " علي حسن عبد القادر " ـ وهو الذي أثيرت الضجة حوله ـ :

إن الأزهر لا يَقْبل الآراء العلميةَ الحرة ، فخير طريقة لِبثّ ما تراه مناسبًا من أقوال المستشرقين ، أن لا تنسبها إليهم بصراحة ، ولكن ادفعها إلى الأزهريين على أنها بحث منك ، وأَلبِسْها ثوبًا رقيقًا لا يُزعجهم مسُّها ، كما فعلت أنا في (فجر الإسلام ، وضحى الإسلام) .

هذا ما سمعته من الدكتور " علي حسن " يومئذٍ نقلا عن الأستاذ " أحمد أمين " » [1] .

خطورة هذه الوسيلة:

إن إذاعة سمومِ المستشرقين وآرائِهم على يد أسماء وطنية ، وخاصة إذا كانت مسلمة عربية ، أمرٌ في غاية الخطورة والضرر ؛ حيث إن ورود الشبهات والأفكار الاستشراقية في غير كتب المستشرقين ، وترديدها على ألسنة آخرين من بعض المسلمين ، لا يثير الانزعاج أو القلق والحساسية لدى القارئ المسلم، مثل ما يثيرها لو كان يقرأ أو يعْلم أن هذا الكلام لمستشرقٍ حاقدٍ كاره للإسلام، ويجعل الشبهاتِ والأباطيلَ تنتشر وتَرُوج في تدليس وخداع ، يُلبِس الباطلَ ثوبَ الحق، ويجعله يتسلل إلى نفوس الناس دونما انزعاج ، ويسري بينهم في نعومة وصمت ، من غير أن ينتبهوا لحقيقته وأضراره .

---

(١) السنة ومكانتها في التشريع الإسلامي ، ص ٢٣٨.
وجدير بالذكر أن الدكتور مصطفى السباعيّ قد ردّ على شبهات " أحمد أمين " التي أثارها في كتابه (فجر الإسلام) حول السنة النبوية، وأفرد لذلك فصلا خاصا، وفنّدها بأسلوب علميٍّ موضوعيٍّ. يُراجَع: السنة ومكانتها في التشريع الإسلامي، ص ٢٣٦ وما بعدها .

ولا شك أن هذه الوسيلةَ أشدُّ مكرًا وأكثرُ خداعًا وتمويها، و «أخبثُ أثرًا، وأسوأُ نتيجة، وأقوى سلاحا، والله المستعان، وهو حسبنا ونعم الوكيل» [1] .

ولأنّ المستشرقين والمبشِّرين والمستعمرين وغيرَهم من أعداء الإسلام يُدرِكون خطورة هذه الوسيلةِ جيدا ؛ فإنهم قد استغلوها شرّ استغلال ، ورُزِئْنا بكثير من الصنائع الغربية في بلادنا ، الذين صاروا ـ كما جاء في الحديث النبويِّ الشريف ـ « **دعاة إلى أبواب جهنم ، من أجابهم إليها قذفوه فيها** » [2] .

ولذلك يجب الكشفُ عنهم ، وإظهارُ حقيقةِ أفكارِهم ، وهتْك أستارِ خداعِهم ، كي تبرأ الأمة من بلائهم ، والله المعافي .

---

(1) السابق، ص ٢٣٦ .

(2) عن حُذَيْفَةَ بْنِ اليَمَانِ ﷺ قال: كَانَ النَّاسُ يَسْأَلُونَ رَسُولَ اللهِّ ﷺ عَنِ الخَيْرِ، وَكُنْتُ أَسْأَلُهُ عَنِ الشَّرِّ مَخَافَةَ أَنْ يُدْرِكَنِي، فَقُلْتُ يَا رَسُولَ اللهِّ إِنَّا كُنَّا فِي جَاهِلِيَّةٍ وَشَرٍّ، فَجَاءَنَا اللهُّ بِهَذَا الخَيْرِ، فَهَلْ بَعْدَ هَذَا الخَيْرِ مِنْ شَرٍّ؟ قَالَ: «نَعَمْ» قُلْتُ: وَهَلْ بَعْدَ ذَلِكَ الشَّرِّ مِنْ خَيْرٍ؟ قَالَ: «نَعَمْ، وَفِيهِ دَخَنٌ» قُلْتُ: وَمَا دَخَنُهُ؟ قَالَ: «قَوْمٌ يَهْدُونَ بِغَيْرِ هَدْيِي، تَعْرِفُ مِنْهُمْ وَتُنْكِرُ» قُلْتُ: فَهَلْ بَعْدَ ذَلِكَ الخَيْرِ مِنْ شَرٍّ؟ قَالَ: «نَعَمْ، دُعَاةٌ إِلَى أَبْوَابِ جَهَنَّمَ، مَنْ أَجَابَهُمْ إِلَيْهَا قَذَفُوهُ فِيهَا» قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِّ، صِفْهُمْ لَنَا؟ فَقَالَ: «هُمْ مِنْ جِلْدَتِنَا، وَيَتَكَلَّمُونَ بِأَلْسِنَتِنَا» قُلْتُ: فَمَا تَأْمُرُنِي إِنْ أَدْرَكَنِي ذَلِكَ؟ قَالَ: تَلْزَمُ جَمَاعَةَ المُسْلِمِينَ وَإِمَامَهُمْ، قُلْتُ: فَإِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُمْ جَمَاعَةٌ وَلاَ إِمَامٌ؟ قَالَ «فَاعْتَزِلْ تِلْكَ الفِرَقَ كُلَّهَا، وَلَوْ أَنْ تَعَضَّ بِأَصْلِ شَجَرَةٍ، حَتَّى يُدْرِكَكَ المَوْتُ وَأَنْتَ عَلَى ذَلِكَ». أخرجه البخاري في ك المناقب، ب علامات النبوة في الإسلام ٤ / ١٧٨، وفي ك الفتن، ب كيف يكون الأمر إذا لم تكن جماعة ٨ / ٩٣، ومسلم في ك الإمارة، ب وجوب ملازمة جماعة المسلمين عند ظهور الفتن، مسلم بشرح النووي ١٢ / ٢٣٦ ـ ٢٣٧، رقم ١٨٤٧.

ويراجع ـ في هذا الموضوع أيضا ـ : الغزو الفكري التحدي والمواجهة، للمؤلف، ص ١٦١ـ١٦٩.

المبحث الرابع

إرساليات التبشير في العالم الإسلامي

من نافلة القول أن نُقرِّرَ هنا حقيقةً راسخةً ـ سبق أن ذكرناها ووثّقناها في الفصل السابق ـ وهي : أن الدافع الدينيَّ التبشيريَّ كان أحدَ الدوافعِ القويةِ وراء نشأة الاستشراق ، واستمرارِ نشاطه إلى الآن .

فالاستشراق قد وُجِد لخدمة التبشير ، والعلاقة بينهما علاقةُ انسجامٍ ووئامٍ وتنسيقٍ ، لخدمة أهدافٍ واحدة لكلا الجانبين ، بل ليس من المبالغة القولُ بأن الاستشراق والتبشير وجهان لعملة واحدة .

وهما يتفقان في ضرورة مقاتلة الإسلام، ومحاولةِ إضعافِه ، وإيقافِ نشرِه، وإخراجِ المسلمين منه، أو صَرْفِهم عن التمسك بشرائعه وشعائره، بطرق كثيرة، من بينها حربُ الكلمة التي تحمل في مضمونها الفكرَ المعاديَ للإسلام.

ويمثِّل الاستشراقُ في هذه الحرب المصنعَ الذي يُصنِّع الشبهات ، ويُنتِج الأفكارَ المضادّةَ للإسلام ، بينما يقوم التبشير بمهمة التسويق والدعاية للمنتجات الفكرية الاستشراقية ، وتوزيعها بين قطاعات المسلمين المختلفة .

وتقوم إرساليات التبشير في العالم الإسلاميِّ بدور كبير في ترويج ونشر الفكر المعادي للإسلام ، الذي أنتجه الاستشراق ، وسوَّد به المستشرقون آلافًا من الكتب والمجلدات .

« والإرسالية تعني : جماعة من المنصِّرين يقومون بنشر المسيحية في إقليم

معين ، وتضم الإرساليةُ عادة عدةَ مراكز ، يختص كل منها بالعمل في مدينة معينة ، يُطلَق عليها (المركز التبشيري) أو (مركز التبشير) ، كما توجد مراكزُ فرعيةٌ على مستوى القرى » [١] .

وهذه الإرساليات تحت تصرُّفِها أجهزة عاتية جبارة ، ووسائل خطيرة ، ولها منافذ عديدة تتصل من خلالها بالمسلمين ، وتبثُّ فيهم ما لديها من سموم فكرية ، هي أَضَرُّ عليهم وأَفْتَكُ بهم من السموم البيضاء والسوداء .

فمجالات الخدمات الطبية ، والاجتماعية والثقافية المختلفة ، وإنشاء المدارس والمعاهد والجامعات ، وغيرها من الوسائل والأنشطة التي تستغلُّها الإرساليات التبشيرية ؛ كلُّها طُرُقٌ مسخَّرةٌ لِبثِّ المفتريات والأباطيل المشوِّهة للإسلام والمعاديةِ له .

وهذا مثال من الكتب التي تُدرِّسها إحدى الإرساليات الأجنبية في بيروت في مدارسها التي يؤمها ـ للأسف ـ أبناءُ المسلمين وغيرِهم ، ننقله مما أورده صاحبا كتاب : " التبشير والاستعمار في البلاد العربية " ، فقد تكلما عن كتاب كان يُدرَّس في الصف الرابع من المدرسة البطريركية في بيروت ، وكذلك في مدارس أخرى كثيرة في لبنان ، وفي غير لبنان ، (وهو مطبوع في لبنان) ، والاسم الكامل لهذا الكتاب هو هذا :

تاريخ محاضرات ج . إيزاك .

---

(١) الإذاعات التنصيرية الموجهة إلى المسلمين العرب ، د/ كرم شلبي ، ص ٤٨ هامش ، مكتبة التراث الإسلامي ، القاهرة ، ط الأولى ١٤١٢هـ ـ ١٩٩١م ، نقلًا عن التبشير النصراني في جنوب السودان ـ وادي النيل ـ ، إبراهيم عكاشة ، ص ٢٤ .

حررها: أ . ألبا، للشرق الأدنى لطلبة الصف الخامس (العصور الوسطى) طبعة مطابع الآداب الفرنسية في بيروت .

جاء في هذا الكتاب:

ص ٣١ : واتفق لمحمد في أثناء رحلاته أن يعرف شيئًا قليلًا من عقائد اليهود والنصارى ، ولما أشرف على الأربعين أخذت تتراءى له رؤى أقنعته بأن الله اختاره رسولًا .

ص ٣٢ : والقرآن مجموع ملاحظات كان تلاميذه يدونونها بينما كان هو يتكلم ، وقد أمر محمد أتباعه أن يحملوا العالم كلَّه على الإسلام بالسيف إذا اقتضت الضرورة .

ص ٣٦ : وبينما كان محمد يعظ كان المؤمنون به يدونون كلماته على عَجَل.

ص ١٢٦: ودخلت فلسطين في سلطان الكفرة منذ القرن السابع للميلاد[1] .

هذا واحد من كتب كثيرة مستفزة تنطوي على كثير من اللغو والافتراء، فضلًا عن كتب أخرى ليست سافرة مكشوفة ، وإنما تصاغ بأساليب ملتوية ماكرة .

إن هذه الإرساليات ركيزة من ركائز الغزو الفكري للعالم الإسلامي ورافد خطير من روافده ، ولها نفوذ وسيطرة كبيران في بعض البلاد الإسلامية ، والفقيرة منها خاصة ، وهي في بعض البلاد أكثر نفيرًا ، ولا صوت يعلو فوق

(١) التبشير والاستعمار في البلاد العربية، د/ مصطفى خالدي ، د/ عمر فروخ، ص٧٤ .

صوتها ، ولا يوجد فكر آخر يقدر على أن يزاحم فكرها المدمِّر ، لما لها من صولة وجولة ، ومن بطش أحيانا ، وتدعمها كبرى الدول الغربية ، وتشد من أزرها ، وهى عامل من عوامل عدم الاستقرار في البلاد التي تحلّ فيها ، ولن تسير الأمور على نحو مستقيم إلا باستئصال شأفتها وقطع دابرها من العالم الإسلامي

الفصل الرابع
ملامح منهج البحث الاستشراقيِّ في الدراسات الإسلامية

المبحث الأول: واقع المنهج العلميِّ لدى المستشرقين
المبحث الثاني: اعتقاد أمور، وتكوين آراء وافتراضات مقدما ثم التماس التأييد لها
المبحث الثالث: الكتابة عن الإسلام بما يتصوره المستشرقون، لا من واقع ما يعتقد المسلمون
المبحث الرابع: الكذب وعدم تحري الأمانة في النقل
المبحث الخامس: انتقاء المثالب وتضخيمها وإهمال الحقائق المنصفة
المبحث السادس: دراسة الإسلام من غير مصادره المعتمدة
المبحث السابع: دراسة الإسلام بعقلية أوربية مسيحية
المبحث الثامن: وقفة مع المغالين في تقدير المستشرقين

المبحث الأول

واقع المنهج العلميِّ لدى المستشرقين

ادعاء المستشرقين أنهم يطبّقون المنهج العلميَّ في جميع دراساتهم:

يزعم المستشرقون أنهم أصحاب منهجٍ علميٍّ نزيه ، يطبِّقونه في كل ما يقومون به من دراسات وبحوث ، ويتشدق بهذا الزعم تلامذتهم وأشياعُهم في البلاد العربية والإسلامية ، ويحاولون جاهدين تكريسَ هذا المفهومِ وتلمَّسَ شتى الأدلةِ والقرائنِ لإثباته ، وإذا قام أحد الباحثين وقال بعكس ذلك ، وأثبت أن المستشرقين كثيرًا ما يجافون المنهج العلميَّ وقواعدَ البحث والدراسة، وخاصة فيما يتصل بدراسة الإسلام ؛ كان حظُّه من أولئك الأشياعِ أن يُتّهم بالتعصب والتحامل على المستشرقين أصحابِ الفضل ـ في نظرهم ـ على تراثنا ! .

ونحب أن يعلم الجميع ـ والمستشرقين ومن يدور في فلكهم ـ خاصة ـ أنه ليس بيننا وبين المستشرقين خصومة شخصية أو عداء ذاتيّ، فنحن ـ الباحثين المسلمين ـ من قوم يأمرهم دينهم بالعدل حتى مع الخصوم، والاعترافِ بالحق لذويه ، حيث يقول تعالى : ﴿ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُوا۟ ۚ ٱعْدِلُوا۟ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ﴾ [1] [المائدة:٨]، ومن هذا المنطلق إن أحسن المستشرقون فلدينا من الشجاعة والصراحة ما يدفعنا لأن نقول لهم

(1) قال الإمام ابن كثير ـ رحمه الله ـ: « أي لا يحْملنّكم بُغضُ قوم على ترك العدل فيهم، بل استعملوا العدل في كل أحدٍ صديقا كان أو عدوًّا ». تفسير القرآن العظيم ٢/ ٣١، دار الغد العربي، القاهرة ١٤١١هـ ١٩٩١م.

أحسنتم، وفي نفس الوقت لا يمنعنا الخوف من الاتهام بالتعصب والتحامل من أن نقول لهم حال إساءتهم أسأتم ، وعند خطأهم أخطأتم .

ونحن لا نماري في معرفة المستشرقين بالمنهج العلميّ وقدرتِهم على استخدامه وتطبيقه في دراساتهم وبحوثهم المتشعبة الواسعة ، ولا ننكر أن بعضهم يمارسه ، أو أنهم يمارسونه في بعض مجالات دراساتهم ، وليس في جميعها .

التزام المستشرقين بالمنهج العلمي يكون في مجال الدراسات غير الإسلامية :

أجَل ؛ إن المستشرقين يتحدثون عن المنهج العلميّ ، وضرورةِ التحقّق به ، والتمسك بقواعده ، ونعلم أن ليس عندهم ما يمنع من تحويل الكلام إلى تطبيق ، لكن هذا يحدث إذا كان مجالُ الدراسة والبحث شيئًا غيرَ الإسلام ، أما إذا كان ميدان الدراسة هو الإسلام ؛ فيصبح التزامهم بالمنهج العلميّ كلامًا نظريًّا ، وحديثًا فارغًا من أيّ مضمون ، وليس له ظلال على أرض الواقع ، ونرى الموازينَ آخذةً في الميل والاختلال ، إلى درجة تكاد معها عقولهم تفقد اتّزانها وصوابها .

والحقيقة والواقع يشهدان بأن الأوربيين دائمًا في مواقفهم ونظراتهم للأمور يفرقون بين ما هو إسلاميّ وبين ما ليس كذلك ، وقد تعودنا من الغرب أن يكيل بمكيالين ؛ أحدهما مكيال خاص بالإسلام وأهله ، عارٍ من الإنصاف والعدل ، وهذا أمرٌ لا يخفى على أيّ مُتابع لتعامل الغرب مع قضايا الإسلام والمسلمين في المحافل الدولية .

والعقل الاستشراقيُّ الجَمْعيُّ ابن بيئته .

يقول "ليوبولد فايس" النمساويُّ الذي اعتنق الإسلام، وتسمَّى باسم "محمد أسد" ـ متحدثًا عن موقف الأوربيين من الإسلام ـ :

« لا تجد موقفَ الأوربيِّ موقفَ كرهٍ في غير مبالاة فحسب ، كما هي الحال في موقفه من سائر الأديان والثقافات ؛ بل هو كُرهٌ عميقُ الجذور ، يقوم في الأكثر على حدود من التعصب الشديد ، وهذا الكره ليس عقليًّا فحسب ، ولكنه يصطبغ أيضًا بصبغة عاطفية قوية .

قد لا تتقبل أوربة تعاليم الفلسفة البوذية والهندوكية ، ولكنها تحتفظ دائمًا فيما يتعلق بهذين المذهبين بموقف عقليٍّ متزن ، ومبنيٍّ على التفكير ، إلا أنها حالما تتجه إلى الإسلام يختل التوازن ، ويأخذ الميل العاطفيُّ بالتسرب ، حتى إن أبرز المستشرقين الأوربيين جعلوا من أنفسهم فريسة التحزب غيرِ العلميِّ في كتاباتهم عن الإسلام .

ويظهر في جميع بحوثهم على الأكثر كما لو أن الإسلام لا يمكن أن يعالَج على أنه موضوع بحث في البحث العلمي ، بل على أنه متهم يقف أمام قضاته .

وليس ذلك قاصرًا على بلد دون آخر ، إنك تجده في إنجلترا وألمانيا ، وفي الروسية وفرنسة ، وفي إيطاليا وهولندة ، وبكلمة واحدة في كل صُقْعٍ يتجه المستشرقون فيه بأبصارهم نحو الإسلام، ويظهر أنهم ينتشون بشيء من السرور الخبيث حينما تعرض لهم فرصة ـ حقيقة أو خيالية ـ ينالون بها من الإسلام عن طريق النقد » [1] .

وإلى مثل هذا أيضًا يشير " العقاد " ـ في معرض حديثه عن نهج الأكثرين

---

(١) الإسلام على مفترق الطرق، محمد أسد، نقله إلى العربية د/ عمر فروخ، ص ٤٩ ـ ٥١ باختصار، مكتبة المنار بالكويت، ط السابعة ١٩٧٤م.

من المستشرقين في الكتابة عن الموضوعات الإسلامية ـ فيقول :

« وعندهم ـ دائمًا ـ أن مسائل الإسلام موسومة بالغرابة والمخالَفة لما عداها من المسائل العالمية ، فهم يتطلبون الشذوذ الغريب ابتداء من النظرة الأولى ، ولا يحسبون أن التحليل العلميَّ يتسع لتفسير الإسلاميات وغير الإسلاميات على قاعدة واحدة من قواعد الفهم والتحليل ، وقد تسربَت طريقتهم هذه في التأليف إلى عقول قرائهم وتلاميذهم من الشرقيين المسلمين وغير المسلمين، فكلهم يبتدئ البحث بالتفرقة بين ما يبحثه من شئون الإسلام ، وما يبحثه من أمثالها في التاريخ القديم أو التاريخ الحديث من شئون الأمم الشرقية والغربية الأخرى ، وكلهم يخص الإسلام بمنظار (خاص) من أول نظرة ، ولا يحمل ذلك المنظارَ نفسَه حين يتحول بالنظر إلى سواه » [1] .

منهج المستشرقين في دراسة الإسلام يفتقر إلى التجرد والإنصاف:

والواقع أن منهج المستشرقين في دراسة الإسلام وما يتصل به قد اتَّسم ـ مع الأسف ـ بكثير من النقائص ، بحيث إنه قد خلا من النزاهة والتجرد ، وغدا عاريًا من الروح العلمية المنصفة في أكثر بحوثهم وأغلب نِتاجِهم الفكريِّ ، ولا عجب فإن العقل الاستشراقيّ إنما هو وليد بيئته الغربية ، وجزء من الكيان الأوربيِّ الكاره للإسلام والمتحيزِ ضدَّه على كل صعيد، وفي كل حين .

وسوف نحاول رسم صورة توضيحيه لملامح هذا المنهج وحقيقته

(١) ما يقال عن الإسلام، عباس العقاد، مجموعة الأعمال الكاملة ٦ / ٤٧٤ ـ ٤٧٥، دار الكتاب اللبناني، بيروت، ط الأولى ١٩٧٤م .

وخلفياته، من واقع ما أنتجته عقول المستشرقين، وسطروه في بحوثهم حول الإسلام، وسنرى أنها ملامح كريهة متجهِّمة، لمنهج بغيض لا يُشرِّف العلم، وذلك في المباحث التالية.

المبحث الثاني

اعتقاد أمور، وتكوين آراء وافتراضات مقدَّما ثم التماس التأييد لها

إن من مقتضيات البحث العلميِّ النزيهِ أن يبدأَ المرء في بحثه لأمرٍ ما وهو خالي الذهن من أحكام مسبقة ، ثم يكوِّنَ آراءه من خلال ما تجمّع لديه من أدلة ومعطيات ، فيستخلص النتائج من المقدمات .

أما المستشرقون فقد خالفوا هذا المنهج واختاروا لأنفسهم منهجًا مغايرًا في الدراسات الإسلامية ، حيث يقومون بالاعتقاد قبل الدليل ، والاستنتاج قبل المقدمات ، فيكون في رأس أحدهم فكرة مسبقة ، ثم يحاول جاهدًا أن يلتمس لها الأدلة ، ولو أدى ذلك إلى تشويه الحقائق ، أو بتر النصوص ، أو استخدام أية وسيلة غير شريفة .

يقول الدكتور " حسين الهراوي " : « إني لأعلم أن المستشرقين ينقصهم في مباحثهم عن الإسلام الروحُ العلميةُ ، وإن لهم في الاستقصاء طريقة لا تشرِّف العلم ، وهى أنهم يفرضون فرْضًا ثم يلتمسون الدليل عليه ، فإذا وجدوا في القرآن ما يَهدِم نظريتهم تجاهلوه ، والتمسوا الآيات التي تناسب المعني المراد، ولا مانع من بترها إذا اقتضى الحال ، أو تحريفِ معناها حسب الرغبة » [(١)] .

« وعلى الجملة فإنه طريقة الاستقراء والاستنتاج التي يتّبعها أكثر المستشرقين تذكِّرنا بوقائع دواوين التفتيش ، تلك الدواوين التي أنشأتها

---

(١) موسوعة مقدمات العلوم والمناهج ، أنور الجندي ٤/ ٨٤٨ .

الكنيسة الكاثوليكية لخصومها في العصور الوسطى ، أي أن تلك الطريقة لم يتفق لها أبدًا أن نظرت في القرائن التاريخية بتجرد ، ولكنها كانت في كل دعوى تبدأ باستنتاج متّفَق عليه من قبل ، قد أملاه تعصبها لرأيها » [1] .

موقف المستشرقين من ربانية الإسلام مثالٌ على هذا النهج :

وقد برز هذا النهج الفاسد ـ على سبيل المثال ـ في موقف الجموع الغفيرة من المستشرقين من قضية ربانية الإسلام ، ونبوة سيدنا محمد ﷺ ، فهم يصرون على الاعتقاد بأن الإسلام ليس دينًا أوحاه الله إليه ﷺ ، وأنه ﷺ ـ في زعمهم ـ لم يوحَ إليه بشيء .

ثم طفقوا يحاولون إثباتَ هذا الاعتقاد أو بالأحرى هذا الوهم ، فقاموا بافتراض عدة افتراضات سلفا ، ثم أخذوا يلتمسون لها الإثباتات والأدلة ، فافترضوا أن النبيّ ﷺ قد لفّق الدينَ الذي جاء به وهو الإسلام من اليهودية والنصرانية ، وأخذوا يبحثون عن أدلة تثبت صلة الإسلام باليهودية والنصرانية ـ في زعمهم ـ حتى أعياهم البحث ، ومِن حظِّهم العثِر أن بحوثهم العريضة لتأييد افتراضهم السابق قد باءت بالفشل ، ولم تَثبت أمام النقد العلميّ ، وكلّلت الخيبةُ مساعيَهم الآثمةَ الخبيثةَ ، وأبطل بعضهم حجةَ بعض ، بل لم يَسْلم الأمر في بعض الأحيان من نقض أحدهم لما ذهب هو إليه من دلائل ، حتى لكأنهم يتيهون في بيداء من الخرافات أو يغرقون في بحرٍ متلاطم من التخبط والتناقص ، ونعوذ بالله من الخذلان .

---

(١) الإسلام على مفترق الطرق ، ص ٥٠ .

ومن الأمثلة على هذا المسلك ما فعله المستشرق اليهوديّ الألمانيُّ " ولهلم رودلف " في كتابه : (صلة القرآن باليهودية والمسيحية) ، حيث إن الأساس الذي قام عليه البحث هو ما اعتقده المؤلِّف من أن القرآن من عمل محمد ﷺ ونتاج فكره ، فذهب يبحث عن المصادر التي مدت النبي ﷺ بهذه المعلومات - في زعمه - فأتعبه البحث كثيرًا ولم ينته به إلا إلى افتراضات لم يجد لها دليلًا (١) .

وقد أفصح " رودلف " نفسُه عن هذا المسلك ، فقال صراحة :

« إننا لمضطرون أن نفترض أن اليهودية والمسيحية قد عرفتا السبيل على نحو ما إلى مكة ، التي يعنينا أمرُها كثيرًا لأنها موطن محمد ، وإن لم يكن ثَمّ ما يثبت أنه كان بها يهود أو مسيحيون في عهد محمد ، ومن العسير أن نظن أنه كان بها كثير منهم ، وإلا لاحتفظت لنا السير بأنباء إسهابًا مما تناهى إلينا » (٢) .

فهو يعترف أنه لم يكن في مكة أتباع لليهودية ولا النصرانية ، لأن ما وصل إلينا من أنباء ليس فيها ما يشير إلى وجود أحدٍ من أتباعهما يمكن أن يتتلمذ عليه الرسول محمد ﷺ ، ومع هذا فهو يستمر في غيّه ولجاجته ، ويحاول جاهدًا تلمّسَ ما يؤيد معتقدَه الفاسدَ ، وظنَّه السيئَ في القرآن والرسول ﷺ .. فأين هذا من المنهج العلمي ؟!! .

وقد سار على نفس المنهجِ المستشرق " ألويس اشبرنجر "، وهو مستشرق بريطاني من أصل نمساوي ، حيث كتب مؤلَّفًا عن حياة محمد ، ولم يكن له من

---

(١) راجع: صور استشراقية، د. عبد الجليل شلبي، ص ٤٩ ـ ٩٥، حيث عَرَض ـ بالتفصيل ـ لمزاعم هذا المستشرق وافتراءاته، وبيّن تهافتَها وبطلانَها .
(٢) السابق، ص ٥٠ .

همٍّ سوى البحث عن أي شيء يدعم بها ظنّه السيئ في الرسول ﷺ ، والذي كوّنه سلفا ، وأخذ يتخيل المساوئ والمعايب ، ويلصقها بالنبي ﷺ ، لدرجة أنه قال ـ فيما رواه عنه المستشرق الألماني " جوستاف بفانموللر " : « يجب على كاتب السيرة أن يقوم بالدور الخبيث لممثِّل الاتهام ، وأن يستخرجَ مساوئَ أخلاقِه [يعني : النبيَّ ﷺ] من كلمات مدْح محبّيه »[١] .

ولا عجب أن نرى المستشرقَ الألمانيَّ "رودي بارت" يقول عن كتاب "اشبرنجر" (حياة محمد): « إنه كتاب جاء مخيّبا للآمال في أكثر من ناحية ، وأنه لم يراعِ شروطَ ولا متطلباتِ التقرير العلميّ »[٢] .

ونحن نسأل المستشرقين وتلامذتهم :

هل من طبيعة المنهج العلميّ ومقتضياتِه أن يقوم الباحث بالدور الخبيث لممثل الاتهام ، وينفِّذَ هذا الدورَ ببراعة ، ويتعاملَ مع المعطيات بسوء نية ، وخبث طوية ؟!! .

وهل يقوم المستشرقون بتطبيق هذا المنهج عندما يدرسون أو يبحثون في شيء غير الإسلام ؟

إن هذا المنهج في البحث ـ بحق ـ لَمنكرٌ قبيح .

---

(١) راجع : الإسلام في تصورات الغرب ، ص ١٦١ـ١٦٣ .

(٢) السابق ، ص١٦١ هامش ، نقلًا عن : الدراسات العربيـة والإسـلامية في الجامعـات الألمانية ، للمستشرق " رودى بارت " ، ص٢٣ .

المبحث الثالث

الكتابة عن الإسلام بما يتصوره المستشرقون لا من واقع ما يعتقد المسلمون

إن من المبادئ الأولية للمنهج العلميِّ التي يجب اتّباعُها في معالجة الأمور التاريخية والعقدية ونحوها ؛ أن يُقرِّر الباحث وجهة نظر من يكتب عنهم كاملة في وضوح ، لا يكون معه مجال للغموض أو سوء التأويل ، ثم إنْ بدا له رأيٌ مخالفٌ أو نقدٌ ما ؛ ذكره على أنه رأيُه هو ، وجعَله منفصلًا عن اعتقاد من يكتب عنهم ويعرض مواقفهم وواقعهم .

ومن هذا المنطلق فإن على المستشرقين حينما يكتبون عن الإسلام أن يلتزموا الموضوعية والحقيقة في الحديث عن الدين الإسلامي ، ويصوروا ما يعتقده المسلمون في دينهم ونبيهم وقرآنهم تصويرًا أمينًا صادقًا ، فيكونوا أُمَناء في البحث ، وهم أحرارٌ بعد ذلك في أن يعتقدوا ما يشاؤون .

« غير أن هذا المنهج المنطقيَّ والطبيعيَّ في العرض قلّما يُتّبع مع الأسف ، وكثيرًا ما يحدث العكس ، فيتعرض القارئ نتيجة لذلك ـ ما لم يكن على علم ـ إلى شيء من الإيحاء برأي معين ، أو يتعرض على الأقل إلى اختلاط في الأمور يجعله عاجزًا عن التمييز بين الأصل المتوارَث لدى جماعة المسلمين، وبين رأي الكاتب .

وهكذا نجد كثيرًا من المستشرقين الذين يُحمِّلون غيرَهم أعباءَ معارفِهم الخاصة يُهمِلون ملاحظةً أوليةً للمنهج العلميِّ في معالجة المسائل التاريخيةِ،

فهم يؤكدون مثلا أن القرآن من إنشاء محمد ، ثم يذهبون مذهبًا بعيدًا في تأسيس الأحكام التاريخية والعقيدية والأدبية وغيرها على هذا التأكيد ، وسَرْعان ما ترتفع هذه بمحض الشهرة إلى مرتبه الحقائق !! » (١) .

إننا لا نطالب المستشرقين حينما يكتبون عن الإسلام بأن يعتقدوا ما نعتقد نحن المسلمين ، ولكن نطالبهم بالأمانة ؛ نطالبهم بأن يقولوا لقرّائهم أنّ إيمان المسلمين بصدق نبيهم، وربانية رسالته وقرآنه، هو الأساس الذي يقوم عليه الكيان الإسلاميُّ كلُّه .

---

(١) المستشرقون الناطقون بالانجليزية. ملحق بكتاب الفكر الإسلامي الحديث ص٤٨٣ ـ ٤٨٤.

المبحث الرابع

الكذب وعدم التحري الأمانة في النقل

ومن الأخطاء المنهجية والأخلاقية الفادحة التي اتسم بها منهج المستشرقين في الدراسات الإسلامية ؛ تعمُّد الكذبِ وقلبِ الحقائق وعكسِها، وتركِ الأمانة فيما ينقلون من نصوص ، وذلك محاولةً منهم لإثبات آرائهم الفاسدة ، ومعتقداتهم السيئة ، التي كوّنوها سلفًا قبل البحث والدراسة .

أرأيت إلى إنسان يقف في وسط جموع الناس ، والشمسُ في ضحاها، والنهارُ يقارب على الانتصاف، ومع هذا يخاطب الناسَ بملء شِدْقيه قائلًا لهم: لا تظنوا أننا في وسط النهار ، بل نحن الآن يَلُفُّنا ظلامُ الليل!

ويُصِرّ على إنكار حقيقة تجمع عليها الخلائق ! .

إن هذا لا يقوله إلا مريض أو جريء كذوب ! .

وإن من المستشرقين مَن هذا ديدنُه ؛ يأتي إلى أوثق الأخبار ، وأظهر الحقائق، وأصح الروايات والمأثورات ، ويقول بعكسها ، ويختلق من عصارة حِقده ما يخالفها ويناقضها .

جرأة المستشرق " لامانس " على الكذب في كتاباته :

وقد تبنَّى هذا المنهجَ وتبعه فيه غيرُه من المستشرقين: المستشرقُ القسيس "لامانس"، الذي كتب وتوسع في دراسة الإسلام ، وهو من المستشرقين الرهبان الذين أكل الحقدُ قلوبهم ، وملأ الغيظ صدورَهم ، وبدَت العداوة من

أفواههم .

« لقد ضاق ذرعا برؤية الإسلام ينتشر شيئا فشيئا ، ويبسط ظلَّه يوما فيوما على أفريقيا وآسيا ، ويضيق صدر القسيس " لامانس " فإذا به يَسخط على القدَر نفسِه ، ويقول : لماذا جاء القرآن فجأة ليقضيَ على التأثير اللطيف الذي كان الإنجيل قد أخذ يُحدِثه في ابن البادية ؟ » [١] .

وعودة إلى منهج الكذب وتعمُّدِ قلْبِ الحقائق إلى عكسها ، ومظاهرِ ذلك فيما كتب هذا المستشرق الحقود ، ونذكر بعض هذه المظاهر ـ من خلال ما سجّلَه الإمامُ الشيخ " عبد الحليم محمود " رحمه الله ـ فيما يلي [٢] :

١ ـ إن مما لا شك فيه أن الرسول ﷺ كان شجاعًا .

لقد كان يقود الجيوش في الغزوات ولم تَطِر نفسه شُعاعًا في أية واحدة منها، ولا يوم أُحُد ـ وقد ابتُلي المؤمنون وزُلزِلوا زلزالًا شديدًا ـ ولم تَهُله كثرة الجيوش المعادية في غزوة الخندق ، يوم أن زاغت الأبصار وبلغت القلوب الحناجر ، ولم تَرُعه النبال كالمطر يوم حنين ...

ومع ذلك فإن " لامنس " يصفه بعدم الشجاعة ، ثم يحاول أن يعمِّم الحكمَ على العرب قاطبة ، فيقول :

« زعموا أن العربيَّ يتّسم بالشجاعة ، بل لقد عللوا النجاح في الفتوح الإسلامية الأولى بما يمتاز به العربيُّ من صفات ومزايا ، ولكني أتردد كل التردد في قبول هذا الرأي المبالغ فيه كل المبالغة، إن شجاعة العرب إنما هي من

---

(1) أوربا والإسلام، ص ١٢٧.

(٢) السابق، ص ١٢٩ـ ١٣٣ باختصار .

نوعٍ غيرِ سامٍ » .

٢ ـ ومن المعروف أن الرسول كان يتحنّث في غار حراء ، ينفرد بنفسه يستجمع ذهنه وشعوره ، منصرفًا كلَّ الانصراف عن هذا العالم الماديّ ، مستغرقًا في التفكير في الله، ولكن " لامنس " يؤكد أنه كان يكره الوحدة !.

٣ ـ ومن المعروف أن الرسول ﷺ خرج من الدنيا ولم يشبع من خبز الشعير، وكان يأتي على آل محمد الشهرُ والشهران لا يوقد في بيت من بيوتهم نار ، وكثيرًا ما كان قوته التمر والماء ، وكان رسول الله ﷺ يَعْصِب على بطنه الحجر من الجوع، ومع ذلك فإن " لامنس " يصفه بأنه أَكُول، وقد كثّف جسمَه بالملذات، ولا يَذكر شيئا من صوم الرسول ﷺ لشهر رمضان ، وأنه كان أكثر ما يصوم الاثنين والخميس ، وكان يصوم حتى يُظَن أنه لا يفطر ، وقد كان الرسول ﷺ من أكثر المسلمين صومًا ، ولكن القسيس " لامانس " يثبت على عناده ! .

٤ ـ ويقول الله تعالى ﴿ إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَىٰ مِن ثُلُثَيِ ٱلَّيْلِ وَنِصْفَهُۥ وَثُلُثَهُۥ وَطَآئِفَةٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ مَعَكَ ﴾ [المزمل:٢٠] .

وقد نقلت الأخبار: أن النبي ﷺ كان يقوم الليل حتى تتورم قدماه لطول وقوفه في الصلاة، ومع ذلك فيقول "لامنس": كان محمد نؤوما، وهو لا شك يجهل أو يتجاهل أن رُوح النقد عند العرب تبلغ حد الإفراط، وأن هؤلاء لو رأَوا ما يُكذِّب خبرَ القرآن من أن الرسول ﷺ كان يقضي جزءً كبيرًا من الليل في النوم؛ لما استمروا على متابعته وتصديقه، ولما احتفظ هو بثقتهم » أ.هـ.

« ومع ذلك فـ " لامنس " جريء جرأة نادرة، وتتمثل هذه الجرأة في أنه إذا

لم يعثر خلال أبحاثه الطويلة على خبر واحد يؤيد به زعمه وهواه ؛ استغنى عن الخبر ، وثبت على مزاعمه الباطلة التي يسوقها إلى القراء برشاقة بالغة ، وأحيانًا يقول :

«إن هذا الأمر عُنِي رجال الحديث والأخبار بكتمانه »[1] .

وهكذا نرى تعمّدَ الكذب ونسج المفتريات التي ليس لها ظل من الحقيقة ، وترْكَ الحقائق التي تلوح في الآفاق كالشمس في رائعة النهار ! .

فهل هذا هو المنهج العلميُّ الحديث الذي يطبقه المستشرقون في دراستهم للإسلام وسيرة الرسول ﷺ ؟ !!

لبئس ما يصنعون .

تحريف النُقول وغياب الأمانة العلمية لدى "جولد زيهر":

ومن الأمثلة على تعمد التحريف وترك الأمانة في النقل ما ذكره الدكتور "مصطفي السباعي" من أن المستشرقَ اليهوديَّ "جولد زيهر" في محاولته إثباتَ زعمِه بأن الحكومة الأمويةَ قد وضعت الأحاديث ودعت إلى ذلك، قد تعمد التحريف فيما نقله من نصوص :

ذكر "جولد زيهر" أن معاوية قال للمغيرة بن شعبة: « لا تهمل في أن تَسُبّ عليًّا، وأن تطلب الرحمة لعثمان، وأن تسُبّ أصحاب عليٍّ وتضطهدَ من أحاديثهم، وعلى الضد من هذا أن تمدح عثمان وأهله ، وأن تُقرّبهم وتسمع إليهم ».

(١) أوربا والإسلام، ص ١٣٦.

ثم يقول " جولد زيهر " : « وعلى هذا الأساس قامت أحاديث الأمويين ضد عليّ » .

قال الدكتور السباعي :

أما قول معاوية: « وأن تسبّ أصحاب عليّ ، وتضطهدَ من أحاديثهم »، واستدلال المستشرق على أن بعض الحديث قد اضطُهد ، فها هنا مجال العبرة لمن يحسن الظن بعلم هؤلاء المستشرقين وأمانتهم .

إن أصل العبارة كما رواها الطبري : « لا تُحجِم عن شتم عليٍّ وذريته ، والترحُّمِ على عثمان والاستغفار له ، والعيبِ على أصحاب عليٍّ والإقصاء لهم ، وتركِ الاستماع منهم ، وإطراءِ شيعةِ عثمان ، والإدناءش إليهم ، والاستماعِ منهم » .

فانظر كيف حرَّف هذا المستشرق لفظ « والإقصاء لهم » بلفظ « وتضطهد من أحاديثهم » ، فإن كلمة « أحاديثهم » لا وجود لها في أصل النص ، أفرأيت كيف تكون أمانة العلماء ؟ » [(١)].

ومثال آخر، ننقله عن الدكتور السباعي أيضًا، وهو كذلك حول تحريف "جولد زيهر" للنصوص، فقد ذكر كلام المستشرق، وعقب عليه ببيان زيفه فقال:

ثم زعم " جولد تسهير " أن الزهريّ اعترف اعترافًا خطيرًا في قوله الذي رواه عنه معمر : « إن هؤلاء الأمراءَ أكرهونا على كتابة أحاديث »، وأن ذلك

---

(١) السنة ومكانتها في التشريع الإسلامي، ص ٢٠٤ ـ ٢٠٥.

يُفهِم استعدادَ الزهريِّ لأن يكسوَ رغباتِ الحكومةِ باسمه المعترفِ به عند الأمة الإسلامية .

أما هذا النص الذي نقله ففيه تحريف متعمَّد يقلب المعنى رأسًا على عقب ، وأصله كما في ابن عساكر وابن سعد :

أن الزهري كان يمتنع عن كتابة الأحاديث للناس - ويَظهَر أنه كان يفعل ذلك ليعتمدوا على ذاكرتهم ولا يتكلوا على الكتب - فلما طلب منه هشامٌ وأصرّ عليه أن يمليَ على ولده ليمتحن حفظه ، وأملى عليه أربعَمائةِ حديث ؛ خرج من عند بن هشام، وقال بأعلى صوته: « يا أيها الناس إنا كنا منعناكم أمرًا قد بذلناه الآن لهؤلاء، وإن هؤلاء الأمراءَ أكرهونا على كتابة «الأحاديث»، فتعالَوا حتى أحدثكم بها ، فحدثتُهم بالأربعمائة الحديث » .

هذا هو النص التاريخيُّ لقول الزهري ، وقد رواه الخطيب بلفظ آخر ، وهو: « كنا نَكره كتاب العلم - أي كتابته - حتى أَكرهَنا عليه هؤلاء الأمراء، فرأينا أن لا نمنعه أحدًا من المسلمين » .

فانظر كم الفرق بين أن يكون قول الزهريِّ - كما رواه " جولد تسهير " - : «أكرهونا على كتابة أحاديث»، وبين أن يكون قوله كما رواه المؤرخون: «أكرهونا على كتابة الأحاديث»، أو كما رواه الخطيب : « أكرهونا على كتاب العلم »، ثم انظر إلى هذه الأمانة العلمية، حذف « أل » من «الأحاديث »، فقلبت الفضيلة رذيلة ..

حيث كان النصُّ الأصليُّ يدل على أمانة الزهري وإخلاصه في نشر العلم، فلم يَرْضَ أن يبذل للأمراء ما منعه عن عامة الناس إلا أن يبذله للناس جميعًا،

فإذا أمانة هذا المستشرق تجعله ينسب للزهريّ أنه وضع للأمراء أحاديث أكرهوه عليها فأين هذا من ذاك ؟ [١] .

ومن صور الكذب وعدم تحري الأمانة العلمية في البحث ، جمع الشبهات المتفرقة وتلفيقها ، ومحاولة التأليف بينها ، وتقديمها على أنها صورة متكاملة متناسقة .

« ومثال ذلك ما قام به المستشرق الألماني " ولهلم هورنباخ " (الأستاذ في جامعة بون بألمانيا) من جمْع قطعٍ ونتف وشذرات من كتاب (الإصابة) للحافظ ابن حجر، ثم ينشرها على أنها كتاب (الردة) لابن حجر، الذي ألفه أبو زيد بنُ الفرات المتوفَّى عام ٢٣٧هـ، وهو فارسيُّ الأصل، وقد ضاع هذا الكتاب، فأشار ابن حجر إليه في بعض المواضع، فما كان من المستشرق "ولهلم" إلا أن جمع هذه القطعَ على أنها تراجم لأشخاص ارتدوا عن الإسلام، ولا يقوم بمثل هذا العمل إلا مغرض صاحب هوى، لأنه يخالف البحث العلمي السليم » [٢] .

(1) السابق، ص ٢٢١ ـ ٢٢٢ باختصار يسير .

(2) أساليب الغزو الفكري، ص ٢٥ .

المبحث الخامس
انتقاء المثالب وتضخيمها
وإهمال الحقائق المنصفة

سبقت الإشارة إلى أن الغالب على جمهور المستشرقين أنهم يدرسون الإسلام بسوء نية وخبث طوية ، ولذلك فإنهم يكرِّسون جهودهم للبحث عن مثالب يتخيلونها ، أوزلّات وسَقَطاتٍ حدثت في التاريخ الإسلامي ، يعرضونها ويضخمونها ، بينما يهملون الحديث تمامًا عن الإيجابيات ويتحاشون ذكر الحقائق المنصفة ، أو يذكرونها ويحقّرون من شأنها ، ويَحطّون من قدرها ، فتبدو الصورة عن الإسلام في نظر القارئ سوداء شائهة .

كتاب «مجد الإسلام» للمستشرق "جاستون فييت":

وقد كتب الدكتور " حسين مؤنس " دراسةً تتضمن عرضًا وتحليلًا ومناقشة للفكر الاستشراقي من واقع ما كتبه المستشرقون ، واختار كتابًا للمستشرق الفرنسي " جاستون فييت " بعنوان : « مجد الإسلام » .

وقد تبين من خلال تلك الدراسة بما لا يدع مجالًا للشك حقيقةُ بحوثِ أولئك المستشرقين ، وأنها مجافيةٌ للمنهج العلميّ ، وتجلّى من خلالها هذا المنهجُ الخاطئ الذي نحن بصدده ، وهو انتقاءُ المعايب ـ في ظنه ـ وتَرْكُ المعالمِ المشرقةِ والحقائقِ الناصعة .

فلقد اعتمد " جاستون فييت " على تشويه الحقائق وتزييفها ، وانتقى ما رأى أنه نقائصُ ، ووضعها تحت المجهر ، بينما أغفل جاهلًا أو متجاهلًا

الصفحاتِ المشرقةَ من تاريخ الإسلام [١] .

« وفي عرضه المجْهِد لتاريخنا فاتتْه أهمُّ الحقائق التي سيّرت هذا التاريخ :

استحوذت على اهتمامه حوادث السياسة والوقائع والحروب ، فمضى يتابع قيام الدول وسقوطَها والحروبَ ووقائعَها .

وفاته أن للعرب والمسلمين تاريخا آخرَ غير هذه السلسة الطويلة من وقائع السياسة والميادين..

فاته تاريخُ المجتمع الإسلامي : كيف تكوَّن وكيف قام ، وتاريخُ اللغة العربية كيف سارت من الخليج إلى المحيط ،وتاريخُ الحضارة الإسلامية ـ وهو في الواقع تاريخ أممنا جميعًا ـ ..

فليس بين فصول كتابِه فصلٌ واحدٌ عن انتشار الإسلام وكيف كان ؟! .

وليس هناك سطْرٌ واحدٌ عن لغة العرب وكيف أصبحت لغة الملايين ؟! .

ولا ذِكْرَ في كتابه لنواحي حضارتنا ، كلُّ ما هناك هو أنه يقف في نهاية الكتاب فيقول : إن حضارتنا ركدت بعد القرن الخامس عشر ، لأنها لم تقم على أساس حضارة اليونان ! .

وهذا أعجب ما سمعنا من مؤرخ !!! » [٢] .

(1) راجع هذه الدراسة القيمة للدكتور "حسين مؤنس" حول نقد كتاب (مجد الإسلام) للمستشرق "جاستون فييت"، ملحق بكتاب: الفكر الإسلامي الحديث، ص ٤٥٧ ـ ٤٧١.

(2) السابق، ص ٤٦١ ـ ٤٦٢ .

كتاب المستشرق "راينهارت دوزي" عن تاريخ الإسلام:

وقد سار على نفس المنهج وفي ذات الاتجاه - كذلك - المستشرقُ الهولنديُّ الشهير " راينهارت دوزي " في كتابه عن تاريخ الإسلام والذي اهتم فيه - كما ذكر المستشرق الألمانيُّ " بفانموللر " - بتتبع الإسلام عبر عصور تاريخه كلها حتى الآن [1] .

فقد تحدث " دوزي " في مجلدات مطوَّلة عن الجوانب التاريخية للإسلام ، بينما عالج الحديث عن مبادئ الإسلام وتعاليمه بطريقه مختصرة للغاية ، حيث تم الحديث عن العقيدة في صورة خطوط عريضة في صفحتين فقط ، وأما التعاليم الخُلُقية فقد جاء الحديث عنها بصفة عرَضية فقط ، وهو يعلم أن العقيدة الإسلامية هي أسمى وأوضحُ عقيدةٍ في الوجود ، وأن المنظومة الأخلاقية التي جاء بها الإسلام هي أرقى دستورٍ أخلاقيٍّ ، وأقومُ منهج سلوكيٍّ عرفتْه البشرية ، ولكن يبدو أن القصد هو إخفاءُ الصورة المشرقة لتعاليم الإسلام ، والتركيزُ في عرضه على جوانب معينه تَظهَر له ولأمثاله نقاطَ ضعفٍ ، أو جوانبَ سلبية ، فهو لا يُسجّل بقلمه إلا ما تريده نفسه الحاقدة مما يشوِّه به مبادئَ الإسلام وحقائقَه الناصعة [2] .

المستشرقون لا يعنيهم إلا ما يشوه جمال الإسلام :

إن هؤلاء المستشرقين ذوو قلوب مريضةٍ طافحةٍ بالتعصب الممقوت ، والتحاملِ الظالمِ ضدَّ الإسلام ، فلا يرى أصحابُها الأشياءَ على حقيقتها ، ومن ثَمّ تهيمن على منهج البحثِ لديهم روحٌ خبيثةٌ شريرة تكره الحقَّ ، وتعمل

---

(1) راجع: الإسلام في تصور الغرب ، ص ٢٨ وما بعدها .

(٢) السابق، ص ٣١ - ٣٢ ، وحواشي المترجم ، ص ٣٢ بتصرف .

جاهدة على إطفاء نوره ، أو حجْبِ سُمُوِّه وإشراقه ، ما استطاعت إلى ذلك سبيلا .

إنهم كمن ينظر في كتاب جميل ، فلا يعنيه إلا أن يرى النقطَ السوداءَ التي لا يتجاوز عددُها في الكتاب كلِّه أصابعَ اليد الواحدة ؛ بينما يتعامى عن رؤية ألوف السطورِ الوضّاءةِ التي تُزين صفحات الكتاب بجمال أساليبها ، وعذوبة كلماتها، وعظمة معانيها ومضمونها .

وإنهم لا يكتفون بتقمّم المثالب - في ظنهم - وحجْب الحقائق عن القارئ في كتاباتهم ؛ بل يُرهِبون مَن تُسوِّل له نفسُه أن يَعرِض الحقيقة بإشراقها ، أو يصورَ المنهجَ الإسلاميَّ تصويرًا أمينًا صادقًا .

فإن كان عالما من بني جِلْدتهم رمَوْه بالتعاطف مع المسلمين تارة، وبمخالفة المنهج العلميِّ أخرى، وبالعداء للكنيسة ثالثة، بالإضافة إلى التضييق عليه، والحيلولة بين بحوثه وبين الرواج والانتشار، وإن كان طالبًا ساقه حظُّه إلى العثِر إلى أن يتلقى العلمَ في معاهدهم ، فلا يمكن أن يُسمَح له بإنصاف الإسلام وذكر الحق مجردًا من كل هوى، وإلا تعرّض للرسوب والحرمان من الشهادة التي تقدم لنيلها غير مأسوف عليه.

وقد أشرنا إلى هذا من قبل، وذكرنا بعض الشواهد والأدلة عليه [(١)] .

وهكذا يبحث المستشرقون ويوجِّهون الدراسات ، فإن وجدوا خيرًا دفنوه،

---

(١) سبق تفصيل الكلام في هذا الأمر في ص: ٥٣ - ٥٧، وص: ١٠٠ - ١٠٣ .
ويراجع: السنة ومكانتها في التشريع الإسلامي ص ١٢ - ١٣، ١٧ - ١٨، الاستشراق والمستشرقون ص ٥١ - ٥٢، ٥٨ - ٥٩، ففيهما أمثلة واقعية على هذا الأمر .

وإن توهّموا شرًّا أذاعوه ، وصدق فيهم قولُ الشاعر :

إن يأْذَنوا رِيبةً طاروا بها فرحًا   وما همُ أذِنوا من صالح دفنوا [1] .

(١) البيت أورده القرطبيُّ في تفسيره ٩ / ١٧٧، دار الكتب العلمية، بيروت ١٤١٣هـ ـ ١٩٩٣م، ونسبه إلى قعنب بن أم صاحب، ومعنى يأْذَنوا: يستمعوا .

المبحث السادس

دراسة الإسلام من غير مصادره المعتمدة

ثم إن المنهج العلميَّ يفرض على أيّ باحث أو دارس للإسلام ، أن يرجع إلى مصادره المتعمدة ، وعلى رأسها القرآن والسنة ، فمنهما تُستقى عقائدُ الإسلام وتشريعاتُه وأخلاقُه ، وغيرُ ذلك مما يتصل بالدين الإسلاميّ .

لكن هناك جمهورًا عريضًا من المستشرقين يتبنى اتجاهًا غيرَ علميٍّ فيما يتصل بدراسة الإسلام ، فيذهب ليستقيَ معلوماته بعيدا عن المصادر المعتمدة للإسلام ، ولهذا النّهج صورٌ مختلفة ، أشير إليها فيما يلي :

أ ـ دراسة الإسلام من واقع المسلمين، أو من واقع بعض فِرقه، أو من الأمثال الشعبية الدارجة:

من المستشرقين من يَدرُس الإسلامَ من واقع المسلمين، أو من واقع فرقة معينه منهم ، كالمتصوفة أو الشيعة أو أية جماعة أخرى .

وهذا من أكبر الخطأ ؛ فإن سلوك المسلمين ـ أيًّا كانوا ـ ليس حجة أو حاكمًا على الإسلام ، بل الإسلام ـ متمثلًا في القرآن والسنة ـ هو الحجة والحكم على الجميع ، وهو المرجع وليس الأفراد .

ومن الأمثلة على هذا الاتجاه : المستشرقُ والمبشِّر الأمريكيُّ " ماكدونالد " في كتاب له تناولَ فيه جوانبَ مختلفةً عن الإسلام ، وهذا الكتاب ـ كما يقول المستشرق " بفانموللر " ـ يقوم على محاضرات ألقاها " ماكدونالد " في المعهد اللاهوتي في هارتفورد ، وغاية هذه المحاضرات أن تكون بمثابة مدخل لدراسة الإسلام الحاضر بالنسبة لهؤلاء الذين سيكونون مبشرين في المستقبل .

ثم يقول " بفانموللمر " : « والنتيجة الرئيسية لأبحاثه : هي أنه من الناحية العملية يعد كل الناس الذين يفكرون تفكيرًا دينيًّا متصوفةً ، وأنه يجب البحث عن الدين الإسلامي الحقيقي بين الدراويش »[1] .

بل إن مِنَ المستشرقين مَنْ يتصدّى للحديث عن معضلات المسائل في الإسلام، ويكوِّن فيها رأْيا مبنيًّا على الأمثال العامية الشائعة بين عموم الناس، كما فعل الفيلسوف الألماني " أوزفالد شبنجلر " .

لقد كتب "شبنجلر" كتابا ذاع صيته، أسماه "انحلال الغرب"، وقد عقد فيه فصلين عن الثقافة العربية ـ كما يذكر فيلسوف الإسلام "محمد إقبال" ـ وكان مما اعتقده وحاول إثباته نظرية "الجبر" في الإسلام ـ زعموا ـ ، وكان مما بنى عليه آراءه في هذا الأمر الأمثال العامية الشائعة، وفي هذا يقول "إقبال":

« وبدلا مِن أن يتلمّس الهدى من تاريخ التفكير والتجربة في الإسلام؛ آثر أن يُقيم حُكمَه على أساس معتقدات العامة في بداية الزمان ومنتهاه .

تصوَّروا رجلا فياضَ المعرفة يلتمس الدليل على الجبر المزعوم في الإسلام مِن عبارة مثل: " حُكْمِ الزمان "، أو كل شيء له أوان" »[2] .

وهكذا يجافي هؤلاء المستشرقون مسلمات وقواعدَ منهجِ البحث العلميّ، حين يتجهون للبحث عن الدين الإسلامي الحقيقيِّ بين بعض طوائف

(١) الإسلام في تصورات الغرب، ص ٤٥ .

(٢) تجديد التفكير الديني في الإسلام، محمد إقبال، ص ١٧٠ ـ ١٧١، ترجمة عباس محمود، دار الهداية، ط الثانية ١٤٢١هـ ٢٠٠٠م .

المسلمين، ويتركون البحث عن الدين الحقيقي في مصدريه الرئيسين ، وهما القرآن والسنة .

ب ـ الاعتماد على ما كتبه المستشرقون غير المنصفين:

وكثيرٌ من المستشرقين يَرجِع في دراسته للإسلام إلى ما كتبه غيرُهم من المستشرقين المعادين له، ويجعل كتاباتهم وآراءهم المصادرَ المعتمَدة ، فهو ينقل عن ما كتبه أمثال : "جولد زيهر"، و "شاخت" و "موير" وغيرهم، وهكذا يتناقل هؤلاء خلفا عن سلف ويروجون الشبهات والأباطيل، فتصبح بمرور الوقت والشهرة حقائق مسلَّمة، والحال أنها في الأساس لا صلة لها بمصدر علميٍّ معتمد، فضلًا عن أنها صادرة عن كُتّابٍ تطفح قلوبهم بالحقد والكراهية للإسلام، وتَعِجّ كتاباتهم بالافتراء والتحامل، والتحريف المُتعمَّدِ للحقائق.

وهذا شاهدُ عِيانٍ قد زار أكثرَ جامعاتِ أوربا عام ١٩٥٦م ، واختلط بالمستشرقين فيها، وتحدث إليهم وناقشهم ، وهو الدكتور مصطفي السباعي ـ رحمه الله ـ، ونأخذ مما كتبه عن هذه الرحلة شهادة على ما نحن بصدد الحديث عنه، حيث قال:

وفي جامعه أكسفورد وجدنا رئيس قسم الدراسات الإسلامية والعربية فيها يهوديًّا يتكلم العربية ببطء وصعوبة ، وكان أيضًا يعمل في دائرة الاستخبارات البريطانية في ليبيا خلال الحرب العالمية الثانية ، وهناك تعلم العربية العامية ، وتلك هي مؤهلاته التي بوأته هذا القسم ، ومن العجَب أني رأيت في منهاج دراسته التي يلقيها على طلاب الاستشراق: تفسير آيات من القرآن الكريم من « الكشاف » للزمخشري، ـ (إي والله وهو لا يُحسِن فَهْمَ عبارة بسيطة في جريدة

عادية) ـ ودراسة أحاديث من البخاري ومسلم، وأبواب من الفقه في أمهات كتب الحنفية والحنابلة، وسألْتُه عن مراجع هذه الدراسات ، فأخبرني أنها من كتب المستشرقين أمثال: "جولد تسهير"، و "مرجليوث" و "شاخت"، وحسبك بهؤلاء عنوانًا على الدراسات المدخولة المدسوسة الموجهة ضد الإسلام والمسلمين [1] .

ج ـ الاعتماد على الأساطير والحكايات الشائعة :

بل ومن أعجب العجب أن من المستشرقين مَن لم يكن له مرجع في الكتابة عن الإسلام إلا الأساطير والحكايات الشائعة .

وتاريخ الحركة الاستشراقية مكتظٌّ بعشرات بل مئات الخرافات والأساطير التي نُسِجت حول الإسلام ورسوله ﷺ ، وخاصة في العصر الوسيط، وهي أساطير لا يمكن أن يكون لها ظل من الحقيقة ولا أثرٌ من وجود إلا في عقول مخترعيها ، لا سيما في ذلك العصر .

وقد عرض المستشرق "بفانموللر" في كتابه (موجز في أدب علوم الإسلام) لطائفة من تلك الأساطير والخرافات التي سادت في القرون الوسطى ، وظلت بصماتُها وآثارها إلى الآن تسري في تيار الاستشراق .

ومن بين تلك التصورات الأسطورية التي كانت منتشرة ـ كما ذكر "بفانموللر " ـ القول بأن المحمديين لم يكونوا يُجِلّون محمدًا لمجرد كونه نبيَّهم ومؤسّسَ دينِهم ، بل كانوا يعبدونه بوصفه يمثّل الألوهية ، وبالإضافة إلى ذلك وصْفُ دينِ محمد ـ على النقيض تماما من الحقيقة التاريخية ـ بأنه دين الشرك ،

---

(١) السنة ومكانتها في التشريع الإسلامي، ص ١٤، الاستشراق والمستشرقون، ص ٥٣.

وتعدُّدِ الألوهية ، وقد اتُّهِم المحمديون أيضًا ـ دون سندٍ تاريخيٍّ ـ بأنهم يمارسون عبادة التماثيل بطريقة فظة .

ثم يقرر " بفانموللر " أن البيزنطيين هم أول من أذاع في الغرب معظم الأساطير عن محمد والإسلام ، وعنهم أخذ الغرب تلك الأساطير [(١)] .

ومن الأساطير الجنونية والخرافات المضحكة ، التي ذكرها "بفانموللر " أيضًا : تلك التي تتعلق بوفاة النبيّ ﷺ ؛ « فالخنازير قد التهمته وهو في حالة سكر! ولهذا السبب أصبح أكل لحم الخنزير محرمًا لدى المحمديين » [(٢)] .

قاتل الله أولئك المفترين الأفاكين .

وهناك « الخرافة التي انتشرت انتشارًا واسعًا في العصر الوسيط ، والتي تقول بأن محمدا كان في الأصل كاردينالا رومانيا يسعى للحصول على تاج البابوية ، ولكنه عندما فشل في الحصول عليه أسس طائفة المحمدية ، وصرف آلافا كثيرة من النفوس عن المسيحية » [(٣)] .

وقد سبق إيراد ما اعترف به (جيبير النوجنتي) من أنه لا يعتمد في كتاباته عن الإسلام على أية مصادر مكتوبة ، وأشار فقط إلى آراء العامة ، وأنه لا يوجد لديه أية وسيلة للتميز بين الخطأ والصواب ، وأنه قال مبررًا هجومه وافتراءه على الإسلام ونبيه ﷺ :

---

(١) الإسلام في تصورات الغرب ، ص ١١٧ ــ ١١٨، وهو فصول مترجمة من كتاب «موجز في أدب علوم الإسلام»، للمستشرق " بفانموللر " .

(٢) السابق، ص ١٢٢.

(٣)الإسلام في تصورات الغرب ، ص ١٢٥ـ ١٢٦.

« لا جناح على المرء إذا ذكر بالسوء من يفوق خبثُه كلَّ سوء يمكن أن يتصوره المرء » [١] .

وهكذا نرى أولئك المستشرقين يجافون مسلمات المنهج العلميّ حين يستمدون معلوماتهم عن الإسلام من غير مصادره المعتمدة تارة ، ومن الأساطير والخرافات التي لا أصل لها تارة أخرى .

(١) انظر ص ٢٢ .

المبحث السابع

دراسة الإسلام بعقلية أوربية مسيحية

ثم إن جمهور المستشرقين يدرسون الإسلام بحسب العقلية الأوربية المسيحية ومقاييسها ، دون أخذٍ في الاعتبار طبيعة الشرق الإسلاميّ وعاداته وظروفه ، بل ومتجاهلين خصائص الدعوة الإسلامية وطبيعة الرسالة التي بَعث اللهُ بها رسولَه محمدا ﷺ .

تصوير المستشرقين لأشخاص السيرة حسب منطقِهم الغربيِّ وخيالهم العصري :

وقد تجلى هذا المنهجُ الاستشراقيُّ في بحوث المستشرقين عن السيرة النبوية والتاريخ الإسلامي ، حتى لكأن المرء يُحِس - لولا الأسماء العربية - أن الأشخاص الذين يتكلم عنهم المستشرقون في بحوثهم أشخاصٌ أوربيون ، ولا يُستثنَى من هذا شخص الرسول ﷺ .

يقول المستشرق المهتدي " إيتين دينيه (ناصر الدين) "، - في معرض حديثه عن كتابة المستشرقين لسيرة النبي ﷺ من خلال هذا المنهج - :

« فإنا نَلمَس من خلال كتاباتهم :

محمدًا يتحدث بلهجة ألمانية إذا كان الكاتب ألمانيًّا .

ومحمدًا يتحدث بلهجة إيطالية إذا كان الكاتب إيطاليًّا .

وهكذا تتغير صورة محمد بتغير جنسية الكاتب ، وإذا بحثنا في هذه السيرة عن الصورة الصحيحة فإنا لا نكاد نجد لها من أثر ! .

إن المستشرقين يقدمون إلينا صورًا خيالية أبعدَ ما تكون عن الحقيقة ! .

إنها أبعد عن الحقيقة من أشخاص القصص التاريخية التي يؤلفها أمثال "ولتر سكوت "، و " اسكندر ديماس "، وذلك أن هؤلاء يصورون أشخاصًا من أبناء قومهم ، فليس عليهم إلا أن يحسبوا حساب اختلاف الأزمنة .

أما المستشرقون فلم يُمكِنهم أن يُلبِسوا الصورة الحقيقة لأشخاص السيرة ، فصوَّروهم حسب منطقِهم الغربيِّ وخيالهم العصري » (١) .

ولنتأمل في دراسة المستشرق القسيس " لا مانس " للتاريخ الإسلامي بهذا المنهج الفاسد :

« إنه يحدثنا عن مكة والمدينة في عهد الرسول [ﷺ] ، فيعطينا صورة أوربية حديثة ، وكأنه يحدثنا عن باريس ولندن ، حينما يتحدث في جزيرة العرب عن : الحملة الصحافية ، عن : الماليين في بنك مكة ، مليار النقابة القرشية ، الضريبة على الدخل ، طبقة العمال ، إبلاغ الرسالة إلى محل الإقامة ، ديوان ذي الجلال ، وزارة الله ، إلى آخر هذه التعبيرات التي تُفسِد الصورةَ ولا تُصوِّر الحقيقة » (٢) .

الحكم على الإسلام بمقاييس التصور الغربي لطبيعة الدين:

ومن مفاهيم العقليةِ الأوربيةِ المسيحيةِ وتَصوّراتِها : أن الدين لا صلة له بالسياسة ، وسائرِ شئونِ الناس وأمورِهم المعاشية ، وأنه مقصورٌ على ما يخصُّ وينظِّم العلاقةَ بين الفرد وربه ، وقد تأسس على هذا المفهوم تبنِّي الأوربيين

(١) أوربا والإسلام ، ص ١١٨.
(٢) السابق ، ص ١٣٦.

للعلمانية ـ التي تعني فصلَ الدين عن الحياة ـ نظرية وتطبيقا .

وهذا المفهوم العلمانيُّ لديهم إنما هو من منطلق اعتقادِهم أن المسيح ـ عليه السلام ـ لم يتدخل في السياسة ، وقال ـ بحسب ما ترويه أناجيلهم ـ :

« أُعطوا ما لقيصرَ لقيصر ، وما لله لله » (١) .

وقال : « مملكتي ليست من هذا العالم » (٢) .

ويأتي المستشرقون ـ وهم جزء من تلك البيئة الأوربية ومطبوعون بعقليتها ـ فيقومون من خلال دراستهم للإسلام ، وبحثهم في قضاياه بأن يطبقوا هذه المفاهيمَ وأمثالَها عليه ، ويقيسوا تعاليمَه عليها ، ويزِنوه بها ، ثم يحكموا عليه ، فيصير الإسلامُ في نظرهم في موضع الإدانة لمخالفته مقاييسَ العقلية المسيحية ، فيما يتعلق بطبيعة الدين عندهم وتصورهم له ، ويكون النبي ﷺ ـ عندهم ـ مُعابًا إذا أتى بشريعة تجعل السياسة جزءًا من الدين .

ومن الأمثلة على هذا المنهج ما صنعه المستشرق الألماني " أوجست موللر " في دراسته عن الإسلام والرسول ﷺ .

« فهو يعيب على محمد أنه لم يدرك إلا جانبًا واحدًا فقط من الطبيعة الإلهية ، وأنه ينقصه تمامًا مفهومُ القداسة بوجه خاص ، وبذلك ينقصه الأساس لتشكيلٍ عميقٍ بطريقةٍ ما لفكرةِ نظامٍ أخلاقيٍّ للحياة ، ثم يَصدِمُنا لدى محمد في المدينة على وجه الخصوص أنه قد حوّل الدينَ إلى السياسة في تزايد مستمر، فقد استعان بالكذب لكي يَفرض الحقيقة، وربما كان ذلك في البداية دون وعي، ثم

(١) متى ٢٢/ ٢١ ، ومرقس ١٢/ ١٧، ولوقا ٢٠/ ٢٥ .

(٢) يوحنا ١٨/ ٣٦ .

بنِصف وعي ، وفي النهاية بوعي كامل » (١) .

لقد كان على هذا المستشرق وأمثاله مراعاةُ أنّ للإسلام خصوصيتَه وطبيعتَه التي لا تعرف الفصلَ بين الدين والسياسة ، كما أراد له مُشرِّعُه ومُنْزِلُه سبحانه وتعالى ، وأنّ الأفهامَ المسيحيةَ الأوربيةَ التي تأثّر بها المستشرقون ، قد جاء الإسلام ليصححها ؛ فأتى بشريعة تتناول شئون الناس المعاشيةَ والمعاديّةَ ، وأنه لن ينصلح حال البشر إلا إذا ساروا في جميع شئونهم وفقَ منهجِ خالقِهم ، الذي شرع لهم ما يكون به فلاحهم وعزهم في الدنيا والآخرة .

وبعد : فقد كانت تلك ملامحَ منهجِ البحثِ الاستشراقيِّ في الدراسات الإسلامية ، وحُقَّ لنا بعد الذي ذكرنا أن نقول مع أستاذنا الكبير الشيخ " محمد الغزالي " رحمه الله :

« إن الاستشراق كهانة جديدة تَلبَس مُسوحَ العلمِ والرهبانيةِ في البحث ، وهي أبعد ما تكون عن بيئة العلمِ والتجرد .

وجمهرة المستشرقين مستأجَرون لإهانة الإسلام ، وتشويه محاسنِه ، والافتراءِ عليه » (٢) .

---

(١) الإسلام في تصورات الغرب ، ص ١٦٨ .

(٢) دفاع عن العقيدة والشريعة ، محمد الغزالي ، ص ٨ ، دار الكتب الحديثة ، القاهرة ، ط الثانية ١٣٨٣هـ ١٩٦٣م .

المبحث الثامن

وقفة مع المغالين في تقدير المستشرقين

وبعد ما ذكرنا من واقع منهج البحث وملامحه لدى المستشرقين ، وما أوردنا من حقائق موثَّقةٍ بهذا الشأن ، يتساءل المرء : هل يحقُّ لأحدٍ أن يُصِرّ على إضفاء القداسة والنزاهة المطلَقة على بحوث المستشرقين ، وعلى أنّ تمسّكهم بالمنهج العلميِّ القويمِ مسألةٌ من المسلَّمات التي لا يتطرق إليها شك ؟! .

إسراف "العقيقي" في الثناء على المستشرقين وتقديرهم:

إن هناك بعضَ الباحثين العرب يجعل التزام المستشرقين بالمنهج العلميِّ في بحوثهم إحدى اليقينيات التي لا تحتمل الجدل ، مثل ما كان من " العقيقيِّ " في كتابه « المستشرقون » ؛ حيث يقرر أن المستشرقين هم أولو منهج علميٍّ ، عرَفوه والتزموا به ، ويقول ـ في معرض حديثه عن المنهج العلميِّ ـ :

« وقد التزمه علماء الغرب في كلِّ مناهجهم التزامًا شديدًا ، وطبقة المستشرقون على علومنا وآدابنا وفنوننا تطبيقًا صحيحًا » (١).

ولا يُقِرّ أن هناك من هو صاحب دخيلة متحاملة، ونيّةٍ غيرِ سليمة، إلا مِن باب الافتراض الجدليّ، فيقول: « إنا لنفرض جدلًا أن جمهرة المتصدين لتراثنا من شرقيين ومستشرقين لا تخلو أنفسهم من هوى ولا تبرأ من اعتلال ... » (٢).

---

(١) المستشرقون ٣/ ٥٩٨ .

(٢) السابق ٣/ ٦٠٢ .

بينما يؤكد أن المستشرقين ـ فيما عدا نفرًا قليلًا منهم ـ حينما يبحثون فإن أحدهم « يحارب هواه أو حتى يسالمه ، فيأخذ نفسه بالمنهج العلميّ ، فتراه يقطع الأمصار ، وينفق الثروات ويفني العمر بين المخطوطات والآثار والمصنفات ، مطّلعًا مستنطقًا مقارِنًا ، فلا يتقدم بقضية إلا وهو يسوق لها الأسانيد والحجج التي تحسم كل خلاف وتنفي كل ريب » (١) .

ويقول: « ونَيَّفَت آثار الكثيرين على المئات من أمثال : " إدوارد براون "، و " آثين بالاسيوس "، و " بروكلمان "، و " كراتشكوفسكي "، و " سارتون "، و " ماسنيون "، دون أن يُسِفَّ واحدٌ منهم في واحدة منها ، وقد أكبرها العلماء في الشرق والغرب » (٢) .

مناقشة هادئة لهذه الدعوى :

والحقيقة أن في هذا الكلام نظرًا، بل ولا يخلو من مجازفة، فإن فيما ذكرنا من ملامح منهجِ البحث لدى المستشرقين في الإسلام ما يدحض كلام العقيقيّ، ويجعله ـ في أحسن تقدير ـ كما قلنا محلَّ نظر .

قومٌ منهم مَن يكذب ، ومنهم من يفترض سلفا الفروض ، ويتلمس التأييد لها بالباطل ، ومنهم من يُزَوِّر في النصوص ويحرِّف النُّقول ، ومنهم من يتقمّم المثالب وما يتوهمه معايب، ثم لا يدرسون الإسلام من مصادره المعتمدة ... أفبعد هذا يقال بأن التزامهم بالمنهج العلميِّ النزيه ، وتطبيقَهم له حقيقةٌ لا

(١) المستشرقون ٣/ ٦٠٢ .

(٢) السابق ٣/ ٦٠١ .

ريب فيها ؟! .

ويقال بأن أحدهم لا يتقدم بقضيةٍ ولا ينهض بدعوى إلا وبيده الأدلة والحجج والأسانيد التي تقطع كل خلاف ، وتنفي كل ريب ؟! .

وإن " ماسنيون " و " بروكلمان " وأمثالهما فيما خلّفوه من آثار لم يُسِفَّ واحدٌ منهم في واحدة منها ؟! .

وهل ما عليه جمهرة المستشرقين من اعتقاد بشرية القرآن الكريم، وإنكار نبوة محمد ﷺ، وجحد ربانية الإسلام، والقول بأنه مستمَدٌّ من اليهودية والنصرانية ... وغير هذا من آرائهم السيئة الجائرة في حق الإسلام وكتابه ونبيه ﷺ؛ هل كل هذا مما يخلو من الإسفاف، ويتسم بالموضوعية والمنهجية العلمية، ويقوم على الأسانيد والحجج التي تحسم كل خلاف وتنفي كل ريب ؟!! .

إن كلام العقيقيّ قد يصدق في بعض جوانبه على دراسات المستشرقين في غير الإسلام ، أمّا أن يُوسَم به منهج المستشرقين في الدراسات الإسلامية فهو في نظرنا مرفوض ، وهناك مئات الأدلة على عدم صحته ؛ منها ما ذكرنا ، ومنها ما سيأتي ذكره في الفصل التالي .

وتبقى الحقيقة الثابتة، وهي أن المستشرقين حتى الآن لم يكونوا محايدين متجردين للحق، بعيدين عن الهوى في بحوثهم حول الإسلام، وأنهم إلى الآن لم يستطيعوا إلجامَ نزواتِ النفوسِ بنظرات العقول، ولم يتمكنوا من أن يربأوا بأنفسهم عن الإسفاف، والسقوط في مستنقعات التعصّب الممقوت، والحقد الأعمى.

كلام الأستاذ " أمين الخولي " مردودٌ عليه :

ويحتج العقيقيُّ لغلوّه في تقدير المستشرقين والإشادة بأياديهم البيضاء على تراثنا ، وإحاطتهم بهذا التراث ، بما كتبه الأستاذ " أمين الخولي " بعد تمثيل الجمهورية العربية المتحدة في مؤتمر المستشرقين الدولي الخامس والعشرين ، حيث قال " الخولي " :

« قدمت السيدة " كراتشكو فسكي " بحثًا عن نوادر مخطوطات القرآن الكريم في القرن السادس عشر الميلادي ، وإني أشكّ في أن الكثيرين من أئمة المسلمين يعرفون شيئا عن هذه المخطوطات ، وأظن أن هذه مسألة لا يمكن التساهل في تقديرها » [1] .

ونحن نقول : من أين للسيدة " كراتشكوفسكي " وأضرابها من المستشرقين الأوربيين بتلك المخطوطات النادرة وأمثالها ؟

هل كان مقَرّ تلك المخطوطاتِ ومهدُها برلين وباريس ولندن ، وغيرها من مدن أوربا ؟

أم أنها استقرت في مكتبات الغرب بفعل الفاعلين ؟! أقصد السارقين ! .

ثم ألم يُعمِل الأستاذ " الخولي " ومعه " العقيقي " شيئا من التفكير في السبب الذي لأجله لا يعرف كثيرون من أئمة المسلمين شيئا عن تلك المخطوطات؟

إن السبب ببساطة شديدة هو أن الأوربيين كانوا يجوبون بلاد العالم

---

(١) المستشرقون ٣/ ٥٩٨ ، نقلًا عن مجلة الشبان المسلمين ، عدد ديسمبر ١٩٦٠م .

الإسلامي ، لا سيما عندما كانت تئنّ تحت قيود المستعمر الغربيّ ، ويأخذون كل ما تقع عليه أيديهم من نفائس تراثنا بأية طريقة ؛ مشروعة كانت أم غير مشروعة ، فسَطَواْ على خزائن الكتب والمخطوطات وانتهبوها ورحّلوها إلى بلادهم ، ثم مَنُّوا علينا بعد ذلك بنشرها ، وأنهم حفظوها لنا .

وخير مثال على هذا: المستشرقون الذين كانوا مصاحبين للحملة الفرنسية على مصر ، فقد سرقوا كلَّ نفيسٍ من الكتب والمخطوطات التي كانت تزخر بها القاهرة [١] .

تلك حقيقة علاقة الاستشراق بالمنهج العلمي في دراسته للإسلام، وذلك واقع تعامله مع تراثه.

(١) راجع: رسالة في الطريق إلى ثقافتنا، للعلامة محمود محمد شاكر، ص ١٤٢ـ ١٤٦، ففيه تفصيل وتجلية لهذا الأمر، وتدليل عليه.

الفصل الخامس

صور من افتراءات

المستشرقين على الإسلام

تمهيد

المبحث الأول

النيل من شخص الرسول ﷺ

المبحث الثاني

الطعن في ربانية الإسلام وعالميته

المبحث الثالث

نقض دعوى المستشرقين أن قصص القرآن الكريم مأخوذ من العهد القديم

تمهيد

لقد وضع المستشرقون أيديَهم في يد كلِّ مناوئٍ للإسلام، وكاره له، فتعاوَنوا مع الاستعمار ، وآزروا الصهيونية ، وكانوا ـ ولا يزالون ـ الخادمَ المطيعَ للحركة التبشيرية الصليبية، فلم يضنُّوا على أعداء الإسلام برأي أو مشورة، بل سخَّروا علمَهم وبحوثَهم لخدمة أولئك الخصومِ وأمثالِهم جميعًا، ولتحقيق أهدافهم العدائية .

وقد ذكرْنا ـ فيما سبق ـ أدلةً دامغةً على ما بين الاستشراق وخصوم الإسلام من علاقة وطيدة متناغمة ، وذلك في الفصل الثاني ، الذي بسطنا الحديث فيه عن دوافع الاستشراق .

لقد أسهم الاستشراق ـ ولا يزال ـ في شن حرب فكرية ضَروسٍ على الإسلام ، وتأجيجِ نارِ حربِ الكلمةِ أو الغزو الفكريّ ضد الإسلام وأهله، بل لا نكون مبالغين إذا قلنا إن الاستشراق هو الذي تولى كِبْرَ هذه الحرب الفكرية، فكان بمثابة المصنع الذي يصنع الشبهات، وينسج الأباطيل والمفتريات التي بها وعليها تقوم الحرب الفكرية، التي تستهدف تقويضَ بنيانِ الإسلام، وصرفَ الناس عنه، وإضعافَ شأنه في نفوس أتباعه، والحيلولةَ بين المسلمين وبين اتخاذِه منهجَ حياة، ونظامًا يطبِّقونه في جميع أمورهم المعاشيّة والمعاديّة، ما يُؤدِّي إلى محوِ شخصية الأمة الإسلامية، وإذابة كيانها .

ولقد استهدفت حملاتُ الاستشراق الطائشةُ كلَّ ما يمُتّ إلى الإسلام بصلة، والنيلَ منه، فكانت هناك حملات للنيل من ربانية الإسلامِ ذاتِه، والنيلِ من شخص الرسول ﷺ ومحاولةِ تجريدِه من صفة النبوة ، والاصطفاء الإلهي

له ﷺ للرسالة، وكذلك حملاتٍ للنيل من القرآن الكريم، وادعاءِ بشريته، والتشكيك في السنة النبوية ، والنيلِ من عقيدة الإسلام وشريعتِه وتاريخِه ورجاله ... وغير ذلك ، وقد سوّدُوا من أجل ذلك آلافا من الكتب وملايينِ الصحائف ، واقترفوا الزور والبهتان ، واجترحوا القبائح والآثام ، يصدون عن سبيل الله ويبغونها عوجًا .

وجدير بالذكر أننا لن نعوِّل كثيرًا على ما نسجه المستشرقون القدامى من مفتريات وأباطيل في العصور الوسطى ، وإنما سنركِّز على آراء ومفتريات المستشرقين المحدَثين ، وهذا لِغرضٍ مقصود ؛ حيث يَدّعي البعض أن المستشرقين المحدَثين الذين جاؤوا في العصر الحديث ؛ قد تحرروا من تلك الروح العدائية التي هيمنت على الاستشراق فيما مضى ، فلزم أن نبيِّن أن الحقيقة غيرُ ذلك ؛ فإن مستشرقي اليوم هم مستشرقو الأمس ، وإن الحملاتِ العدائيةَ التي شنها الاستشراق على الإسلام قديمًا لا تزال أخواتُها تُشنُّ على الإسلام اليوم ، وإن ذات الأباطيل التي قذفها الاستشراق صوْب الإسلام سلفا هي بعينها التي يستخدمها الاستشراق حديثًا ، وهذا ما يتأكد من خلال إيراد مفتريات المستشرقين المحدثين ، وحملاتهم الظالمة الطائشة على الإسلام والمسلمين .

وهذه صور منها، نوردها ثم نَكِرّ عليها بما يدحضها ويكسرها، ويثبت بطلانها ـ بعون الله ومشيئته ـ وذلك على النحو التالي :

المبحث الأول

النيل من شخص الرسول ﷺ

لقد حرَص المستشرقون على أن ينالوا من شخص الرسول ﷺ ، ويشوِّهوا صورته عليه الصلاة السلام ، ويشككوا في نبوّته وجدراته ﷺ بأن يكون رسولَ ربِّ العالمين ، حيث توهموا أنهم إن أفلحوا في هدم تلك الشخصية الربانية العظيمة ـ كما يحلمون ـ فسوف ينهار الدين الذي جاء به ، وينهدم الصرح الذي أسسه ، ويصبح محل نظر ، ما دام أن الرجل الذي كان محورَ هذا الدينِ وداعيتَه ، قد ثبت عدمُ أهليته وصلاحيته ـ حاشاه ﷺ ـ لأن يكون نبيا أو رسولًا .

ولهذا فقد راحوا ينسجون كثيرًا من الأباطيل والمفتريات حول شخص الرسول ﷺ ، ومنها :

أولا: وصم النبيِّ ﷺ بالشهوانية:

حاول كثير من المستشرقين أن يصوروا النبي ﷺ بأنه كان أسيرًا لشهوته الجنسية ، وليس له همٌّ إلا إرواءها وإشباعها بالطرق المشروعة وغير المشروعة ـ زعموا ـ .

ففي كتاب له بعنوان « محمد »، كان يُدرّس ـ مع الأسف ـ حتى وقت قريب في الجامعة الأمريكية بالقاهرة، يقول المستشرق الفرنسي "مكسيم رودنسون" في ص٥١ :

« كان من سوء الحظ أن شعر (أي: محمد) تجاه خديجة بالعاطفة الطبيعية،

التي أرواها بعد ما تقدمت به السن مع النساء الشابات والمحبوبات في حريمه».

ونلاحظ هنا استخدام الكتاب للفظ Procure ومن معانيه : يعمل قَوّادًا ويجلب النساء للزنا ، مع إمكانية استخدام ألفاظ أخرى ، وكذلك استخدام لفظ الحريم ، لكنها الدناءة تأبى إلا أن تختار ألفاظها .

ولا ينسى المؤلف في نهاية الفقرة أن يقترح أن حرمان النبي ﷺ من أمه في سن مبكرة ، هو ما دفعه لحب هذه « المرأة العجوز » - في إشارة واضحة إلى عقدة أوديب - (١) .

وفي ص ٥٥ يقول " رودنسون " :

« كان محمد مرتبطًا بأم أولاده بروابط أقوى من أي وثيقة ، رغم ما عرفناه من ميوله الغرامية بعد ذلك ، ويصعب أن نتخيل أوقاتًا مرَّ بها دون أن يكون مستحِقًّا للعبارة الإنجيلية التي كان سماعها سيفزعه لو سمعها ، وهي أنه : «ارتكب الزنا في قلبه » .

... كان عليه أن يتجنب الإغراءات عدة مرات ، ربما ببساطة خادعة ، ولكن بصرف النظر عن بساطة أو صعوبة الأمر فإننا نعرف كم كلفه التغلب على نداء الغريزة ، الذي ربما يكون قد نجح في التخلص منه » (٢) .

ويتجرأ المستشرق الفرنسي " دينيه ديدرو "، وهو من مستشرقي القرن الثامن عشر ، في كتابه « رسائل إلى صوفي فولاند » ؛ يتجرأ على القول بأن

---

(١) الفرنسي السافل في الجامعة الأمريكية ، مقال بجريدة الشعب ، مرجع سابق .

(٢) السابق .

محمدًا كان أفضلَ صديق للنساء ، وأكبر عدوٍّ للعقل [1] .

ويصف المستشرق الفرنسي « هامر بورجشتال » في كتابه « صور لحياة الحكام المسلمين العظام »النبي ﷺ بـ « ضلال شهوانيته » [2] .

وأمثال هذا كثيرٌ مما يَسُوء ذِكرُه ، ونعوذ بالله من اعتقاده، ونبرأ من معتقديه، وقد ذكرنا هنا ما ذكرنا للاستشهاد فقط على ما نحن بصدده ، ومن باب أن رواية الكفر ليست كفرًا ، ـ كما ذكر علماؤنا رحمهم الله ـ .

وأما ما زعمه أولئك الضالون وذكروه من التطاول على مقام النبي ﷺ ، ومحاولة إلصاق التهم الرخيصة به ﷺ فمحض افتراء ، ولا يمتُّ إلى الحقيقة بأية صلة ، ولا يستند على شيء من دليل ، أو أَثَارةٍ من علم .

فمن أين جاء الكاذب " رودنسون " بما جاء به من أن النبي ﷺ كان غارقًا في أوحال الزنا ، وأنه حتى بعد ما تزوج كان صاحبَ ميولٍ غرامية ، وأنه ﷺ « ارتكب الزنا في قلبه » ، وأن هناك شكًّا في أنه ﷺ قد نجح في التغلب على نداء الغريزة والتخلّص منه ، وإخماد نار الشهوة ، وإطفاء لهيبها ؟؟! .

ومن أين جاء المُفترِي " ديدرو " بأن النبي ﷺ كان أفضلَ صديقٍ للنساء ـ بما تعنيه كلمة (صداقة) بين الجنسين في العالم الغربيِّ ـ ، فالصداقة بين الرجال والنساء لدى الأوربيين تعني علاقة عشق وغرام ، تُستباح بها المعاشرة الجنسية بين أي رجل وامرأة أجنبيين ؟؟! .

هل لما افترَياه من مَرجع ؟! .. كلا .

---

(١) الإسلام في تصورات الغرب ، ص ١٤٣.

(٢) السابق ، ص ١٢٥.

إن المراجع العلمية التاريخية التي بين أيدينا ، والمتعلقةَ بسيرته ﷺ خاصة ـ وهى معروفة جيدًا لدى المستشرقين وأضرابهم ـ لَتُسطِّر صفحة بيضاء نقية مشرقة للنبي ﷺ ، في مراحل حياته كلِّها ، سواء منها ما كان قبل البعثة ، أم ما كان بعدها ، وتُخبر بوضوح وصراحة أنه ﷺ كان مثالًا لا نظير له في الطهر والعفة والأمانة ، وكرم الشمائل ، وهو لهذا كان موضع ثقةِ وتقديرِ معاصريه ، بمن فيهم أعداؤه ﷺ .

فلقد اجتمعت كلمة قريش ، واتفقت آراؤهم على تحكيم النبي ﷺ بينهم ، في مشكلةٍ استعْصت عليهم ، وكادت أن تُسَلَّ من أجلها السيوف ، وهي مشكلة رفع الحجر الأسود ووضعه في مكانه ، وقت أن كانوا يقومون بتجديد بنيان الكعبة .

روى ابن إسحاقَ أن أبا أمية بنَ المغيرةِ بنِ عبدِ الله بنِ عمرَ بنِ مخزوم ـ وكان عامَئِذٍ أسَنَّ قريش كلِّها ـ قال : يامعشر قريش اجعلوا بينكم فيما تختلفون فيه أولَ مَن يدخل مِن باب هذا المسجد يقضي بينكم فيه ، ففعلوا ، فكان أول داخل عليهم رسول الله ﷺ ، فلما رأَوْه قالوا : هذا الأمين ، رضينا ، هذا محمد؛ فلما انتهي إليهم وأخبروه الخبر ، قال ﷺ : هَلُمّ إليَّ ثوبا ، فأُتِيَ به ، فأَخذ الرّكنَ فوضعه فيه بيده ، ثم قال : لِتأْخُذْ كلُّ قبيلةٍ بناحية من الثوب ، ثم ارفعوه جميعًا، ففعلوا حتى إذا بلغوا به موضعه ؛ وضعه هو بيده ثم بَنَى عليه .

وكانت قريش تُسمِّي رسول ﷺ قبلَ أن ينزل عليه الوحي: الأمين [1] .

فهل كان يتأَتَّى للقوم أن يضعوا ثقتهم في محمد، ويجمعوا ـ وفيهم

(١) السيرة النبوية ١/ ١٩٧ـ١٩٨.

حكماؤهم وشيوخُهم ـ على جعله حكمًا بينهم ، ويلقبوه بالأمين ، لو كان ـ كما يفتري أولئك المستشرقون ـ غارقًا في شهواته الجنسية المحرَّمة، وميوله الغرامية، ومنهمكا في صداقاته مع النساء ، كما يزعمون ؟! .

وهل يُلَقَّب بالأمين في قومه مَن يكون مدنِّسا للأعراض فيهم، هاتِكًا للحرمات، كاشفًا للأستار والعورات، ماجنا غارقًا في الشهوات والنزوات ؟.

اللهم لا ..

ثم إنه من المعلوم أنّ النبي ﷺ كان له أعداء ومناوئون كثيرون في عصره ، وكانوا حريصين على اهتبال أية فرصة ، واستغلال أي موقف يمكن أن يُشوِّهوا من خلاله صورةَ النبيّ ﷺ .

فلماذا سكتوا عن سلوكه ﷺ ، و« ضلال شهوانيته » ـ على حد تعبير المفتري " بورجشتال " ـ ؟!

لماذا أغمضوا عيونهم ، وكفّوا ألسنتَهم عن فضْح النبيِّ ﷺ بسلوكه وعلاقاته المحرَّمة مع النساء ـ حاشاه ﷺ ـ .

لماذا لم يقُل قائلُهم : انظروا إلى هذا الرجل الذي كان من أمره كذا وكذا ، كيف يأتي اليومَ ويدعونا إلى الطهر والعفاف ، ومكارم الأخلاق ؟! .

لماذا تَركوا هذا المطْعَن الخطير ، ولم يثيروا هذه الشبهات ويُشْهِروها في وجه صاحب الدعوة ﷺ ؟! ـ لو كان لها وجود ـ .

هل لأن النبي ﷺ كان غريبًا عنهم، غامضًا عليهم ؟

كلا؛ فلقد لبث فيهم النبيُّ ﷺ قبل الرسالة أربعين سنة، وبعدها ثلاثًا وعشرين، حتى توفّاه الله، وكانت حياته مكشوفة، ليس فيها أسرارٌ غامضةٌ،

ولذلك قال تعالى ـ ردًّا على خصوم الدعوة ـ ﴿ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِۦٓ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ [يونس: ١٦] ، أي من قَبْل الوحي والقرآن .

إذًا فلماذا لم يثيروا هذا الذي يفتريه المستشرقون ؟! .

إن الإجابة ببساطة لا تعقيد فيها ؛ هي أنه لم تكن في حياة النبي ﷺ انحرافات ، ولم يكن لديه من السلوكيات ما يجعله موضعَ نقدٍ أو مؤاخذة ، بل كان سلوكه ﷺ معروفا ومشهورًا بالطهر والإشراق، محفوفًا بمكارم الأخلاق، فكان نبيلا شريفا ، وملء الأسماع والأبصار ، وكان بحق كما وصفه ربه ـ في قوله تعالى ـ ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾ [القلم : ٤] ، فهو أكرم الناس خلقًا، وأعفُّهم نفسًا ، وأطهرهم قلبًا .

كان هذا باديًا لمناوئيه قبل مُحبِّيه ، وخصومه قبل أصدقائه ، عرفوا هذا النبل فيه ، فلم يجرؤوا على أن يفتروا عليه الكذب ، رغم مخالفتهم له ، أما المستشرقون ـ أصحاب المنهج العلميِّ فيما زعموا ـ فقد عرفوا أيضًا هذا النبل الذي يكتنف شخصية محمد ﷺ ، لكنهم أباحوا لأنفسهم الكذب والافتراء على الله ورسوله ، وراحوا يتجاهلون التاريخ المشرق ويتعامون عن الحقائق الناصعة في سيرة رسول الله ﷺ ، ويخترعون الأباطيل وينسجون الأساطير ، ويَقْلِبون الأمور !! .

فبئس ما يصنعون .

إن النبي ﷺ ما مَسّتْ يدُه يدَ امرأةٍ لا تحِلُّ له ، وعندما أخذ البيعة على النساء لم يصافح واحدة منهنَّ بيمينه .

عن عائشة رضي الله عنها قالت: « كان النبي ﷺ يبايع النساء بالكلام ،

بهذه الآية ﴿ لَّا يُشْرِكْنَ بِٱللَّهِ شَيْـًٔا ﴾ [الممتحنة: ١٢] ، قالت : وما مَسّتْ يدُ رسولِ الله ﷺ يدَ امرأةٍ إلا امرأةً يملكها » [1] .

ولقد كانت حياته ﷺ مليئةً بالجِدِّ وتحمُّل المسؤولية منذ فترة مبكرة ، فرعى الغنم ، وعمِل بالتجارة ، وجَدّ وكافح ، ولم يكن عالة على أحد ، فكان في قومه مثالًا للرجل المُجِدِّ المثابِر ، وقبْل نزولِ الوحْي عليه حُبِّب إليه الخلاء ، فكان يمكث يتحنّث في غار حراء ؛ يَتعبدُ الليالي ذوات العدد ، وبعد أن كلَّفه الله بالرسالة زادت أحماله ، وكثرت أشغاله ، وعظمت مسؤولياته ، وتضاعفت همومه وأماناته ، وظلَّ في عمل دؤوب لنشر الإسلام ، حتى لقي الله ...

فمتى كان يفْرُغ للاستغراق في قضاء الشهوات المحرَّمة ـ حاشاه ﷺ ـ وكيف حظِيَ بآلاف الأتباع من المسلمين في عصره ـ لو كان كما يفتري المستشرقون ـ ؟ كيف كان يحظي بالأتباع الكثيرين لو كان قبيحَ السيرة ، غيرَ مستقيم السلوك ـ حاشاه ﷺ ـ ؟! .

إن كتب السيرة والتاريخ ليس فيها ما يؤيِّد ظنَّ أولئك القومِ السيئَ في رسول الله ﷺ ، وإنما هي مليئة بآيات العظمة والشموخ ، والنبل والطهارة ، التي لم تتوفر لأحد في الوجود .

فهل عميت أبصارُ المستشرقين عن رؤية ذلك الحقِّ وقراءته ؟! .

أم انطمست بصائرُهم عن تدبُّره ؟! .

أم أبت قلوبُهم إلا جحودَه وإنكارَه ؟! .

---

(١) رواه البخاري في ك الأحكام ، ب بيعة النساء ، فتح الباري ١٣/ ٢١٦ ، رقم ٧٢١٤ ، وفي ك التفسير ، تفسير سورة الممتحنة ، ب إذا جاءكم المؤمنات مهاجرات ، فتح الباري ٨/ ٥٠٤ ـ ٥٠٥ ، رقم ٤٨٩١ ، وأحمد في المسند ٧ / ٢٢٠ ، رقم ٢٤٦٧٢ .

ثانيا: حول زواجه ﷺ من السيدة زينب بنت جحش:

ويُصِرّ المستشرقون على نفس الاتهام الرخيص للنبي ﷺ بأنه كان ـ حاشاه ـ أسيرًا لشهواته، لا هَمّ له إلا إطفاء لهيبها بأي شكل كان، دون مبالاة بأي شيء، فراحوا يَنسجون الأباطيل، ويحرفون الكلم عن مواضعه، في قصة زواج النبي ﷺ من السيدة زينب بنت جحش رضي الله عنها، وتعسفوا في جعل القصة دليلًا على دعواهم الخبيثةِ في حق النبي ﷺ ..

فبماذا جادت خيالاتهم، وسالت أقلامهم ؟.

ذهب المستشرقون والمبشِّرون إلى تصوير زواج النبي ﷺ من زينب بنت جحش على أنه كان لشهوة عصفت بالنبي ﷺ، حيث شغف بها وهي تحت مولاه زيد بن حارثة، وأنه عليه السلام ذهب لزيارته، وكان زيد غائبًا، فاستقبلتْه زينب، وكانت في ثياب تُبدِي محاسنَها، فوقع في قلبه شيء من جمالها، فقال: سبحان مقلب القلوب! ثم كرر هذه العبارة ساعةَ انصرافه، فسمعتْها زينب، ورأتْ في عينيه وهج الحب، فأُعجبت بنفسها، وأَبلغت زيدًا ما سمعتْ فذهب من فوره إلى النبي ﷺ، يذكر له استعداده لتسريحها، فقال له: أَمسِك عليك زوجك واتق الله، لكنَّ زينبَ لم تُحسن من بعدُ عِشْرتَه فطلَّقها، وأَمسَكَ محمد عن زواجها وقلبه في شُغل بها، حتى نَزَل قوله تعالى: ﴿ وَإِذۡ تَقُولُ لِلَّذِيٓ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِ ﴾ إلى قوله تعالى ﴿ وَكَانَ أَمۡرُ ٱللَّهِ مَفۡعُولٗا ﴾ [الأحزاب: ٣٧]، عند ذلك تزوجها وأطفأ لهيب الشوق ووهج الحب في نفسه، مع أن هذا كان مُحرَّمًا في الجاهلية، فأباحه محمد إرضاء لهواه، واستجابة لداعي حُبِّه.

ويطلق المستشرقون والمبشِّرون لخيالهم العِنان حين يتحدثون عن تاريخ

محمد في هذا الموضوع ، حتى لَيُصوِّرَ بعضُهم زينبَ ساعةَ رآها النبي وهي نصف عارية أو تكاد ، وقد انسدَل ليل شعرها على ناعم جسمها الناطق بكل ما يُكنّه من كل معاني الهوى .

ويذكر آخرون أنه حين فُتِح بابُ بيتِ زيد، لعب الهواء بأستار غرفة زينب، وكانت ممددَّة على فراشها في ثياب نومها ، فعصف منظرُها بقلب هذا الرجل الشديد الولع بالمرأة ومفاتنها ، فكتم ما في نفسه ، وإن لم يُطِقِ الصبر على ذلك طويلًا .. وأمثال هذه الصور التي أبدعها الخيال كثير .

تراه فيما كتبه "موير"، و "دِرْمَنجم"، و "واشنطن إرْفِنْج"، و "لامنس" ، و "سِبْرِنْجر"، و "فيل"، وغيرهم من المستشرقين والمبشرين [1] .

وهذا الذي افتراه المستشرقون وأضرابُهم ساقط ومتهافت بالمرَّة ، لأنه مُجافٍ للحقيقة ، ومناقضٌ للروايات التاريخية الصحيحة ، ونستطيع أن نُجَلِّيَ تهافتَه وبطلانَه على النحو التالي :

زينب بنت جحش لم تكن مجهولة للنبي ﷺ :

بدايةً يَحسُن أن نشير إلى أمر ؛ وهو قرابة السيدةِ زينبَ بنتِ جحشٍ من رسول الله ﷺ ، إذ إنها ابنة عمته ﷺ ، فأُمّها هي أميمة بنت عبدِ المطلب بنِ هاشم [2] ، وعبدُ المطلب هذا هو جَدُّ الرسول ﷺ لأبيه ، كما يعرف

---

(١) حياة محمد، د. محمد حسين هيكل، ص ٢٢٦ ـ ٢٢٧ وصـ ٣٣٦ بتصرف، دار المعارف – مصر، ط السادسة عشرة، ويُراجَع: ما يقال عن الإسلام، العقاد، مجموعة الأعمال الكاملة ٦/ ٥٣٩ .

(٢) سير أعلام النبلاء، الإمام الذهبي ٢/ ٢١١ بتحقيق شعيب الأرنؤوط وآخرين، مؤسسة الرسالة – بيروت ، ط الثامنة ١٤١٢هـ ١٩٩٢م .

المستشرقون والمبشرون .

وإذن فزينبُ ليست غريبةً عن النبي ﷺ ، كما أنها لم تكن مجهولة له ، ولا بعيدة عنه ، وقد تربَّتْ على عين رسول الله ﷺ ، وقد رآها ـ بطبيعة الحال ـ وعرفها طِفلة ، وصبيّة وشابّة ، وعرفها بعد ذلك ، فليس من مجالٍ إذن للادعاء أو القولِ بأن النبي ﷺ قد فوجِئ بجمالها وحُسْنِها بعد زواجها من زيد بن حارثة رضي الله عنه .

زيد بن حارثة وقصة تبنّي الرسول ﷺ له

وأما زيدٌ فهو ابن حارثةَ بنِ شراحبيل بنِ عبدِ العُزَّى بنِ امرئ القيس، وأُمُّه سُعْدَى بنتُ عامر ، زارت قومها وزيدٌ معها ، فأغارت خيلٌ لِبَنِي القَيْن في الجاهلية ، فمرُّوا على أبيات بني مَعْن ، فاحتملوا زيدًا ، وهو يومئذٍ غلام يَفْعَة ، فَوَافَوْا به سوق عكاظ ، فعرَضوه للبيع ، فاشتراه حكيمُ بنُ حزامٍ لِعمّتِه خديجةَ بنتِ خويلد بأربعمائة درهم ، فلما تزوّجها رسول الله ﷺ وهبَتْه له .

ثم علم أهلُه بمكانه ، فجاء أبوه حارثةُ وعمُّه كعبُ بنُ شراحبيل إلى رسول الله ﷺ يطلبان منه زيدًا مقابلَ ما يشاء من الفداء ، فدعاه رسول الله ﷺ فقال: « هل تعرف هؤلاء ؟ » قال: نعم، هذا أبي وهذا عمي، قال: « فأنا من قد علمتَ ورأيتَ محبتي لك، فاخترني أو اخترهما »، فقال زيد: ما أنا بالذي أختار عليك أحدًا، أنت في منزلة الأب والعم ، فقالا : ويحك يا زيد ، أتختار العبودية على الحرية وعلى أبيك وعمك وأهل بيتك ؟ قال: نعم، إني قد رأيتُ من هذا الرجل شيئًا ما أنا بالذي أختار عليه أحدًا أبدًا، فلما رأى رسول الله ﷺ أخرجه إلى الحجر فقال: « يا من حضر ؛ اشهدوا أنّ زيدًا ابني ، يرثني وأَرِثُه »، فلما

رأى أبوه وعمُّه طابت أنفسهما، فدُعِيَ من يومها: زيد بن محمد [1] .

وقد كان للابن المتبنَّى عند العرب جميعُ حقوقِ البنوَّةِ وواجباتُها .

ثم إن الله تعالى حرّم التبنّيَ بعد ذلك في قوله سبحانه : ﴿ وَمَا جَعَلَ أَزْوَٰجَكُمُ ٱلَّٰٓـِٔي تُظَٰهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَٰتِكُمْ ۚ وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَآءَكُمْ أَبْنَآءَكُمْ ۚ ذَٰلِكُمْ قَوْلُكُم بِأَفْوَٰهِكُمْ ۖ وَٱللَّهُ يَقُولُ ٱلْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِى ٱلسَّبِيلَ ٱدْعُوهُمْ لِءَابَآئِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِندَ ٱللَّهِ ۚ فَإِن لَّمْ تَعْلَمُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ فَإِخْوَٰنُكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَمَوَٰلِيكُمْ ﴾ [الأحزاب: ٥] .

فمنع الله تعالى بهذا الحُكْمِ ما كان من أمر التبني ، وأمَر بردِّ كلِّ أحدٍ إلى نَسَبه الحقيقيِّ ، وذكر أن هذا هو الحق والعدل ، ومن كان مجهولَ النسَب ؛ فليعامَل معاملةَ الأخِ في الدين والمولى .

عن ابن عمر قال : ما كنّا ندعوا زيدَ بنَ حارثة إلا زيدَ بنَ محمد ، حتى نزل القرآن ﴿ ٱدْعُوهُمْ لِءَابَآئِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِندَ ٱللَّهِ ۚ ﴾ [2] .

تلك زينب ، وهذا زيد ، رضي الله عنهما ..

فماذا كان من أمر زواجهما ؟

زواج زيدٍ من زينبَ بنتِ جحشٍ ثم طلاقها منه:

رأينا أن زينب كانت ذاتَ حسَبٍ ونسَبٍ وشرفٍ في قومها ..

وأن زيدًا كان عبدًا ، ثم أُعتِق .

ثم متبنًّى، ثم رُدَّ نسبُه إلى أصله الحقيقيِّ .

---

(١) صفة الصفوة ، لابن الجوزي ١/ ١٩٩ـ ٢٠٠ بتصرف واختصار ، ويراجع : السيرة النبوية ١/ ٢٤٧ ـ ٢٤٩ ، سير أعلام النبلاء ١/ ٢٢٠ وما بعدها .

(٢) رواه الترمذي في ك التفسير ، ب ومن سورة الأحزاب ، رقم ٣٢٢٠ .

وقد كانت العرب تقيم وزنًا للفوارق الاجتماعية والطبقية ، لما كان مشهورًا عندهم من الاعتزاز بالنسب ، وبحسب ذلك العرف لا يَقبَل مِثْلُ أهلِ زينبَ بزواج ابنتهم من مثل زيد .

ولهذا « أراد النبي ﷺ أن يحطم الفوارق الطبقيةَ الموروثةَ في الجماعة المسلمة؛ فيردَّ الناسَ سواسية كأسنان المشط ، لا فضل لأحد إلا بالتقوى ، وكان الموالي ـ وهم الرقيق المحرَّر ـ طبقةً أدنى من طبقة السادة ، ومِن هؤلاء كان زيدُ بنُ حارثة مولى رسول ﷺ الذي تبناه ، فأراد رسول الله ﷺ أن يحقق المساواة الكاملة بتزويجه من شريفة بني هاشم ، قريبته ـ ﷺ ـ زينبَ بنتِ جحش ، ليُسقطَ تلك الفوارقَ الطبقيةَ بنفسه في أسرته ، وكانت هذه الفوارق من العمق والعنف بحيث لا يحطمها إلا فعلٌ واقعيٌّ من رسول ﷺ ، تتخذ منه الجماعة المسلمة أسوة ، وتسير البشريةُ كلُّها على هُداه في هذا الطريق » (١) .

ومن ناحية أخرى كان لِزيد في نفس رسول الله ﷺ مكانة كبيرة ، ومحبّة عظيمة ، قَلَّ أن تزاحمها محبةُ أحد من الصحابة ، رضوان الله عليهم أجمعين .

قال ابن عمر : فَرَض عمرُ لأسامةَ بنِ زيدٍ أكثرَ مما فرض لي ، فكلمْتُه في ذلك ، فقال : إنه كان أحبَّ إلى رسول الله ﷺ منك ، وإن أباه كان أحبَّ إلى رسول الله من أبيك (٢) .

ولذا سعى رسول الله ﷺ في تزويج زينبَ من مولاه زيدٍ ، رضي الله عنهما ، وخطبها له فرفضت هي وأخوها عبد الله بن جحش ، فنزل قول الله تعالى :

---

(١) في ظلال القرآن ٥/ ٢٨٦٥.

(٢) سير أعلام النبلاء ١/ ٢٢٨ ـ ٢٢٩ .

﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ۗ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا مُّبِينًا ﴾ [الأحزاب : ٣٦] .

قال الإمام ابن كثير : قال العوفيُّ : عن ابن عباس رضي الله عنهما : قوله تعالى ﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ ﴾ الآية ... وذلك أن رسول الله ﷺ انطلق ليخطب على فتاهُ زيدِ بنِ حارثة ﷺ ، فدخل على زينب بنت جحش الأسدية رضي الله عنها فخطبها ، فقالت : لستُ بناكحتِه ، فقال رسول الله ﷺ : « بلى فانكحيه » ، قالت : يا رسول الله أُؤمِّر في نفسي[(١)] ، فبينما هما يتحدثان أنزل الله هذه الآية على رسول الله ﷺ ﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ ﴾ الآية . قالت: قد رضيتُه لي يا رسول الله مُنكِحًا. قال رسول الله ﷺ : « نعم »، قالت : إذًا لا أعصي رسول الله ، قد أَنكحْتُه نفسي[(٢)] .

وتم الزواج ، ومكث زيدٌ مع زينب قريبًا من سنة أو فوقها[(٣)] ، ولكنّ العِشرة بينهما لم تكن على ما يرام ، فجاء إلى النبي ﷺ يشكو إليه مَرّة بعد مرة ، وفي كل هذا ينصحه النبي ﷺ بالإبقاء على عِشْرتها وإمساكها ، وبأن يتقيَ اللهَ فيها ، وكان الله قد أعلم رسول الله ﷺ بأن زيدًا سيطلق زينب ، وأنها ستكون زوجةً له بعد ذلك ، لحكمة قدَّرها المولى تبارك وتعالى أزلا ، وهي إبطال آثار التبنِّي ، التي كانت شائعة في ذلك الوقت ، ومنها أنّ مُطَلَّقةَ المتبنَّى يَحرُم زواجُها على مَن تبنّاه كما يَحرُم زواجُ الأب من مُطَلَّقةِ ابنِه الصُّلْبيّ .

---

(١) أي : أستخير .
(٢) تفسير القرآن العظيم ٣/ ٥٠٥ .
(٣) السابق ٣/ ٥٠٧ .

قال تعالى: ﴿ وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِىٓ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَٱتَّقِ ٱللَّهَ وَتُخْفِى فِى نَفْسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَىٰهُ ﴾ [الأحزاب: ٣٧].

وعن أنس رضي الله عنه قال : جاء زيد بن حارثة يشكو ، فجعل النبيُّ ﷺ يقول : « اتق الله وأمسك عليك زوجك » ، قال أنس : لو كان رسول الله ﷺ كاتمًا شيئا لكتم هذه [١] .

وروي عن علي بن الحسين أن النبي ﷺ كان قد أوحَى اللهُ تعالى إليه أنّ زيدًا يطلق زينب ، وأنه يتزوجها بتزويج الله إياها ، فلما تَشَكّى زيدٌ للنبي ﷺ خُلُقَ زينب ، وأنها لا تطيعه ، وأعلمَه أنه يريد طلاقها ، قال له ﷺ على جهة الأدب والوصية : « اتق الله » في قولك « وأمسك عليك زوجك » ، وهو يعلم أنه سيفارقها ويتزوجها ، وهذا هو الذي أخفى في نفسه ، ولم يُرِد أن يأمره بالطلاق لما علم أنه سيتزوجها ، وخشِي رسول الله ﷺ أن يلحقه قولٌ من الناس في أنْ يتزوج زينب بعد زيد ، وهو مولاه ، وقد أَمَرَه بطلاقها ، فعاتبه الله تعالى على هذا القدْر من أنه خشِيَ الناسَ في شيء قد أباحه الله له ، بأن قال : « أمسك » مع علمه بأنه يطلق ، وأعلمه أن الله أحقُّ بالخشية ، أي في كل حال ، والمراد بقوله ﴿ وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ ﴾ إنما هو إرجاف المنافقين ، بأنه نَهى عن تزوّج نساءِ الأبناء ، وتزوج بزوجة ابنه [٢] .

(١) رواه البخاري في ك التوحيد، ب وكان عرشه على الماء، فتح الباري ١٣/ ٤١٥ رقم ٧٤٢٠.

(٢) الجامع لأحكام القرآن ، للقرطبي ١٤/ ١٢٣ـ ١٢٤ باختصار .

ثم ما لبِثت العلاقة الزوجية بين " زيد " و " زينب " رضي الله عنهما أن آلت إلى الفِراق .

زواج الرسول ﷺ من زينب بنت جحش كان بأمر من الله تعالى لمقصدٍ تشريعيٍّ :

هكذا كان زواجُ " زيد " و " زينب " رضي الله عنهما بيد رسول الله ﷺ وسَعْيٍ منه ، وهكذا انتهت الحياة الزوجية بينهما ، ليكون ما أراده الله وقدَّره ، وهو زواج النبي ﷺ منها ، لحكمة تشريعية ، لا بد أن تتحقق بعملٍ واقعيٍّ ، ولأن هذا العملَ سيكون سابقةً مستنكَرة ، وشديدةَ الوقْع على الكثيرين في المجتمع ، لمخالفته لِمألوف العربِ وتقاليدِهم العنيفة ؛ اختار اللهُ رسولَه ﷺ ليتحمل عبء هذا العملِ الشاقِّ ، « فيتزوج من مُطَلَّقة مُتبنّاه زيدِ بنِ حارثة ، ويواجِه بهذا العمل ، الذي لا يستطيع أحدٌ أن يواجِه المجتمعَ به ، على الرغم من إبطال عادة التبنّي في ذاتها » (١) .

قال الإمام بن حجر : « وأراد اللهُ إبطالَ ما كان أهل الجاهلية عليه من أحكام التبنّي بأمرٍ لا أبلغ في الإبطال منه ، وهو تزوّجُ امرأةِ الذي يُدْعَى ابنًا ، ووقوعُ ذلك من إمام المسلمين ليكون أدعى لقبولهم » (٢) .

يقول الله تعالى: ﴿ فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَٰكَهَا لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِىٓ أَزْوَٰجِ أَدْعِيَآئِهِمْ إِذَا قَضَوْا۟ مِنْهُنَّ وَطَرًا ۚ وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ مَفْعُولًا ﴾ [الأحزاب: ٣٧] .

---

(١) في ظلال القرآن ٥/ ٢٨٦٨ .

(٢) فتح الباري ٨/ ٣٨٤.

قال صاحب الظلال ـ رحمه الله ـ في تفسير هذه الآية والتي تليها :

وكانت هذه إحدى ضرائب الرسالة الباهظة، حُمِّلَها رسولُ الله ﷺ فيما حُمِّل، وواجه بها المجتمعَ الكارهَ لها كلَّ الكراهيةِ ، حتى ليتردّدَ في مواجهته بها ، وهو الذي لم يتردّدْ في مواجهته بعقيدة التوحيد وذمِّ الآلهةِ والشركاءِ ، وتخْطِئةِ الآباءِ والأجداد ! .

﴿ وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ مَفْعُولًا ﴾ .. لا مَردّ له ولا مفر منه ، واقعا مُحقَّقا لا سبيل إلى تخلّفه ولا إلى الحيدة عنه .

ولم تمرَّ المسألة سهلة ، فلقد فوجئ بها المجتمع الإسلامي كله ، كما انطلقت ألسنة المنافقين تقول : تزوج حليلةَ ابنه .

ولما كانت المسألةُ مسألةَ تقريرِ مبدأٍ جديد فقد مضى القرآن يؤكدها ، ويزيل عنصر الغرابة فيها ، ويردُّها إلى أصولها البسيطة المنطقية التاريخية :

﴿ مَّا كَانَ عَلَى ٱلنَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ ٱللَّهُ لَهُۥ ﴾ [الأحزاب: ٣٨] ، فقد فرض له أن يتزوج زينب ، وأن يُبطِل عادة العرب في تحريم أزواج الأدعياء ، وإذن فلا حرج في هذا الأمر ، وليس النبي ﷺ فيه بدعا من الرسل .

﴿ سُنَّةَ ٱللَّهِ فِى ٱلَّذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلُ ﴾ [الأحزاب: ٣٨] ، فهو أمر يمضي وفق سنة الله التي لا تتبدل ، والتي تتعلق بحقائق الأشياء ، لا بما يحوطها من تصورات وتقاليد مصطنعة لا تقوم على أساس .

﴿ وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا ﴾ [الأحزاب: ٣٨] ، فهو نافذ مفعول ، لا يقف في وجهه شيء ولا أحد ، وهو مقدور بحكمة وخبرة ووزن ، منظورٌ فيه إلى

الغاية التي يريدها الله منه ، ويعلم ضرورتها وقدرها وزمانها ومكانها ، وقد أمر الله رسوله أن يبطل تلك العادة ويمحوَ آثارَها عمليًّا ، ويقرِّرَ بنفسه السابقةَ الواقعيةَ ، ولم يكن بُدٌّ من نفاذ أمر الله [1] .

وهكذا كان زواج النبي ﷺ من زينبَ بأمرٍ من الله تعالى ، ولذلك كانت زينبُ تتباهى بأن الله زوَّجَها من رسوله ﷺ بوحْيٍ من فوق السَّبْع الطِّباق .

قال أنس : « فكانت زينب تفخر على أزواج النبي ﷺ ، تقول : زوَّجَكُنَّ أهلوكنّ ، وزوجني الله تعالى من فوق سبع سماوات » [2] .

تعلقُ المستشرقين بروايات مكذوبة :

بقي شيء يتعلق به المستشرقون فيما ادعوْه من افتتان النبي ﷺ بزينب وولعه بها ، وهي في بيت زيد ، وهو وجود روايات تحمل هذا المعنى الفاسد .

ولكن هذا الذي يتعلقون به أوهى من نسيج العنكبوت ، إذ إن هذه الرواياتِ وأمثالَها لا تنهض دليلًا لهم ، ولا تصلح متّكأً يتكئون عليه فيما زعموه .. لأنها روايات قد كشف العلماء زيفها ، وأثبتوا بطلانها ، ولم تثبت أمام التمحيص التاريخي الدقيق ، والنقد العلمي النزيه ، فضلًا عن أنها تصطدم بما هو مقرَّر في أصول الدين وأمهات العقائد من مبدأ عصمة النبيين ، وتنزههم عن أي عملٍ غيرِ لائقٍ بأحد من المسلمين .

---

(١) في ظلال القرآن ٥/ ٢٨٦٩ ـ ٢٨٧٠باختصار.

(٢) رواه البخاري في ك التوحيد. ب وكان عرشه على الماء. فتح الباري ١٣/ ٤١٥ رقم ٧٤٢٠، والترمذي في ك التفسير، ب ومن سورة الأحزاب، رقم ٣٢٢٤ وقال: حسن صحيح .

وقد أفاد بعدم صحة الروايات أئمة الدين، وعلماء الإسلام، ومنهم الإمام ابن كثير [١]، والإمام ابن حجر [٢]، والإمام ابن العربي المالكي، حيث قال: «وهذه الروايات كلُّها ساقطة الأسانيد؛ إنما الصحيح منها ما روي عن عائشة أنها قالت: لو كان رسول الله ﷺ كاتما من الوحي شيئا لكتم هذه الآية ﴿ وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِىٓ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ﴾ [الأحزاب:٣٧].

قال القاضي: وما وراء هذه الروايةِ غيرُ معتبَر، فأمّا قولهم: إن النبي ﷺ رآها فوقعت في قلبه؛ فباطل، فإنه كان معها في كل وقت وموضع، ولم يكن حينئذ حجاب، فكيف تنشأ معه وينشأ معها، ويلحظها في كل ساعة، ولا تقع في قلبه إلا إذا كان لها زوج، وقد وهبتْه [أي: زوجَها زيدًا] نفسَها وكرِهت غيره، فلم تخطر بباله [أي: النبي ﷺ]، فكيف يتجدد له هَوى لم يكن، حاشا لذلك القلب المطهَّر من هذه العلاقة الفاسدة» [٣].

هذا ما أحاط بزواج النبي ﷺ من زينب بنتِ جحش من ملابسات، وما استهدفه من مقاصد وتشريعات، كما تجليه لنا آيات القرآن البينات، وحوادث السيرة وصحيح الروايات..

فأين هذا من مزاعم المستشرقين الباطلات، وتَخرُّصاتِهم الكاذبات، وافترائهم على النبي محمد، عليه من الله أكمل الصلوات وأتم التسليمات؟.

---

(١) تفسير القرآن العظيم ٣/ ٥٠٧.

(٢) فتح الباري ٨/ ٣٨٤.

(3) أحكام القرآن، لابن العربي ٣/ ٥٧٧، تحقيق محمد عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت، ط الأولى ١٤٠٨هـ ١٩٨٨م.

ثالثا: تعدد زوجات النبي ﷺ

ومما يرتكن إليه المستشرقون في تأييد زعمهم الباطل بأن النبيَّ ﷺ كان رجلًا مُفْرِطًا في الشهوة الجنسية ، وصاحبَ ميولٍ شهوانية جامحة ؛ كَوْنُ النبيِّ ﷺ جمع بين أكثرَ من زوجة ، وتُوفِّيَ عن تسع زوجات ، ويدَّعون بأن هذا لا يقع إلا من رجلٍ غارقٍ في لذات الجسد ونزَواته ، بعيدٍ عن عفاف القلبِ وسُمُوِّ الرُّوح ، - زعموا - .

والواقع أن هذه شبهة ساقطة ، ودعوى باطلة ، ولا تحتاج إلى كثير استدلال على إثبات بطلانها ، حيث إن قليلًا من التأمل في معرفة هؤلاء الزوجات الفضليات ، وظروفِ زواجِهنّ من رسول الله ﷺ ، ثم أحوالِهنّ المعيشيّةِ في بيت النبوة ؛ يدحض مزاعم المستشرقين ، ويبين تهافتَها ، ويؤكّد سُموَّ أخلاقِ النبيِّ ﷺ ، وعظمةَ شخصيتِه .

تُرَى ماذا يفعل الرجل الشهوانيُّ لو كان في حالٍ مثلِ حالِ رسول الله ﷺ ؟

لا شك في أنه سوف يسعى للاقتران بأجمل فتيات العرب والعجم في زمانه، ويخادِن من يشاء من النساء من هنا أو هناك ... فهل فعَل النبيُّ ﷺ شيئًا من ذلك ؟

لِننْظرْ مَن تزوج رسول الله ﷺ من النساء ، وملابسات زواجهن ، وذلك على النحو التالي :

زوجاتُ النبيِّ ﷺ والظروفُ التي اكتنفتْ زواجَ كلِّ واحدةٍ منهن :

لقد بنى رسولُ الله ﷺ بإحدى عشْرةَ امرأةً ، مات في حياته منهن اثنتان ؛ هما : خديجةُ بنتُ خويلد ، وزينبُ بنتُ خزيمة ، رضي الله عنهما ، وتُوفِّيَ عن

تسعٍ ؛ هنّ : عائشةُ بنتُ أبي بكر ، وحفصةُ بنتُ عمر بنِ الخطاب ، وأمُّ حبيبة بنتُ أبي سفيان ، وأمُّ سلمةَ هندٌ بنتُ أبي أمية بنِ المغيرة المخزوميةُ ، وسَوْدةُ بنتُ زمعة بنِ قيس ، وزينبُ بنتُ جحش ، وميمونةُ بنتُ الحارث بن حزْن ، وجويريةُ بنتُ الحارث بنِ أبي ضرار ، وصفيةُ بنتُ حُيَيِّ بنِ أخطب ، رضي الله عنهن أجمعين [١] .

١ ـ خديجة رضي الله عنها :

وكانت السيدة خديجة بنت خويلد رضي الله عنها هي أولَ مَن تزوج رسول الله ﷺ ، وكانت ذات سمعة نظيفة ، وسيرة حسنة في قومها .

« قال الزبير بن بكار : كانت خديجة تُدعَى في الجاهلية الطاهرة » [٢] .

وقد اختارت النبيَّ ﷺ ليتزوجها ، لِما رأت من كرم أخلاقه ، ونظافة يده ، وطهارة قلبه ، وأمانته ، حينما طلبتْ منه أن يخرج إلى الشام متاجرًا لها في مالها ، وقَبِل النبيُّ ﷺ الزواج منها ، فأخذ عمَّه حمزةَ بن عبد المطلب ، وقيل أبا طالب، وخطبها إليه من أبيها خويلد بن أسد ، وقيل أخيها عمر بن خويلد .

وكانت خديجة رضي الله عنها قد تزوجت قَبْل النبيِّ ﷺ من رجلين ؛ أحدهما : أبو هالة بن زرارة التميميُّ ، والآخر : عتيقُ بنُ عابدِ بنِ عمرَ بنِ عبد الله بنِ مخزوم .

---

(١) يراجَع : السيرة النبوية ٢/ ٦٤٣ ـ ٦٤٨ ، وسير أعلام النبلاء ٢/ ١٠٩ و ١٣٥ و ٢١١ و ٢١٨ و ٢٢٧ و ٢٣٨ و ٢٦١ و ٢٦٥ ، البداية والنهاية لابن كثير ٥/ ٢٥٤ وما بعدها ، تحقيق د/ أحمد أبو ملجم وآخرين ، دار الريان ، القاهرة ، ط الأولى ١٤٠٨هـ ـ ١٩٨٨م ، الجامع لأحكام القرآن ، القرطبي ١٤/ ١٠٧ ـ ١١١ .

(٢) سير أعلام النبلاء ٢/ ١١١ .

وكان عُمُرُ النبيِّ ﷺ حين تزوجها ؛ خمسًا وعشرين سنة ، وكانت هي أَسنَّ منه بخمس عشرة سنة ، ولم يتزوج ﷺ عليها غيرَها حتى تُوفِّيت - رضي الله عنها - (١) .

فلو كان الرسول ﷺ رجلَ شهوةٍ ، وصاحبَ ميولٍ جنسيةٍ مُفرِطةٍ ؛ هل كان يستهِلُّ حياتَه الزوجيةَ والعاطفيةَ بالاقتران بامرأة في سن الأربعين ، سبق لها الزواجُ من غيره مرتين ، وأنجبت في كلتيهما ؟ ثم يحبس نفسَه عليها قرابة خمس عشرة سنة ، إلى أن يتوفاها الله ، حيث جاء في بعض الروايات أنها « كان لها حين تُوفِّيت خمسٌ وستون سنة » ! (٢) .

٢ - سَوْدة بنت زمعة رضي الله عنها :

وأما سَوْدة بنتُ زمعة بنِ قيس بنِ عبد شمسٍ العامريةُ ؛ فقد أسلمت قديمًا وبايعت ، وكانت عند ابن عمٍّ لها يقال له : السكران بن عمرو ، وأسلم أيضًا ، وهاجرا جميعًا إلى الحبشة في الهجرة الثانية ، فلما قدِما مكةَ مات زوجُها ، وقيل مات بالحبشة ، فلما حلّت خطبها رسول الله ﷺ فتزوّجها ، ودخل بها في مكة ، وهاجر بها إلى المدينة (٣) .

وهي التي وهبتْ يومها لعائشة ، رعايةً لقلب رسول الله ﷺ ، وكانت قد فَرِكَت - رضي الله عنها - (٤) .

---

(١) انظر : السيرة النبوية ٢/ ٦٤٣-٦٤٤ ، سير أعلام النبلاء ٢/ ١١١، الجامع لأحكام القرآن ١٤ / ١٠٧.

(٢) الجامع لأحكام القرآن ١٤ / ١٠٧.

(٣)السابق ١٤/ ١٠٨ .

(٤) سير أعلام النبلاء ٢/ ٢٦٦. ومعنى فَرِكَت: أي قلّ مَيلُها للرجال، بسبب كِبَر سِنّها.

فتأملْ في زواج مثلِ هذه المُسِنّة ـ رضي الله عنها ـ وهي أرملة ، هل يكون إفراطًا في شهوة ، أم يكون رعايةً لحالها ، وصيانةً لها ؟ .

٣ـ عائشة رضي الله عنها :

وأما عائشة رضي الله عنها فقد خطبها النبي ﷺ بعد وفاة خديجة، ولم يتزوج بِكْرًا غيرها، «وذلك قبل الهجرة ببضعة عشر شهرًا، وقيل بعامين، ودخل بها في شَوّال سنةَ اثنتين، مُنصَرَفَه ﷺ من غزوة بدر وهي ابنة تسع »[(١)].

وقد تزوجها إكرامًا لصاحبه وخليله أبي بكر ﷺ، وتوثيقًا للصلة بينهما، ورعاية وتيسيرا لمصلحة الدعوة؛ حيث إن هذه المصاهرةَ تجعل من دخول النبي ﷺ بيتَ أبي بكر في أي وقت، وتجعل من تواجد أبي بكر في بيت النبوة على الدوام لاحتياج الرسول ﷺ إليه أمرا لا حرج فيه.

٤ـ حفصة رضي الله عنها :

وأما حفصة بنت عمر رضي الله عنهما؛ فقد تُوفِّي عنها زوجُها خُنَيْس بن حذافة السهميُّ، وكان من أصحاب النبي ﷺ ، وتُوفِّي بالمدينة، وقد عرَضها أبوها عمر بن الخطابِ علَى عثمان بنِ عفان للزواج فاعتذر، ثم علَى أبي بكر الصديق فصمَتْ، ثم خطبها رسول الله ﷺ[(٢)]، توثيقًا للصلة التي تربطه بأبيها عمر بن الخطاب، ولِيُشَرِّفَه بمصاهرتِه كما شرّف صديقَه أبا بكر بذلك.

٥ـ أم حبيبة رضي الله عنها :

وأما أمُّ حبيبةَ رملةُ بنتُ أبي سفيان؛ فإنها كانت أسلمتْ مع زوجها عبيدِ

---

(١) السابق ٢/ ١٣٥.

(٢) يراجَع تفصيلُ القصة في صحيح البخاري ك النكاح ، ب عرض الإنسان ابنتَه أو أختَه على أهل الخير ج ٦ ص١٣٠، سير أعلام النبلاء ٢/ ٢٢٨.

الله بنِ جحش ، وهاجرا معًا إلى الحبشة ، لكنّ زوجها أَدْركه الشقاءُ فتنصَّر ، وفارق الإسلام ، حتى هلك هناك نصرانيًا .

فأرسل النبيُّ ﷺ في شأنها عمرَو بنَ أميةَ الضمْريَّ إلى النجاشيّ ، فخطبها عليه ، فزوّجه إياها ، وأَصدَقَها من رسوا الله ﷺ أربعَ مئةِ دينار [1] .

فهل كان من المناسب أن يتركها النبي ﷺ تعود إلى أهلها ـ وكان أبوها يومئذ على الكفر وزعيمًا في قومه ـ فيفتنوها عن دينها ، ويُكْرِهوها على الكفر ، أو يُؤذوها إيذاءً لا قِبَل لها به ، أم أن المناسب في تلك الظروف أن يصونها ويتزوجها ؟

ثم إن في زواجه ﷺ منها إيجادا لصلة مصاهَرةٍ ، وفتْحًا لسبيلٍ من العلاقة بينه وبين أبى سفيان رئيسِ قريشٍ وقتذاك ، يمكن أن تُوظَّف لمصلحة الدعوة الإسلامية .

٦ـ أم سلمة رضي الله عنها :

وأما أم سلمة هند بنت أبي أمية المخزومية ؛ فكانت من المهاجرات الأُولَيات ، وكانت قبْلَ النبي ﷺ عند أخيه من الرضاعة أبي سلمة بن عبد الأسد المخزوميّ ، الرجل الصالح [2] .

ثم تُوفِّي عنها زوجُها في سنة سبع من الهجرة متأثّرا بجرح كان قد أصابه في أُحد ، وترك لها صِبْية أيتامًا في حِجرها ، فلما انقضت عدتُّها خطبها رسول الله ﷺ، فاعتذرت عن الموافقة بكبر سِنّها، وبأنها ذات صبية، وبأنها شديدة

---

(١) السيرة النبوية ١/ ٢٢٣ـ ٢٢٤ بتصرف .

(٢) سير أعلام النبلاء ٢/ ٢٠١ ـ ٢٠٢.

الغيرة، فقال لها عليه الصلاة والسلام: « أنا أكبر منك، وأما الغيرة فيذهبها الله عز وجل ، وأما العيال فإلى الله ورسوله » ، فتزوجها [(١)] .

٧ ـ زينب بنت جحش رضي الله عنها :

وأما زينب بنت جحش فكان من أمر زواجها ما فصّلنا في الصفحات السابقة ، وأنه كان بأمر الله عز وجل وبوحي منه ، وذلك لحِكَم تشريعية واجتماعية أرادها الله تعالى ، فليُرجَع إلي ما كُتب هناك .

٨ ـ زينب بنت خزيمة رضي الله عنها :

وأما زينب بنت خزيمة بنِ الحارث بنِ عبد الله الهلاليةُ ـ وتُدعَى أمَّ المساكين لكثرة معروفها ـ ؛ فتزوجها رسول الله ﷺ بعد استشهاد زوجها عبد الله بن جحش يوم أحد ، ثم إنها لم تمكث معه عليه الصلاة والسلام إلا شهرين أو يزيد ، وتُوفِّيت بعد ذلك ـ رضي الله عنها ـ [(٢)] .

٩ ـ ميمونة بنت الحارث رضي الله عنها :

وأما ميمونة بنت الحارث الهلاليةُ ؛ فقد تزوجها أولا مسعودُ بنُ عمرو الثقفيُّ قبيل الإسلام ثم فارقها ، وتزوجها بعده أبو رُهم بنُ عبد العزى ثم مات ، فتزوج بها النبي ﷺ في وقت فراغه من عُمرة القضاء ، وبنى بها سنة سبع ، في ذي القعدة [(٣)] .

---

(١) رواه أحمد في المسند ٧/ ٤٣٤ ـ ٤٣٥ رقم ٢٦٠٧٩، وانظر: البداية والنهاية ٤/ ٩٢ ـ ٩٣.

(٢) سير أعلام النبلاء ٢/ ٢١٨ ، البداية والنهاية ٥/ ٢٥٧.

(٣) سير أعلام النبلاء ٢/ ٢٣٨ـ ٢٣٩.

١٠ ـ جويرية بنت الحارث رضي الله عنها :

وأما جويرية بنت الحارث بنِ أبي ضرار المُصْطلَقيةُ ؛ فكان زواجُ النبيِّ ﷺ منها سببًا في فكاكها، وفكاك أسرى قومِها من العتق، حيث أعتقها النبي ﷺ ، وتزوّجها لِيسُنَّ بهذا سنة حسنة للمسلمين في عتق مَن بأيديهم خاصة السبايا، فكان زواجُها من رسول الله ﷺ خيرًا وبركة على قومها بني المصطلق ، الذين كانوا يجمعون لحرب رسول الله ﷺ ، بقيادة الحارث بن أبي ضرار والدِ جويرية، ولكن الله أظفر رسولَه عليهم ، وكان هذا سَنَةَ ستٍّ من الهجرة (١) .

قال ابن إسحاق : وحدثني محمد بنُ جعفر بنِ الزبير ، عن عروة بن الزبير ، عن عائشة قالت : لما قسّم رسولُ الله ﷺ سبايا بني المصطلق ؛ وقعتْ جويريةُ بنتُ الحارث في السهم لثابت بن قيس بن الشماس ، أو لِابنِ عمٍّ له ، فكاتبتْه على نفسها ، وكانت امرأة حُلوةً مَلّاحةً لا يراها أحد إلا أخذتْ بنفسه ، فأتت رسول الله ﷺ تستعينه في كتابتها ، قالت عائشة: ما هو إلا أن رأيتُها على باب حجرتي ، فكرِهتُها وعرفت أنه سيرى فيها ﷺ ما رأيت ، فدخلَت عليه ، فقالت : يارسول الله ، أنا جويرية بنت الحارث بن أبى ضرار سيدِ قومه ، وقد أصابني من البلاء ما لم يخْفَ عليك ، فوقعْت في السهم لثابت بن قيس أو لابن عم له ، فكاتبْتُه على نفسي ، فجئت أستعينك على كتابتي ، قال : « فهل لك في خير من ذلك » ؟ قالت : وما هو يا رسول الله ؟ قال : « أقضي عنك كتابتَك وأتزوجك » ، قالت : نعم يا رسول الله .قال : قد فعلت » .

قالت : وخرج الخبر إلى الناس أن رسول الله ﷺ قد تزوج جويرية بنتَ

(١) يراجَع : السيرة النبوية ٢/ ٢٨٩ ـ ٢٩٠.

الحارث بنِ أبي ضرار ، فقال الناس : أصهارُ رسوا الله ﷺ ، وأرسلوا ما بأيديهم ، قالت : فلقد أُعتِق بتزويجه إياها مئةُ أهلِ بيتٍ من بني المصطلق ، فما أعلمُ امرأةً كانت أعظمَ على قومها بركةً منها (١) .

وعن الشعبي قال : أَعتق رسول الله ﷺ جويرية ، واستنكحها وجعل صداقَها عتقَ كلِّ مملوك من بني المصطلق ، وكانت من مِلْك اليمين ، فأعتقَها وتزوجها (٢) .

وهكذا أكرمها رسول الله ﷺ بالزواج من غير إكراه ، وصانها من الابتذال.

ثم إن أباها جاء يطلبها، فخيرها رسول الله ﷺ بين البقاء معه والذهاب مع أبيها، ولكنها حفظت الجميل، وآثرت البقاء مع أكرم الناس ﷺ ، والفوز بشرف أن تكون من أمهات المؤمنين.

« عن أبي قلابة قال: أتى والدُ جويرية، فقال: إن ابنتي لا يُسبَى مِثلُها، فأنا أكرم من ذلك، فقال النبي ﷺ: « أرأيتَ لو خيّرْناها » ؟ فأتاها أبوها فقال: إن هذا الرجلَ قد خيّركِ، فلا تفضحينا، فقالت: فإني قد اخترته، قال: قد والله فضحتِنا » (٣) .

١١ ـ صفية رضي الله عنها

وأما صفية بنت حيي بن أخطب ؛ فقد كانت من جملة السبايا في غزوة خيبر، سنة سبع من الهجرة ، وكانت تزوجت قبله عليه الصلاة والسلام من

---

(١) السيرة النبوية ٢/ ٢٩٤-٢٩٥

(٢) سير أعلام النبلاء ٢/ ٢٦٢.

(٣) السابق ٢/ ٢٦٣.

رجلين ، ثم إن النبي ﷺ أحسن إليها ، فأعتقها وتزوجها وأكرم عشيرتها ، وجعل عِتقَها صداقَها [1] . وفي هذا من الرحمة والمعاملة الإنسانية الراقية ما لا يخفى .

الحالة المعيشية في بيت النبوة :

ونأتي بعد ذلك إلى أحوال المعيشة في بيت النبوة، من حيث رغد العيش وبسطته، أو عدم ذلك .

إن رجلًا في مكان رسول الله ﷺ ومكانتِه ؛ خزائنُ الأموال وفضولُ الثروات تحت يده ، ورهنُ إشارته ، يمكن أن يعيش في ترف كبير، ونعيم مقيم، يُمتِّع نفسه ، ويَغْمُر نساءَه بمتاع الحياة الدنيا وزينتها ، فيمتلئ بيتُه أو تمتلئ قصورُه بما تشتهيه الأنفس وتَلذُّ الأعين من صنوف الطعام ، وناعم الفراش ، وما لا يحصى من فاخر الثياب ، وفارِه المركب ... إلى آخره .

فهل كان رسول الله ﷺ هكذا ؟

إن النبي ﷺ كان يعيش في بيته عيشة الكَفاف ، وعاش معه زوجاته رضوان الله عليهن حياة خشنة قاسية ، حتى إنهن لم يُطِقْنَ الصبر على تلك المعيشة الجافة ، الخاليةِ مما تطفح به بيوت الملوك والرؤساء ، بل مما يكون عادة في بيوت العوام والبسطاء، فأعلنَّ - في يوم من الأيام - عن ضيقهنّ بهذه المعيشة، كما سنشير بعد قليل .

عن عروة بن الزبير ، عن عائشة رضي الله عنها : قالت كان يَمُرّ برسول

---

(١) السيرة النبوية ٢/ ٣٣٦ ، سير أعلام النبلاء ٢/ ٢٣١ ـ ٢٣٢ ، البداية والنهاية ٤/ ١٩٧ـ١٩٨ .

الله ﷺ هلالٌ وهلالٌ وهلالٌ ، ما يوقد في بيت من بيوته نار ، قلت : يا خالة على أي شيء كنتم تعيشون ؟ قالت : على الأسودين : التمرِ والماءِ (١) .

و عن عروة بن الزبير ، عن عائشة أنها قالت : والذي بعث محمدا ﷺ بالحق ما رأى مُنْخُلاً ، ولا أكل خبزًا مَنْخُولًا منذ بعثه الله عز وجل إلى أن قُبض ، قلت : كيف تأكلون الشعير ؟ قالت كنا نقول أف (٢) .

وهذا الواقع كان يلاحظه من له صلة ببيت النبوة، ولم يكن خافيا على أحد، فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: « كان يمر بآل النبي ﷺ هلال ثم هلال، لا يوقد في شيء من بيوتهم النار، لا لخبْزٍ ولا لِطبْخ ، فقالوا: بأي شيء كانوا يعيشون يا أبا هريرة ؟ قال: بالأسودين؛ التمرِ والماءِ، وكان لهم جيرانٌ من الأنصار - وجزاهم الله خيرا - لهم منائح (٣)، يرسِلون إليهم شيئا من لبن»(٤).

وعن عمر رضي الله عنه - من حديث طويل - قال : ... فدخلتُ على رسول الله ﷺ ، وهو مضطجع على حصير ، فجلستُ فأدنى عليه إزاره ، وليس عليه غيره ، وإذا الحصير قد أثّر في جنبه ، فنظرت ببصري في خِزانة رسول الله ﷺ ،

---

(١) رواه أحمد في المسند ٧/ ١٢٦ رقم ٢٤٠٤٠ .

(٢) رواه أحمد في المسند ٧/ ١٠٥رقم ٢٣٩٠٠ . والمُنخُل: الغُربال بضم الميم والخاء، والخبز المنخول: المُغربَل .

(٣) مِنْحة اللبن: أن يعطيَه ناقة أوشاة، ينتفع بلبنها ويعيدها ، النهاية في غريب الحديث والأثر، لابن الأثير ٤/ ٣٦٤.تحقيق الطاهر أحمد الزاوي، محمود محمد الطناحي، دار الفكر، بيروت ١٣٩٩هـ ١٩٧٩م .

(٤) رواه أحمد ٣/ ١٢٢ رقم ٨٩٩٦.

فإذا أنا بقبضة من شعير نحو الصاع ، ومثلها قَرَظًا [(١)] . في ناحية الغرفة ، وإذا أَفِيق [(٢)] معلَّق . قال : فابتدرت عيناي ، قال : « ما يبكيك يا بن الخطاب » ؟ قلت : يانبيَّ الله ومالي لا أبكي وهذا الحصير قد أثّر في جنبك ، وهذه خِزانتُك لا أرى فيها إلا ما أرى ، وذاك قيصر وكسرى في الثمار والأنهار ، وأنت رسول الله ﷺ وصفوته ، وهذه خِزانتك ، فقال : « يا بن الخطاب ألا ترضى أن تكون لنا الآخرةُ ولهم في الدنيا » ؟ قلت : بلى [(٣)] .

كان النبي ﷺ في هذا العيش الخشن ، الذي اكتنف بيوته ، وأحاط بأزواجه، ولو شاء لتخلص منه ، وعاش كما يعيش أبسطُ الناس نعمة ، وأرغدُهم عيشا ، ولكنه آثر أن يكون زاهدًا في الدنيا ، راغبًا عنها ، مكتفيًا بالقليل منها ، لِيقينه بأن متاعها زائل ، وأن الآخرة خير وأبقى .

عن أبي أمامة رضي الله عنه ، عن النبي ﷺ قال: « عَرَض عليَّ ربي ليجعل لي بطحاء مكة ذهبًا ، فقلت : لايارب ، ولكن أشبع يومًا وأجوع يومًا ـ وقال ثلاثًا أو نحو هذا ـ فإذا جُعتُ تضرعتُ إليك وذكرتك، وإذا شبعتُ شكرتك وحمدتك » [(٤)] .

---

(١) القَرَظ: ورق السَّلَم يُدبَغ به ، وقيل : قِشر البلوط ، مختار الصحاح ، ص ٢٢٢.

(٢) الأَفِيق: الجلد الذي لم يتم دباغه ، وجمْعه أُفُق ، كأديم وأُدُم ، مسلم بشرح النووي ١٠/ ٨٣ .

(٣) رواه مسلم في ك الطلاق ، ب بيان أن تخييره امرأته لا يكون طلاقًا إلا بالنية ، شرح النووي ١٠/ ٨٣ رقم ١٤٧٩ .

(٤) رواه الترمذي في ك الزهد ، ب ما جاء في الكفاف والصبر عليه ، رقم ٢٣٤٧، وأحمد في المسند ٦/ ٣٣٩ رقم ٢١٦٨٦.

كان هذا واقعَ بيتِ النبوّة من الناحية المادية، فتضجر زوجات النبي ﷺ من هذه المعيشة الخشنة، والحياة الزاهدة أشدَّ ما يكون الزهد، والتي لم يعهدْنها قبل زواجهن من رسول ﷺ، واتحدْن في المطالبة بزيادة النفقة، وكانت أزمةً عصيبة مرّت ببيت النبوة، وزُلزِل المسلمون من أجلها زلزالًا شديدًا، حتى انقشعت بوحي من الله تعالى، واطمأنت النفوس إلى ما عند الله والدار الآخرة، وإيثارِ الأجر وكريم الجزاء من الله ذي الجلال والإكرام.

وهذه القصة مشهورة في كتب التفسير والسنة والسيرة، لا تخفى على المستشرقين الطاعنين الأفّاكين، وهم يعلمون قبل كلِّ أحد أنها تهدم مزاعمهم، وتدحض مفترياتهم، ولذلك يتجاهلونها، وتتعامى أبصارُهم عنها.

قَالَ تَعَالَى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزۡوَٰجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدۡنَ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيۡنَ أُمَتِّعۡكُنَّ وَأُسَرِّحۡكُنَّ سَرَاحٗا جَمِيلٗا ﴿٢٨﴾ وَإِن كُنتُنَّ تُرِدۡنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلدَّارَ ٱلۡأٓخِرَةَ فَإِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلۡمُحۡسِنَٰتِ مِنكُنَّ أَجۡرًا عَظِيمٗا ﴾ [سورة الأحزاب: ٢٨ ـ ٢٩].

قال الإمام ابن كثير: هذا أمر من الله تبارك وتعالى لرسوله ﷺ بأن يخيِّر نساءه بين أن يفارقهن فيذهبْن إلى غيره، ممن يحصل لهنَّ عنده الحياةُ الدنيا وزينتُها، وبين الصبر على ما عنده من ضيق الحال، ولهنّ عند الله تعالى في ذلك الثواب الجزيل، فاخترْن رضي الله عنهن وأرضاهن: اللهَ والدارَ الآخرة، فجمع الله تعالى لهن بعد ذلك بين خير الدنيا وسعادة الآخرة[(١)].

عن جابر بن عبد الله قال: دخل أبو بكر يستأذن على رسول الله ﷺ، فوجد الناسَ جلوسًا ببابه لم يؤذَن لأحد منهم، قال: فأُذِن لأبي بكر، ثم أقبل

(١) تفسير القرآن العظيم ٣/ ٤٩٦.

عمر فأستأذن ، فأُذن له ، فوجد النبيَّ ﷺ جالسا حوله نساؤه واجما [١] ساكتا ، قال : لأقولنّ شيئا أُضحِك النبيَّ ﷺ ، فقال : يا رسول الله لو رأيت بنت خارجة سألتني النفقةَ فقمتُ إليها فوجأْتُ [٢] عنقَها ، « فضحِك رسول الله ﷺ » ، وقال : هنّ حولي يسألْنَني النفقةَ ، فقام أبو بكر إلى عائشة يجأُ عنقَها ، فقام عمر إلى حفصة يجأُ عنقَها ، كلاهما يقول : تسألْنَ رسولَ الله ﷺ ما ليس عنده ، فقلن : والله لا نسأل رسول الله ﷺ شيئا أبدا ليس عنده ، ثم اعتزلهن شهرًا أو تسعا وعشرين ، ثم نزلت عليه هذه الآية ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزۡوَٰجِكَ ﴾ حتى بلغ ﴿ لِلۡمُحۡسِنَٰتِ مِنكُنَّ أَجۡرًا عَظِيمٗا ﴾ قال : فبدأ بعائشة ، فقال : « يا عائشة إني أريد أن أعرِض عليك أمرًا أُحِبُّ ألا تَعْجلي فيه حتى تستشيري أبويك »؟ قالت : وما هو يا رسول الله ؟ فتلا عليها الآية » ، قالت : أفيك يا رسول الله أستشير أَبَوَيّ ؟ بل أختار الله ورسوله والدار الآخرة ، وأسألك أن لا تُخبِر امرأة من نسائك بالذي قلت ، قال : « لا تسألني امرأة منهن إلا أخبرتها، إن الله لم يبعثني معنّتًا ولا متعنّتًا، ولكن بعثني معلّمًا ميسِّرًا » [٣] .

واختار سائرُ زوجاته الطاهراتِ اللهَ ورسولَه والدارَ الآخرةَ ، فكان لهنّ من الله الكرامة في الدنيا والآخرة ، رضي الله عنهن أجمعين .

فهل يمكن أن تكون هذه حياةُ أو مسلكُ إنسانٍ منغمسٍ في الشهوات

---

(١) واجمًا: أي اشتدّ حزنُه حتى سكت عن الكلام ، شرح النووي ١٠/ ٨١ .

(٢) وَجَأَ يَجَأ: إذا طعن ، السابق ١٠/ ٨٢ .

(٣) رواه مسلم في ك الطلاق ب بيان أن تخييره امرأته لا يكون طلاقًا إلا بالنية ، شرح النووي ١٠/ ٨٠ ـ ٨١ رقم ١٤٧٨ ، وأحمد ٤/ ٢٧٧ رقم ١٤١٠٦ .

المحرَّمة ، غارقٍ في أوحالها ، منهمكٍ في إشباعها ؟؟ .

ثم إن ما أنجزه النبي ﷺ وشاده من أعمال ضخام ، ومهامَّ جسام ،يقطع بأن حياته ﷺ إنْ هي إلا حياة رجلٍ جادٍّ يعيدٍ عن سفاسف الأمور ، ومَعيبِ السلوك ، ونازلِ الأخلاق .

بل إن ما قام به ﷺ وأنجزه في سِنِيِّ حياتِه وعمره ما كان ليحدث إلا على يد إنسان ربانيٍّ ، مؤيَّدٍ بمدد من الله وتوفيق منه ، قويِّ الصلة بربه ، قلْبه مطمئن بالإيمان ، وحياتُه مثلٌ أعلى لكل خُلق كريم وسلوك قويم ، وصورةٌ حية صادقة لما يدعو إليه ، ويبلِّغه من وحي عن ربه الكريم العظيم ..

صلَّى اللهُ وسلَّم وبارَك عليك يا سيدي يا رسول الله .. وحسْبُك شهادةُ ربِّك لك ، في قوله تبارك وتعالى : ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴿٤﴾ ﴾ [سورة القلم] .

المبحث الثاني

الطعن في ربانية الإسلام وعالميته

أولا: ادّعاءُ المستشرقين بشريةَ الإسلام، وإنكارُهم ربانيتّه:

إن هناك ما يشبه الإجماعَ لدى المستشرقين - قديمِهم وحديثِهم - على أن الإسلام دين بشريٌّ، اخترعه محمد، ولفَّقه من مصادر كثيرة، على رأسها اليهودية والنصرانية، ثم غيرِهما من المصادر كالتقاليد التي كانت سائدة في عصره بالجزيرة العربية، وبعض الديانات القديمة.

وممن يجتر هذا الباطل - على سبيل المثال - المستشرق الهولندي "رينهارت دوزي" المتوفَّى عام ١٨٨٣، في كتابه « تاريخ الإسلام »، والمستشرق "فون كريمر" المتوفى عام ١٨٨٩م، في كتابه « تاريخ الأفكار السائدة في الإسلام»(١)، وكذلك المستشرق الألماني "جريمة" في كتابه « محمد »، الذي أخرجه سنة ١٩٠٤م(٢)، والمستشرق الألماني "وهلم رودلف" في كتابه « صلة القرآن باليهودية والمسيحية »(٣)، والمستشرق "جرونيباوم" في كتابه « حضارة الإسلام »(٤)، والمستشرق الفرنسي "مكسيم رودنسون" في كتابه « محمد »(١)،

---

(١) يراجَع: الإسلام في تصورات الغرب، ص ٣٠، ٣٤ وغيرهما.

(٢) يراجَع ١: صور استشراقية، ص ٩٤.

(٣) السابق، ص ٤٩ وما بعدها، وانظر: المستشرقون الناطقون بالإنجليزية، ملحق بكتاب: الفكر الإسلامي الحديث، ص ٤٧٥ - ٥٠٢.

(٤) في صفحات: ١٤، ٩٤، ١١٨، وغيرها.

وكثيرون غيرهم ساء ظنُّهم في الإسلام ونبيه عليه الصلاة والسلام .

ولا ريب في أن أولئك المستشرقين ـ على اختلاف طوائفهم ـ لو كان لديهم قليل من الإنصاف والتجرد للحق ؛ لما وقعوا في هذا الإفك ، ولكن أنَّى لهم الإنصاف والعدل ، وهم ـ في جملتهم ـ مستأجَرون لمحاربة الإسلام ، والصدِّ عن سبيل الله ، وابتغائها عوجا .

ما المانع من أن يكون الدين الذي جاء به محمد ﷺ وحيا إلهيا ؟!!

وبدايةً نقول للمستشرقين كلمة بخصوص نفيهم ربانية الإسلام ، وإنكارهم أن يكون الله تعالى قد أوحى به إلى رسوله محمدٍ ﷺ ، وهي :

إن كنتم تنكرون من حيث المبدأ أن يوحِيَ الله إلى عبد من عباده بدين وشريعة ، ولهذا أنكرتم كونَ رسالةِ ﷺ محمدٍ إلهيّةً ؛ فإنّ هذا ينسحب على رسالة موسى وعيسى عليهما السلام ، وعليه فليست اليهودية ولا النصرانية بشيء ، وينبغي عليكم أن تنكروا على موسى وعيسى عليهما السلام ما تنكرونه على محمد ﷺ من أن يكون دينه إلهيًا .

وأما إن كنتم تؤمنون بمبدأ الوحي ، وتعتقدون أن الله تعالى يمكن أن يوحيَ إلى من يشاء من عباده بالدين والشرائع ، ويُكلّفَه بالرسالة والنبوة ، كما أوحى إلى موسى وعيسى عليهما السلام ؛ فليس يوجَد أيُّ مانعٍ من أن يكون ما جاء به محمد ﷺ وحيًا من عند الله ؟!

---

(١)الفرنسي السافل في الجامعة الأمريكية ، مقال بجريدة الشعب (مرجع سابق) .

وإلا فما الذي يمنع من أن يُرسِل الله رسولًا عربيا بالرسالة الخاتمة ، والشريعة الإلهية التامة الكاملة ؟!

ولا حرج على فضل الله ..

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ ٱللَّهُ يَصۡطَفِي مِنَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلٗا وَمِنَ ٱلنَّاسِۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعُۢ بَصِيرٞ ﴾ [الحج : ٧٥] .

لماذا تجيزون أن يوحيَ الله برسالة إلى نوح ، وإبراهيم ، وداود ، وسليمان ، وأيوب ، وموسى ، وعيسى ، وتمنعون أن يوحيَ الله برسالة الإسلام الخاتمة إلى محمد عليه الصلاة والسلام ؟!

إن الذي أوحى إلي الأنبياء السابقين ، هو الذي أوحى إلى محمد ﷺ بالدين، وصدق الله القائل: ﴿إِنَّآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ كَمَآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ نُوحٖ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعۡدِهِۦ ﴾ [النساء: ١٦٣] .

وهل العقل يمنع من أن يكون محمد ﷺ نبيا مرسلا من رب العالمين بدين إلهيٍّ ، شأنه في هذا شأنُ بقيةِ إخوانه من الرسل ، المذكورين في العهد القديم ، مثل موسى وعيسى وإبراهيم ؟ .

وهل يجحدون ربانية الإسلام لأنه جاء على يد نبيٍّ عربيٍّ ، وليس أوربيًّا ؟ .

ألا يعلم المستشرقون أن أولئك الرسل السابقين كان أكثرهم في المنطقة العربية ؟

لقد كان إبراهيم في العراق ، وجاء إلى فلسطين، ثم إلى مصر، وموسى وُلِد وبعِث في مصر، وعيسى وُلِد في " بيت لحم " من فلسطين، وصالح، وعاد، وشعيب، كانوا في الجزيرة العربية، وسفينة نوح قد رسَت على الجوديّ، وهو

جبل بالعراق على حدود تركيا الآن، ويوسف كان في مصر، ويونس كان في "نينَوَى" من بلاد العراق، بالإضافة إلى أن الفتيةَ أهلَ الكهف، كانوا في منطقة الأردن، وأصحابَ الأخدود كانوا في نجران.

إن رسالة النبي محمد ﷺ جاءت خاتمة الحلقات في سلسلة الوحي الإلهي إلي الخليقة ، الذي ابتدأ منذ آدم ﷺ ، وقد بشر الأنبياء السابقون برسول الله ﷺ .

قَالَ تَعَالَى: ﴿ وَإِذْ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِى ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ ﴾ [الصف: ٦] .

وفي " الكتاب المقدس " الذي يؤمن اليهود بالعهد القديم منه ، ويؤمن النصارى بعهدَيْه القديم والجديد ؛ بشارات عديدة برسول الله محمد ﷺ ، كشف عنها العلماء ، ويمكن الرجوع إليها مفصَّلة في كتب مقارنة الأديان [1] .

تخبط المستشرقين في ذكر مصادر الإسلام - المزعومة - :

هذا؛ ويُغْرِب المستشرقون ويتخبطون في الافتراضات والتخرّصات التي يحاولون بها إثبات أن النبي ﷺ قد أتى بدينه من التراث اليهودي والتراث

---

(١) يراجَع على سبيل المثال: الأجوبة الفاخرة عن الأسئلة الفاجرة ، للإمام القرافي ، تحقيق د/ بكر زكي عوض، ص٤١١ ـ ٤٥٧ ، ط الأولى ١٤٠٧هـ ١٩٨٦م ، بشرية المسيح ونبوة محمد ﷺ في نصوص كتب العهدين ، للشيخ رحْمةِ الله الهندي ، إعداد: د/ محمد أحمد ملكاوي ، ص٢٠١ ـ ٢٧٨ ، ط الأولى ١٤١٣هـ ١٩٩٣م ، إظهار الحق ، تأليف الشيخ رحمةِ الله الهندي ، تحقيق د/ أحمد حجازي السقا ٢/ ٢٣٩ ـ ٣٠٠ ، دار التراث العربي ، القاهرة ، ط الثانية ١٤٠٦هـ ١٩٨٦م .

النصراني وغيرهما ، ولهم في ذلك تخمينات لا ينقضي منها العجب ، حتى إن بعضهم - في كثير من الأحيان - ليهدم ما افترضه البعض الآخر .

« وأقوال هؤلاء القوم تضطرب اضطرابًا واسعًا ، فبينما يعزو بعضهم عمل محمد ﷺ إلى فكر سياسي محض ؛ يري آخرون أن فكرة التوحيد ملكت عليه كل مشاعره ، فنفى من اليهودية والمسيحية كل فكر يخالفها ، وبينما يرى " درمنجيم " الفرنسيُّ أن " بحيرا " الراهب هو مصدر هذا الفكر ومثاره في ذهن محمد ، يتخذ " وات " من قصة بحيرا هذا مثار سخرية ، ويرى أنها من عمل الرواة الإسلاميين ، ويجاري " درمنجيم " من مستشرقي الإنجليز " رودويل " و " مرجليوث " و " بل " و " جيوم " ، وبعض هؤلاء توسع في افتراضاته حتى أبدى كلَّ مسيحيٍّ أو يهوديٍّ أو طارئٍ على مكة والمدينة من ذوي الثقافة والدرس ؛ أفاد محمدًا ﷺ بشيء ، حتى إنهم يذكرون زوجته " مارية " القبطية ، وسلمان الفارسيَّ ، وزوجيْه " جويرية " و " صفية " »[(١)] .

بل إن أحدهم ليتعب نفسه أحيانًا في تخيل الافتراضات والتخمينات ، ثم يقرر هو بنفسه في نهاية المطاف أنه لا يوجد ثمة دليل يعضد مفترضاته (أو بالأحرى مفترياته) ، مثل ما حدث من المستشرق اليهوديِّ الألمانيِّ " ولهلم رودلف " ، إذ يقول :

« إننا لمضطرون أن نفترض أن اليهودية والمسيحية قد عرفتا السبيل إلى مكة التي يعنينا أمرها كثيرًا ، لأنها موطن محمد ، وإن لم يكن ثَم ما يثبت أنه كان بها يهود أو مسيحيون في عهد محمد ، ومن العسير أن نظن أنه كان بها كثير منهم ،

---

(١) صور استشراقية ، ص ٣٥ .

وإلا لاحتفظت لنا السير بأنباء أكثر إسهامًا مما تناهى إلينا »[(١)] .

ولو تتبعنا ما يتعلق به جمهور المستشرقين من حجج، لإثبات أن الإسلام مأخوذ من اليهودية والنصرانية وغيرهما؛ لوجدناها في غاية الضعف والوهن، إذ إنها ـ في مجموعها ـ عبارة عن افتراضات وظنون وتخمينات ، لا تثبت أمام الحقائق الدامغة التي تنطق بها سيرة الرسول ﷺ ، وما تحتويه دعوته من عقائد وتشريعات .

سيرة النبي ﷺ تبطل مزاعم المستشرقين :

إن الثابت من سيرته ﷺ أنه كان أمّيًّا لا يقرأ ولا يكتب ، وهذا ما أكّده القرآن الكريم في قوله تعالى : ﴿ وَمَا كُنتَ تَتْلُوا۟ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ إِذًا لَّٱرْتَابَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴾ [العنكبوت: ٤٨] .

فكيف تهيّأ له عليه الصلاة والسلام أن يطالع في " الكتاب المقدس " بعهديه القديم والجديد ، أو في " التلمود " ، ويحصّل ما فيه ، وهو الأميُّ الذي لا معرفة لديه بالقراءة ولا الكتابة ، كشأن كثيرين من العرب في عهده ﷺ ؟ .

ومع افتراض أن النبي ﷺ كان يجيد القراءة والكتابة، فلن يتسنى له أن يطالع في " الكتاب المقدّس " ويحصّل ما فيه ، لأنه لم تكن هناك نُسَخ منه مترجمةٌ إلي اللغة العربية ، متوفرةٌ ومتاحةٌ لمن أراد الاطلاع عليها من العرب في الجزيرة العربية ، وخاصة في مكة مهبط الوحي الأول ، والتي لم يكن لليهودية والنصرانية فيها ـ حينذاك ـ وجود يذكر .

---

(١) السابق ص٥٠ .

وقد قرر مؤلِّفو " قاموس الكتاب المقدس " - بشأن ترجمته إلى اللغة العربية - ما يلي :

« إن انتشار الإسلام خارج حدود الجزيرة العربية بعد موت محمد (٦٢٣م) تبعه ترجمات كثيرة للكتاب المقدس في اللغة العربية ، ومن الممكن أن ترجمات جزئية وجدت قبل الإسلام، وفي القرن السابع كان يستعملها مسيحيو الشرق، وإننا نعرف أكيدًا عن وجود ترجمة قام بها " يوحنا " أسقف إشبيلية في أسبانيا عام ٧٢٤ ، قاصدًا أن يساعد المسيحيين والمغاربة بواسطتها .

وقد اكتُشِف حديثًا مخطوطات لأجزاء من الكتاب المقدس في مكتبة دير القديسة كاترين ، بعضها مؤرخ يرجع إلي القرن التاسع الميلادي ، وبعضها من غير المؤرخ ويرجع إلي القرن الثامن الميلادي » (١) .

فليس هناك إذًا دليل قاطع على وجود ترجمة للكتاب المقدس في اللغة العربية ، يمكن أن يفيد منها النبي ﷺ ، ولم يكن النبي ﷺ على علم بأية لغة أجنبية ، لا سيما التي كان الكتاب المقدس مكتوبًا بها ، في عصره ﷺ .

وأما المفترضات العريضة بأن أشخاصًا ما لا بد أن يكونوا معلمي محمدًا، ومصدر تلقين له مثل ورقة بن نوفل ، وبحيرا الراهب ، وسلمان الفارسي ، وبعض أحبار اليهود والموالي ، والتجار ، وغيرهم كثير ممن جادت بهم قرائح المستشرقين وخيالاتهم الواسعة ؛ فليس في كتب السيرة والتاريخ ما ينهض دليلًا مسعفا لأي من تلك المفترضات ، والمستشرقون أنفسهم هدم بعضهم ما

---

(١) قاموس الكتاب المقدس، تأليف نخبة من ذوي الاختصاص ومن اللاهوتيين، ص ٧١١، دار الثقافة – القاهرة، ط التاسعة ١٩٩٤م .

افترضه البعض الآخر ، وقد أشرنا إلى مثال لهذا الاضطراب منذ قليل .

وعلى افتراض أن النبي ﷺ تعلم على يد هؤلاء المعلمين الكثيرين الذين زعمهم المستشرقون ؛ ألا يحتاج هذا التعليم إلى أوقات كثيرة ، بل إلى انقطاع للدرس والتحصيل من جانب محمد بن عبد الله ؟ ويحتاج كذلك إلى أسفار ورحلات هنا وهناك وهنالك للأخذ عمن هو خارج مكة منهم ؟ .

فمتى كان هذا الانقطاع والتردد على هؤلاء المعلمين من جانب محمد ؟ ومتى كان هذا السفر والترحال للأخذ عمن هو خارج مكة ؟

ولو حصل شيء من هذا لكان مشهورًا ، ومعروفًا للقاصي والداني من معاصريه ، خاصة خصومَه ومعارضيه، ولا تخذوه سلاحًا يشهرونه في وجهه، حينما يقول لهم إن الله أرسلني إليكم بهذا الدين ، ولقالوا له : هل نسيت أن الذي علمك هذا كله ولقنك إياه فلا ن وفلان من هنا أو هناك ، فكيف تزعم أن الله أوحى إليك به ؟

ولكن شيئا من هذا لم يحدث .

وحياة النبي ﷺ وسيرته ليس فيها ما يشير إلي ذلك وأمثاله ، بل فيها ما يفنده ويدحضه .

فقد ولد ﷺ يتيما ، وقضى طفولته الباكرة في ديار بني سعد عند مرضعته السيدة حليمة السعدية رضي الله عنها ، ثم بعد ذلك عاد إلى مكة ، وبقي في كفالة جده عبد المطلب ، وقضى جزءً من طفولته في رعي الغنم ، ثم انتقل بعد ذلك في التجارة ، والمعروف أنه ﷺ خرج إلى الشام مرة في تجارة مع عمه وهو ابن اثنتي عشرة سنة ، وهي المرة التي لقي فيها الراهب بحيرا لقاءً عابرًا ، ثم مرة أخرى في تجارة للسيدة خديجة رضي الله عنها، ثم بعد ذلك تزوجها، وبقي

في مكة، ثم مالت نفسه الشريفة ﷺ إلى العزلة، ثم أخذ يتحنث في غار حراء ويبقى فيه الليالِيَ ذوات العدد، حتى نزل عليه الوحي بقوله تعالى: ﴿ اقْرَأْ ﴾ [العلق: ١]، وبعدها بدأت مسيرة الدعوة والجهاد المتواصل، حتى أتاه اليقين.

أليست هذه حياةَ الرسول ﷺ بإجماع كتب السيرة والتاريخ ؟ فهل كان فيها فرصة للتنقل بين يدي هذا المعلم أو ذاك في مكة أو خارجها ؟ .

التشريعات التي تضمّنها الإسلام تؤكِّد ربانيّته :

ثم إن الدين الذي جاء به محمد بن عبد الله ﷺ لم يكن يحتوي علي بضعة مبادئ ، أو قليل من التشريعات ، وإنما اشتمل علي عقائد ، وعبادات ومعاملات وأخلاق ؛ بل على كل ما ينظم أمور الناس في معاشهم ومعادهم .

فكيف تهيأ لمحمد ﷺ أن يتعلم ويحصل كل هذا وهو ثاوٍ في مكة ، لم يَبْرحها إلا في رحلتين تجاريتين إلى الشام ، إحداهما وهو صبي في الثانية عشرة من عمره ، والأخرى وهو شاب لم يتجاوز الخامسة والعشرين من عمره ؟ .

وكيف استطاع أن يتعلم كلَّ هذا ويحصله ـ زعموا ـ ، وهو الأمي الذي لم يقرأ ولم يكتب ؟! .

ثم إننا سنفترض جدلًا أن الإسلام ملفق من اليهودية والنصرانية ، وأنه ـ على زعم المستشرقين ـ فرع منبثق من هذين الأصلين ـ المزعومين ـ ، وصورة عنهما ، واقتباس منهما ..

وعلى هذا الافتراض نتساءل : أليس ثمة علاقة بين الأصل والفرع ، أو بين الأصل والصورة ، وبين المنقول والمنقول عنه ؟ .

وإذا كانت هناك علاقة ـ وهذا كائن ـ فهل هي علاقة تضادٍّ وتناقض ، أم

علاقة تشابه وتطابق ؟ .

إن الذي يشهد به الواقع أن الفرع يكون عادة مشابهًا لأصله ، وأن الصورة تكون عادة مطابقة لأصلها ، وأن بين المنقول والمنقول عنه قواسمَ مشتركةً كثيرة .. هذا واقع لا ينكره إلا غافل أو متجاهل .

فإذا كان الإسلام ـ كما يزعم المستشرقون ـ فرعًا منبثقًا من اليهودية والنصرانية ، وملفقًا من كليهما ؛ فهل جاءت عقائده وتشريعاته مماثلة لعقائد وتشريعات كل منهما ، أم مخالفة لها ومناقضة ؟ .

الواقع أن الإسلام خالَف كُلًّا من اليهودية والنصرانية في الجوهر ؛ في الصميم .. في الأصول .. وهذا بادٍ لكل من كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد .

فإذا كان هذا الخلاف الجوهريُّ قائمًا وواقعًا منذ أول لحظة بُعِث فيها الرسول ﷺ ، فكيف يكون الإسلام مأخوذا من اليهودية والنصرانية ؟ وأيُّ شيء يكون قد أخذه إذن ؟! .

هل أخذ منهما عقيدة التوحيد ؟ .

هل أخذ منهما الإيمان بعصمة الأنبياء ؟ .

هل أخذ منهما عقيدة الإيمان بأن الله ـ تعالي ـ يجب له كل كمال يليق بذاته ، ويستحيل في حقه كلُّ نقص ؟ .

هل أخذ منهما أن عيسى ﷺ لم يُصلَب ، ولم يُقتَل ولكنه رفع إلى السماء ، وأنه بشر رسول ، وليس إلها ، ولا ابَن إله ؟ .

هل أخذ منهما الصلواتِ الخمس ، وصومَ رمضان ، وحجَّ البيت الحرام ،

وإيتاءَ الزكاة ، وأحكامَ الجهاد ، على النحو المفصَّل في الشريعة الإسلامية ؟

هل أخذ منهما أحكامَ الزواجِ والطلاقِ ، وتعددَ الزوجاتِ ، وتشريعَ المواريثِ ... ؟ .

إن كلَّ هذا الذي تساءلنا بحقه ، وغيرَه كثير ، لا وجود له عند اليهود والنصارى ، إنما الذي عندهم نقيض له تمامًا !!

فكيف يكون الإسلام صورة عن اليهودية والنصرانية ، وبينه وبينهما خلافٌ واسع ، وبَونٌ شاسع ؟! .

هناك أصول مشتركة بين رسالات الأنبياء :

ولو افترضنا أن ثمة تشابها بين الإسلام ، وكلٍّ من اليهودية والنصرانية في شيء ما ، فهذا ليس دليلًا على أنه مأخوذ منهما ، وإنما يكون دليلًا على وَحدة المنبع والمصدر ، وهو الوحيُ الإلهيُّ .

ونحن المسلمين نعتقد أن هناك أصولًا مشتركةً بين الرسالات جميعًا ، ما من نبيٍّ أو رسولٍ إلا جاء بها ، ودعا قومَه إليها .

ومن ذلك العقائد وهي الإيمان بلله تعالى وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر ، وكذلك أصول الأخلاق ، وأصول العبادات ، كالصوم والصلاة والزكاة ونحوها ، وإن كانت كيفيّة هذه العبادات قد تختلف من شريعة لأخرى ، لكن أصلها موجود عند الجميع ..

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ ﴾ [الشورى: ١٣] .

فلو كان ثَمّةَ تشابهٌ في أمر ما فمردُّه إلى هذا الذي ذكرنا ، لا إلى أن الإسلام

مقتبس من غيره .

وهذه حقيقة أكّد عليها المنصفون من أهل الكتاب لما عرَفوا الإسلام ، واستمعوا القرآن ، كما حدث من النجاشيِّ " أصْحَمة " رضي الله عنه ، حينما قام جعفر بن أبي طالب رضي الله عنه خطيبا أمامه ، ثم قرأ عليه صدْرا مِن سورة مريم ، وذلك إبّان هجرةِ المسلمين إلى الحبشة ، عندها بكى النجاشيُّ حتى ابتلَّت لحيتُه ، ثم قال :

« إن هذا والذي جاء به عيسى ليَخْرُج من مشكاة واحدة »[1] .

هذا ، وللقوم في هذا الباب مغالطات كثيرة ، كلُّها على هذا النهج من التخبط ، وفساد القول ، ولو تتبعناها لطال بنا الحديث ، وهي جميعًا تخمينات وافتراضات لا أساس لها من الحقيقة ـ كما رأيت ـ وحسبنا تلك الوقفة القصيرة التي بان من خلالها زيفُ مزاعمهم ، وبطلانُ اتهامهم .

وننتقل إلى صورة أخرى من مفترياتهم .

ثانيا : الطعن في عالمية الإسلام :

واستمرارًا لحملات المستشرقين وأضرابهم للقضاء على الإسلام، ومحاولاتهم إضعافَ شأنه في نفوس المسلمين ، والغضِّ من قيمته وتشويهَ صورته ، وإيقافَ انتشارِه ومَدِّه ؛ راح كثير منهم يتشدقون بالقول بأن الإسلام لم يكن دينا عالميًا ، وأن محمدًا نفسَه لم يكن في حسبانه أو في منهجه أن يتوسع في الدعوة إلى الإسلام خارج دائرة الجزيرة العربية ، فالإسلام لا يعدو أن يكون

(1) راجع القصة بتمامها في : السيرة النبوية لابن هشام ١/ ٣٣٤ ـ ٣٣٨ .

دعوة محلية إقليمية ، نادي بها رجل محلي كذلك .

والمستشرقون على اختلاف طوائفهم يحاولون أن يُبلِّغوا ـ قدر استطاعتهم ـ رسالة إلى العالم ؛ مفادُها أن الإسلام ليس جديرًا بأن يتجاوز دائرة العرب ، وأنه دينٌ خاصٌّ بقوم يعتبرهم الغرب في عداد الشعوب المتخلفة ، والأجناس المنحطة المتأخرة ، فكيف يَسُوغ لأمم الغرب الراقية أن تعتنق هذا الدينَ المحلّيَّ ـ في نظرهم ـ ،وكيف يَحِقُّ للعرب أن يتطلعوا إلى نشره في العالمين ، أو يعتقدوا صلاحيتَه وأهليّتَه لقيادة البشرية ؟ هذا في عقيدة المستشرقين ما لا يجوز .

لهذا وغيره كان لا بد من شنِّ حملة ضارية ، يتولى كِبْرَها المستشرقون ومَن يدورون في فلكهم ، لتجريد الإسلام من خَصِيصَة العالمية ، والنيلِ من هذه السِّمَة ما استطاعوا إلى ذلك سبيلا ، فكان أن ملأوا الدنيا صِياحًا بأنّ الإسلام ليس دينًا عالميًّا ، ضاربين ـ كعادتهم ـ بكل الحقائقِ الدامغةِ عُرْضَ الحائط ، ونزلوا ميدان البحث العلميِّ حاملين هذا المعتقدَ الذي كوّنوه سلفا ، عازمين على إثباته بشتى الطرق .

يقول " ديورانت " ـ في سياق حديثه عن النبي ﷺ ـ : « ولكن يبدو أنه لم يفكر قط في توسيع سلطانه خارج حدود بلاد العرب » [(١)] .

وقد « نشرت مجلة (التاريخ) مقالين للأستاذ " سوندرس " المحاضر الأول بقسم التاريخ بجامعة " نيوزيلاندة " ، وقد جعل عنوان المقالين: (الخليفة عمر المستعمر العربي) ، وذهب فيهما إلى أن ابتداء انتشارِ الإسلام خارج الجزيرة العربية ، إنما كان من عمل هذا الخليفة ، ولم يكن عملًا داخلًا في

---

(١) قصة الحضارة ١٣/ ٤١ .

برنامج الدعوة المحمدية ، لأن محمدا « عليه السلام » لم يفكر في دعوة أحد غير العرب إلى الإسلام » (١) .

وأغرب من هذا كله ما يتبجح به هذا المستشرق(سوندرز) ، إذ يقول ـ في صفاقة يُحسَد عليها ـ :

« ما من دليل وافٍ يدلّ على أن محمدًا كان يتصور الإسلام دينا عالميا لجميع الناس ، أو يتصور أنه أُرسِل لهداية شعبٍ من الشعوب غيرِ شعبِه العربيّ .

[ثم يضيف] : ولا شك أن محمدًا لم يفكر في فتح العالم ، وإنما اعتقد أن واجبه الأول أن يمهِّد لأبناء أمته أسباب الإيمان بدينه ، فإذا صدّوه عن دعوته فواجبه إذن أن يقابل القوة بالقوة » (٢) .

وكذلك نرى المبشرين يثيرون دائمًا القول بأن رسالة النبيِّ ﷺ هي قومية عربية ، وليست عالمية لعموم الإنسانية ، وأن انتشارها بين غير العرب إنما هو نتيجةُ حركةِ الفتوحات بعده وحسب (٣) .

تضافر الأدلة على بطلان ادعاء المستشرقين أن الإسلام دين عربيٌّ محليٌّ

والحق أن ما يزعمه أولئك المستشرقون من أن الإسلام دعوة محلية خاصة بالعرب؛ وأن الرسول ﷺ لم يخطر بباله يومًا أن دعوته عالمية؛ إنما هو زعم متهافت، تدحضه دلائل كثيرة، وتُبْطله حُجَجٌ عديدة راسخة، واضحة

---

(١) المستشرقون والإسلام ، زكريا هاشم ، ص ٢٨٧ .

(٢) ما يقال عن الإسلام ، العقاد ، مجموعة الأعمال الكاملة ٦/ ٤٢٤ ـ ٤٢٥ باختصار .

(٣) يراجَع: المبشرون والقرآن، محمد عزة دروزة، ص ٢٨٦، المكتب الإسلامي – بيروت، ط الثانية ١٣٩٧هـ .

كالشمس في ضحاها ، وقوية قوة الجبال الراسيات ، وهي لا تخفى على أيّ مُطالِع للقرآن الكريم والسنة المطهرة ، وقارئٍ للسيرة النبوية المعطَّرة ، ولا يجحدها إلا مكابرٌ ، سقيمُ الفؤاد مريضُ النفس .

ففي القرآن الكريم والسنة والسيرة ما يؤكد على أن خَصِيصة العالمية مقترنة بالدعوة الإسلامية ، وثابتة وحاضرة بوضوح في فهم ونهج الداعي الأول سيدنا محمد ﷺ ، منذ بزوغ فجر الإسلام ، وشروق شمسه على الدنيا ، وها هي ذي بعض الأدلة على ذلك :

إن القرآن الكريم - مكيَّهُ ومدنيَّه - حافلٌ بالكثير من الأدلة التي تنطق بوضوح ، وتدلل بجلاء على أن دعوة الإسلام إنما هي لجميع الناس.

فمما ورد بهذا الشأن في القرآن المكيِّ قوله تعالى :

﴿ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ۖ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِىِّ ٱلْأُمِّىِّ ٱلَّذِى يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَكَلِمَٰتِهِۦ وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾ [الأعراف: ١٥٨] .

﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴾ [الأنبياء:١٠٧] .

﴿ الٓر ۚ كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ﴾ [إبراهيم: ١] .

﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ﴾ [سبأ:٢٨] .

﴿ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْءَانٌ مُّبِينٌ ﴾ [يس: ٦٩] .

ومما ورد في القرآن المدني قوله تعالى :

﴿ وَأَرْسَلْنَٰكَ لِلنَّاسِ رَسُولًا ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ﴾ [النساء: ٧٩] .

﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُ ۚ ﴾ [النساء:١٠٥] .

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدۡ جَآءَكُمُ ٱلرَّسُولُ بِٱلۡحَقِّ مِن رَّبِّكُمۡ فَـَٔامِنُواْ خَيۡرٗا لَّكُمۡ ﴾ [النساء:١٧].

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدۡ جَآءَكُم بُرۡهَٰنٞ مِّن رَّبِّكُمۡ وَأَنزَلۡنَآ إِلَيۡكُمۡ نُورٗا مُّبِينٗا ﴾ [النساء: ١٧٤]

﴿ إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلۡإِسۡلَٰمُ ﴾ [آل عمران:١٩] .

﴿ وَمَن يَبۡتَغِ غَيۡرَ ٱلۡإِسۡلَٰمِ دِينٗا فَلَن يُقۡبَلَ مِنۡهُ وَهُوَ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ ﴾ [آل عمران:٨٥] .

وقد جاء في موضعين من القرآن الكريم قوله تعالي: ﴿ هُوَ ٱلَّذِيٓ أَرۡسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلۡهُدَىٰ وَدِينِ ٱلۡحَقِّ لِيُظۡهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡمُشۡرِكُونَ ﴾ [التوبة: ٣٣] .

وفي موضع ثالث قوله سبحانه: ﴿ هُوَ ٱلَّذِيٓ أَرۡسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلۡهُدَىٰ وَدِينِ ٱلۡحَقِّ لِيُظۡهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدٗا ﴾ [الفتح: ٢٨].

وقد بشّر النبيُّ ﷺ بأن الإسلام سوف ينتشر في أرجاء المعمورة، ويسري في أنحاء الدنيا، فعَنْ تَمِيمٍ الدَّارِيِّ، قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ الله ﷺ يَقُولُ: «لَيَبْلُغَنَّ هَذَا الْأَمْرُ مَا بَلَغَ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ، وَلَا يَتْرُكُ اللهُ بَيْتَ مَدَرٍ وَلَا وَبَرٍ إِلَّا أَدْخَلَهُ اللهُ هَذَا الدِّينَ، بِعِزِّ عَزِيزٍ أَوْ بِذُلِّ ذَلِيلٍ، عِزًّا يُعِزُّ اللهُ بِهِ الْإِسْلَامَ، وَذُلًّا يُذِلُّ اللهُ بِهِ الْكُفْرَ » وَكَانَ تَمِيمٌ الدَّارِيُّ يَقُولُ: « قَدْ عَرَفْتُ ذَلِكَ فِي أَهْلِ بَيْتِي، لَقَدْ أَصَابَ مَنْ أَسْلَمَ مِنْهُمُ الْخَيْرُ وَالشَّرَفُ وَالْعِزُّ، وَلَقَدْ أَصَابَ مَنْ كَانَ مِنْهُمْ كَافِرًا الذُّلُّ وَالصَّغَارُ وَالْجِزْيَةُ »[١].

---

(١) رواه أحمد ٥/ ٧٣ رقم ١٦٥٠٩، والطبراني ـ كما في مجمع الزوائد ٦/ ١٤ـ ، وقال الهيثمي: ورجال أحمد رجال الصحيح، والحاكم في ك الفتن والملاحم ٤/ ٤٣٠ ـ ٤٣١، وقال: هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه، ووافقة الذهبي .

وعن سلمان الفارسي، أنه قال: ضربْتُ في ناحية من الخندق، فغلُظَتْ عليَّ صخرةٌ، ورسول الله ﷺ قريب منّي، فلما رآني أضرب ورأى شدةَ المكان عليَّ، نزل فأخذ المِعْولَ من يدي، فضرب به ضرْبة لمعتْ تحت المعْول برقةٌ، قال: ثم ضرب به ضربةً أخرى، فلمعت تحته برقة أخرى، قال: ثم ضرب الثالثة، فلمعت تحته برقة أخرى، قال: بأبي أنت وأمي يا رسول الله! ما هذا الذي رأيت لمع تحت المعول وأنت تضرب؟ قال: « أوَ قَد رأيتَ ذلك ياسلمان »؟ قال: قلت نعم؛ قال: « أما الأولى فإن الله فتح عليَّ بها اليمن، وأما الثانية فإن الله فتح عليّ بها الشام والمغرب، وأما الثالثة فإن الله فتح علي بها المشرق » (١) .

وفي رواية البراء بن عازب قال : أمرنا رسول اللهﷺ بحفر الخندق ، قال : وعرَض لنا صخرة في مكان من الخندق لا تأخذ فيها المعاول ، قال : فشكوْها إلى رسول الله ﷺ ، فجاء رسول الله ﷺ ـ قال عوف : وأحسبه قال : وضع ثوبه ـ ثم هبط إلي الصخرة فأخذ المعول فقال : « بسم الله » ، فضرب ضربة فكسر ثلث الحجر، وقال: « الله أكبر أعطيت مفاتيح الشام ، والله إني لأُبصِر قصورها الحُمر من مكاني هذا »، ثم قال : « بسم الله » ، وضرب أخرى فكسر ثلث الحجر ، فقال : « الله أكبر أعطيت مفاتيح فارس ، والله إني لأُبصِر قصرها الأبيض من مكاني هذا » ، ثم قال : « بسم الله » ، وضرب ضربة أخرى فقلع بقية الحجر ، فقال : « الله أكبر ، أعطيت مفاتيح اليمن ، والله إني لأُبصر أبواب

---

(١) رواه ابن إسحاق في السيرة النبوية ٢/ ٢١٩، والنسائي في ك الجهاد ب غزوة الترك والحبشة ٦/ ٤٣-٤٤، وحسن الحافظ ابن حجر إسناده في الفتح ٧/ ٤٥٨، وروى نحوه البخاري مختصرًا في ك المغازي ب غزوه الخندق. فتح الباري ٧/ ٤٥٦ رقم ٤١٠١.

صنعاء من مكاني هذا » (١) .

قال ابن إسحاق : وحدثني مَن لا أتّهِمُ عن أبي هريرة أنه كان يقول حين فُتِحت هذه الأمصار في زمان عمر وزمان عثمان وما بعده : افتحوا ما بدا لكم، فوالذي نفس أبي هريرة بيده ما افتتحتم من مدينة ولا تفتتحونها إلى يوم القيامة إلا وقد أُعطِي محمد ﷺ مفاتيحَها قبل ذلك (٢) .

ثم إن النبي ﷺ بعث إلى ملوك الأرض الذين يدينون بغير الإسلام ، ـ في عصره ـ برسائل يدعوهم فيها إلى الدخول في دين الإسلام وترْكِ ما عداه .

عن أنس رضي الله عنه أن نبي الله ﷺ كتب إلى كسرى وإلى قيصر وإلى النجاشيّ ، وإلى كل جبار يدعوهم إلى الله تعالى (٣) .

وهاتان رسالتا كسرى وقيصر، اللتان بعث بهما رسول الله ﷺ إليهما، يدعوهما إلى الدخول في الإسلام :

١ ـ رسالة كسرى :« بسم الله الرحمن الرحيم ، من محمد رسول الله إلى

---

(١) رواه أحمد ٥/ ٣٩٠ رقم ١٨٢١٩، وإسناد حسن ـ كما أفاد ابن حجر في الفتح ٧/ ٤٥٨ ـ .

(٢) السيرة النبوية ٢/ ٢١٩ .

(٣) رواه مسلم في ك الجهاد والسير، ب كتب النبي ﷺ إلى ملوك الكفار يدعوهم إلى الإسلام، شرح النووي ١٢/ ١١٢ رقم ١٧٧٤.
وللوقوف على هذه الرسائل، ومَن أُرسلَتْ إليهم مِن الملوك والرؤساء يُراجَع: زاد المعاد في هدي خير العباد، لابن القيم الجوزية ١/ ١١٩ـ ١٢٤، تحقيق وتعليق شعيب الأرنؤط، عبد القادر الأرنؤط، مؤسسة الرسالة – بيروت، ط السادسة والعشرون ١٤١٢هـ ١٩٩٢م، السيرة النبوية ٢/ ٦٠٦ ـ ٦٠٧، البداية والنهاية ٤/ ٢٦٢ ـ ٢٧٢.

كسرى عظيم فارس ، سلامٌ على من اتبع الهدى ، وآمن بالله ورسوله ، وشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأن محمدًا عبده ورسوله ، وأدعوك بدعاء الله ، فإني أنا رسول الله إلى الناس كافة لأُنذِر من كان حيًّا ويَحِقَّ القول على الكافرين ، فإن تُسْلِم تَسْلَم ، وإن أبيْتَ فإنّ إثمَ المجوسِ عليك » (١) .

٢ ـ رسالة قيصر : «بسم الله الرحمن الرحيم، من محمد رسول الله إلى هرقل عظيم الروم، سلامٌ على من اتبع الهدى، أما بعد فإني أدعوك بدِعاية الإسلام، أَسْلِمْ تَسْلَمْ، وأَسْلِمْ يُؤتِك الله أجرك مرتين، فإن تَولَّيْت فعليك إثمُ الأريسيّين (٢)، ﴿ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْاْ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقُولُواْ ٱشْهَدُواْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴾(٣)، [آل عمران : ٦٤] .

فهل بعد هذا الذي ذكرنا من نصوص القرآن الكريم والسنة النبوية ، ووقائع السيرة ، وتصرفات رسول الله ﷺ يكون هناك مجال للزعم بأن مبدأ عالميةِ الإسلام ودعوتِه لم يَطُفْ بخيال محمد ﷺ في يوم من الأيام ؟! .

(١) البداية والنهاية ٤/ ٢٦٨، وعزاه إلى ابن جرير .

(٢) قال الإمام النووي: واختلفوا في المراد بهم على أقوال، أصحُّها وأشهرُها أنهم الأكّارون، أي الفلاحون والزارعون . مسلم بشرح النووي ١٢/ ١٠٩، وانظر: النهاية في غريب الحديث والأثر ١/ ٣٨ ، فتح الباري ١/ ٥١ .

(٣) رواه البخاري في ك الجهاد ، ب دعاء النبيﷺ الناس إلى النبوة ، فتح الباري ٦/ ١٢٨رقم ٢٩٤١ ، ومسلم في ك الجهاد ب كتب النبيﷺ إلى هرقل ملك الشام يدعوه إلى الإسلام ، شرح النووي ١٢ / ١٠٣ـ ١١٠رقم ١٧٧٣، وأحمد ١/ ٤٣٣ ـ ٤٣٤ رقم ٢٣٦٦.

ومن العجب العجاب أن يذهب المستشرق " سوندرز " سالفُ الذكر إلى ردِّ هذه الأدلة التي تنسف مزاعمه ، من كون الإسلام دعوةً محلية خاصةً بعرب الجزيرة فقط ، ويقول في صفاقة نادرة :

« وليست قصة رسائله [أي: النبي ﷺ] إلى الإمبراطور هرقل ، وشاه فارس ، وملك الحبشة وغيرهم من الرؤساء ، للدخول في دينه بالقصة التي تقوم على أساس » (1) .

فإذا كان ما ورد في الصحاح وخاصة صحيحي البخاري ومسلم ، وتضافرتْ على روايته كتبُ التاريخ والسيرة ؛ لا يقوم على أساس عند هذا المستشرق المتعالم ،فما الذي يقوم على أساس إذن ؟! .

إنه ـ على ما يبدو ـ لا أحدَ أصلبُ منه وجْهًا، ولا يُدرَى مِن أيِّ أديم الأرض شُقَّ وجهُه !! .

وإن هذا لمسلك ـ في البحث ـ منكر وعجيب، ولا ينمُّ إلا عن جهل، أو عجز وإفلاس .

أجل ، عجْز عن مواجهة الحجج الدامغة ، وهروب من الموجهة ، وإفلاس من الدليل والبرهان الذي يساند ما يزعمه ويدعيه.

إذا كانت هذه الأدلة الصحيحة في ثبوتها ، الصريحة في مدلولاتها ، لا تصح عند هذا المستشرق وأضرابه ، فما الذي يصح عندهم ؟! .

لا يضرُّنا أن يردوا ما صح عندنا ـ وليس ينكره أحد من المنصفين ـ وليسمحوا لنا أن ندلِّم على ما يصح عندهم بهذا الخصوص، ونحن من جانبنا

---

(1) ما يقال عن الإسلام، العقاد، مجموعة الأعمال الكاملة ٦/ ٤٢٤ .

لن نردَّه ، وسنُمْسِك عن القول بعدم صحته .

فقد ذكر إنجيل متّى أن المسيح عليه السلام أرسل تلاميذه الإثني عشر، وأوصاهم قائلًا :

« إلى طريق أمم لا تمضوا ، وإلى مدينة للسامريين لا تدخلوا ، بل اذهبوا بالحَرِيّ إلى خراف بيت إسرائيل الضالة » (١) .

ولما جاءته امرأة كنعانية تستغيث به ليشفيَ ابنتَها، وطلب منه تلاميذه أن يصْرِفها أجاب وقال - كما يذكر متى - :

« لم أُرسَل إلا إلى خِراف بيت إسرائيل الضالة » (٢) .

فهل يتفضل المستشرقون ببيان كون النصرانية ديانة محلية ، ومطالبة النصارى بأن لا يبشِّروا بها على مستوى العالم ، لأنها ليست عالمية بإخبار أناجيلهم ؟

وهكذا يصرح المسيح عليه السلام بأنه لم يرسَل إلى غير الإسرائيليين ، بينما يصرِّح القرآن الكريم بعالمية الرسالة المحمدية في قول ربِّ العالمين : ﴿ قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ﴾ [الأعراف:١٥٨] .

وتبقى الحقيقة مشرقة في سماء الكون مهما أنكرها الجاحدون ، وهي أن الإسلام دين الله للناس كافة ، ورحمةُ الله للعالمين .. فالحمد لله الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله .

---

(١) الإصحاح الخامس عشر : ٢٤ .

(٢) الإصحاح الخامس عشر : ٢٤.

المبحث الثالث

نقض دعوى المستشرقين أن قصص القرآن الكريم مأخوذ من العهد القديم

وتأسيسا على افتراء المستشرقين القولَ ببشرية الإسلام، وادّعاءِ أنه دينٌ ملفَّقٌ، وخليطٌ من مصادر كثيرة ـ زعموا ـ؛ راحوا يدَّعون ـ كذلك ـ بأن القرآن الكريم ليس وحيًا من عند الله، وإنما أتى به محمد ﷺ من عند نفسه، وأعانه عليه قوم آخرون، مثلَ ما زعم ذلك من قبلهم الكفارُ المعاصرون للنبي ﷺ.

قال تعالى ـ حكاية عن المشركين قديما ـ: ﴿ وَقَالُوٓاْ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ ٱكۡتَتَبَهَا فَهِيَ تُمۡلَىٰ عَلَيۡهِ بُكۡرَةٗ وَأَصِيلٗا ۝٥ قُلۡ أَنزَلَهُ ٱلَّذِي يَعۡلَمُ ٱلسِّرَّ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ إِنَّهُۥ كَانَ غَفُورٗا رَّحِيمٗا ۝٦ ﴾ [سورة الفرقان].

وقال سبحانه: ﴿ وَإِذَا بَدَّلۡنَآ ءَايَةٗ مَّكَانَ ءَايَةٖ وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُوٓاْ إِنَّمَآ أَنتَ مُفۡتَرِۭۚ بَلۡ أَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ ۝١٠١ قُلۡ نَزَّلَهُۥ رُوحُ ٱلۡقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِٱلۡحَقِّ لِيُثَبِّتَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهُدٗى وَبُشۡرَىٰ لِلۡمُسۡلِمِينَ ۝١٠٢ وَلَقَدۡ نَعۡلَمُ أَنَّهُمۡ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٞۗ لِّسَانُ ٱلَّذِي يُلۡحِدُونَ إِلَيۡهِ أَعۡجَمِيّٞ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِيّٞ مُّبِينٌ ۝١٠٣ ﴾ [سورة النحل].

وعلى نفس النهج سار المستشرقون، وأتوا في سبيل إثبات هذا الإدعاء بافتراضات وتخرُّصات لا تنقضي، ولا ينقضي منها العجب [1].

---

(١) يراجَع تفصيل هذا في كتاب: الاستشراق والقرآن العظيم، د. محمد خليفة، ترجمة مروان عبد الصبور شاهين، ص٣٧ وما بعدها، دار الاعتصام – القاهرة، ط الأولى =

وكما أن النَّغمة السائدة عند جمهور المستشرقين هي أن اليهودية والنصرانية هما مصدر الإسلام ؛ كذلك نرى أن كثيرين منهم يذهبون إلى أن النبي ﷺ قد اعتمد في تأليف القرآن ـ زعموا ـ على الكتاب المقدس ، خاصة العهد القديم ، وأن هذا الاعتماد كان بوسائل كثيرة ، لا وجود لها إلا في خيالاتهم وأوهامهم .

وأريد أن أقف هنا مع أحد تلك المزاعم والادعاءات التي أثيرت بهذا الخصوص، ألا وهو الزعم بأن قصص القرآن الكريم ليس إلا ترديدًا لما اقتبسه الرسول ﷺ من العهد القديم كما ادعى كثير من المستشرقين .

وممن يتشدقون بهذا الرأي : " مكسيم رودنسون " في كتابه « محمد »، حيث يقول : « إن قصص القرآن ما هي ترديد لما تعلمه محمد وسرقه من الأديان السابقة ، ومن الكتب اليهودية » [1] .

ويرى " ريتشارد بل " مؤلف كتاب « مقدمة القرآن » أن النبي ﷺ قد اعتمد في كتابته للقرآن على الكتاب المقدس ، وخاصة على العهد القديم في قسم القصص ، فبعض قصص العقاب كقصص عاد وثمود مستمد من مصادر عربية ، ولكن الجانب الأكبر من المادة التي استعملها محمد ليفسر تعاليمه ويدعمها قد استمده من مصادر يهودية ، ونصرانية ، وقد كانت فرصته في المدينة للتعرف على ما في العهد القديم أفضلَ من وضعه السابق في

= ١٤١٤هـ ١٩٩٤م، وكذلك البحث القيم: مدخل إلى القرآن الكريم، للأستاذ الكبير الدكتور/ محمد عبد الله دراز ، وخاصة الباب الثالث، ص ١٢٥وما بعدها، ترجمة محمد عبد العظيم علي، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية ١٩٩٠م .

(١) كتاب يجب وقفه، صلاح منتصر، جريدة الأهرام (مرجع سابق)، نقلًا عن كتاب «محمد» لـ " مكسيم رودنسون "، ص ١٥١ .

مكة، حيث كان على اتصال بالجاليات اليهودية في المدينة، وعن طريقها حصل على قسط غير قليل من المعرفة بكتب موسى على الأقل [١] .

الاختلاف الجوهريُّ في أسلوب ومضمون القصص بين القرآن الكريم والعهد القديم :

والواقع أن من له أدنى اطّلاعٍ ومعرفةٍ بالقصص في كلٍّ من العهد القديم والقرآن الكريم يلحظ تهافت هذا الزعمِ وأمثالِه، ومجافاته للحقيقة والصواب، ويدرك بُعْد ما بين القصص في كليهما كبُعْدِ ما بين المشرق والمغرب، ويقطع بأن العهد القديم لم يكن أبدًا مصدرًا للقصص في القرآن الكريم .

إن قصص القرآن الكريم يتفرد بخصائص وميزات تجعله يختلف عما في العهد القديم من قصص وغيرِه ؛ مَظهَرًا وجوهرًا ، وشكلًا ومضمونًا ، ومبنىً ومعنى.

فالتباين واضح جدًّا بين أسلوب هذا وأسلوب ذاك، ومضمونِ هذا ومضمونِ ذاك .

ونقصد بالأسلوب: طريقة عرض القصة، وصياغة أحداثها وسياقها، وتراكيب ألفاظها وعباراتها ... وهكذا، وبالمضمون ما يحمله الأسلوب من المعاني ويتضمنه من الأفكار، ويحتويه من القضايا والمعتقدات ... ونحو هذا .

ونذكر في الصفحات التالية أبرزَ أوجهِ التباين والاختلافِ في الأسلوب

(١) الاستشراق والخلفية الفكرية، ص ١٠٢ نقلًا عن: المستشرقون والإسلام، د/ إبراهيم اللبان ص٤٤ ـ ٤٥ .

والمضمون بين القصص في كلٍّ من القرآن الكريم والعهد القديم، وذلك على النحو التالي:

الاختلاف في الأسلوب :

أوّلُ ما يقابل الناظِرَ في أسلوب القصة في العهد القديم هو الركاكةُ، وهبوط المستوى الذي يصِل أحيانًا إلى درجة الإسفاف .

فكيف يكون أسلوب القرآن الكريم ـ وهو القمة في البلاغة وسموِّ العبارة، ورفعة المستوى ـ مأخوذًا من ذلك الأسلوبِ الهابطِ الركيكِ والمُسِفِّ أحيانًا ، والذي لا تخطئه العين من أول وهلة ، ولا يخفى على طالبٍ في سنوات التعليم الأساسية ؟! .

وها هي ذي بعض الأمثلة على أسلوب العهد القديم :

جاء في سفر التكوين : « في البدء خلق الله السماوات والأرض ، وكانت الأرض خربة وخالية ، وعلى وجه الغمر ظُلمة، وروح الله يرفّ على وجه المياه، وقال الله : ليكن نور فكان نور ، ورأى الله النور أنه حسن ، وفصل الله بين النور والظلمة ، ودعَى الله النور نهارًا ، والظلمةَ دعاها ليلًا ، وكان مساء وكان صباح يومًا واحدًا » (١).

« فأُكمِلت السماوات والأرض وكلُّ جندها، وفرغ الله في اليوم السابع من عمله الذي عمِل، فاستراح في اليوم السابع من جميع عمله الذي عمل، وبارَك الله اليوم السابع وقدّسه لأنه استراح من جميع عمله الذي عمل الله خالقًا » (٢).

---

(١) تكوين ١/ ١ـ ٥.

(٢) السابق ٢/ ١ـ ٣ .

وقال الله: نعمل الإنسان على صورتنا كشَبَهِنا .. فخلق الله الإنسان على صورته ، على صورة الله خلَقه ، ذكرًا وأنثى خلَقهم » (١) .

وفي سفر هوشع : « أول ما كلّم الربّ هوشع قال الرب لهوشع : اذهب خذ لنفسك امرأةَ زِنى وأولاد زنى ، لأن الأرض قد زنت زنى تاركةً الرب ، فذهب وأخذ جومر بنت دبلايم ، فحبلت وولدت له ابنا ، فقال له الرب : أُدْعُ اسمَه يزرعيل ، لأنني بعد قليل أعاقب بيت ياهو على دم يزرعيل ، وأُبيد مملكة بيت إسرائيل في وادي يزرعيل » (٢) .

وفي سفر نشيد الإنشاد: « ما أجمل رجليك بالنعلين يا بنت الكرام ، دوائر فخذَيك مثل الحُليّ صنعة يدي صناع ، سُرّتك كأْسٌ مُدوّرة لا يعوزها شراب ممزوج ، بطنك صبْرة حنطة مسيّجة بالسوسن ، ثدياك كخشفتين توأمي ظبية، عنقك كبُرْج من عاج » (٣) .

« ما أجملَك وما أحلاك أيتها الحبيبة باللذات ، قامتك هذه شبيهة بالنخلة وثدياك بالعناقيد ، قلت إني أصعد إلى النخلة وأمسك بعذوقها وتكون ثدياك كعناقيد الكرم ، ورائحة أنفك كالتفاح ، وحنكك كأجود الخمر لحبيبي السائغة المرقرقة السائحة على شفاه النائمين » (٤) .

فهل هذه الركاكة والسذاجة وهذا الإسفاف في الجُمل والعبارات وذاك

---

(١) تكوين ١/ ٢٦ ـ ٢٧.

(٢) هوشع ١/ ٢ـ ٥ .

(٣) نشيد الإنشاد ٧/ ١ـ ٤.

(٤) السابق / ٦ـ ٩.

التدني في الأسلوب ، يمكن أن يكون مصدرًا لأرقى كلامٍ وأفصحه ، وأسمى أسلوب وأعفه ؟! .

وهل يمكن أن تكون هذه الركاكة والسفالة، والتطاول على ذات الله العلية، وحيًا من عند الله تعالى ؟! .

أين هذا من أسلوب القرآن الكريم الذي يشرق بالفصاحة ، ويتألق بالبلاغة ، ويفيض بالأدب ، ويتّسم بالرصانة ؟ .

ولْنذكر بعض آيات الذكر الحكيم ، دون تعليق ، تاركين المجال للذهن والعقل ، كي يتدبر ويتأمل فيها .

قال الله تعالى : ﴿ قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَادًا ذَٰلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٩﴾ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِن فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِّلسَّائِلِينَ ﴿١٠﴾ ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ ﴿١١﴾ فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَحِفْظًا ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴾ [فصلت: ٩ – ١٢] .

وقال جل شأنه : ﴿ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿٢٢﴾ وَرَاوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَن نَّفْسِهِ وَغَلَّقَتِ الْأَبْوَابَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ ﴿٢٣﴾ وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَا أَن رَّأَىٰ بُرْهَانَ رَبِّهِ كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ ﴿٢٤﴾ وَاسْتَبَقَا الْبَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُ مِن دُبُرٍ وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَى الْبَابِ قَالَتْ مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا إِلَّا أَن يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٥﴾ قَالَ هِيَ رَاوَدَتْنِي عَن نَّفْسِي وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَا إِن كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِن قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ

ٱلْكَـٰذِبِينَ ﴿٢٦﴾ وَإِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ ﴿٢٧﴾ فَلَمَّا رَءَا قَمِيصَهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُۥ مِن كَيْدِكُنَّ ۖ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ ﴿٢٨﴾ يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَـٰذَا ۚ وَٱسْتَغْفِرِى لِذَنۢبِكِ ۖ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ ٱلْخَاطِـِٔينَ ﴾ [يوسف: ٢٢ - ٢٩] .

الاختلاف في المضمون :

وإذا ما جئنا إلى المضمون ، وجدْنا اختلافات جوهرية في الأفكار والقضايا والمعتقدات ، بين ما في القرآن الكريم وما في العهد القديم (١) .

ونذكر هنا بعض أوجه هذه الاختلافات ، فيما يلي :

أ ـ الاختلاف في وصف الذات الإلهية :

إن قصص القرآن الكريم لا يصف الذات الإلهية إلا بكل كمال يليق بجلال الله تعالى ، بل إن السمة البارزة في القرآن الكريم كلِّه هي تنزيه الله عز وجل عن كل ما لا يليق به سبحانه ، فليس في القرآن الكريم عند الحديث عن ذات الله تعالى إلا هذا التنزيه والتعظيم والإجلال لله رب العالمين .

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴾ [الشورى: ١١] .

(١) قد يوجد تشابه في بعض الأحداث في بعض القصص التي ورد ذكرها في كل من القرآن الكريم والعهد القديم، ولكن هذا التشابهَ ليس دليلًا على الاقتباس، لأن هناك اختلافات في الجوهر بشكل عام ـ كما سنشير الآن ـ وإنما هذا التشابه مردُّه إلى وجود بقايا من الوحي كتبها كُتّاب العهد القديم في عصور مختلفة، غير أن هذه القلةَ القليةَ توارت خلف ركام الباطل، وتلاشت في ثنايا موجات التحريف، كما تتلاشى قطرات الماء العذب الفرات في وسط البحر الملح الأجاج، ولم يبْقَ لدى القوم من الوحي إلا رسوم وأشكال مملوءة بالزور والأباطيل .

وقال سبحانه : ﴿ لَّا تُدۡرِكُهُ ٱلۡأَبۡصَٰرُ وَهُوَ يُدۡرِكُ ٱلۡأَبۡصَٰرَۖ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلۡخَبِيرُ ﴾ [الأنعام: ١٠٣] .

وقال سبحانه : ﴿ وَلَقَدۡ خَلَقۡنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَمَا بَيۡنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٖ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٖ ﴾ [سورة ق : ٣٨] .

وقال جل شأنه: قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ لَّا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى ﴾ [سورة طه : ٥٢] .

وقال تبارك وتعالي: قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيّٗا ﴾ [مريم : ٦٤] .

وقال عز من قائل: قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَأۡمُرُ بِٱلۡفَحۡشَآءِ ﴾ [الأعراف : ٢٨] .

وأمثال هذا التنزيه والثناء على الله ـ تعالى ـ بما هو أَهْلُه في القرآن الكريم كثير .

وأما حديث العهد القديم عن ذات الله تعالى، وخاصة في القصص منه؛ فيختلف تمامًا عما في القرآن ، حيث إن قصص العهد القديم يطفح بوصف الذات الإلهية بما لا يليق به سبحانه وتعالى ، وذلك منذ أول إصحاح من أول سِفْرٍ فيه ، ومن مظاهر ذلك ما يلي :

في سفر التكوين ، عند الحديث عن بدء الخلق ، تطالعنا هذه العبارة:

« في البدء خلق الله السماوات والأرض ، وكانت الأرض خربة وخالية، وعلى وجه الغمر ظلمة ، وروح الله يرف على الماء » (١) .

فانظر إلى هذا التعبير الساذج الوثنيّ ، بحق الله تعالى ، فأين كان الله تعالى قبل أن ترف على وجه الماء رُوحُه ، وإلامَ صار بعد أن كانت على وجه الماء كما

---

(١) تكوين ١/ ١ـ ٢.

ترفرف الحمامة ؟! .

وماذا بعد ؟

« وقال الله : ليكن نور ، فكان نور ، ورأى الله النور أنه حسن » [(١)] .

وبعد ما خلق اليابسة ، وجعَل البحار والأشجار والعشب ، يقول السِّفر : « ورأى الله ذلك أنه حسن » [(٢)] .

وتتكرر هذه العبارة عقب كلِّ خلق يخلقه في كل يوم ، إلى نهاية ما خلق في اليوم السادس : « ورأى الله كل ما عمله فإذا هو حسن جدًّا » [(٣)] .

ألم يكن الله يعلم سلفًا حقيقة ما سيخلقه ، وما سيكون عليه من الحسْن أو القبح ، أم أنه قام بتجربة ونجحت ، فأُعجِب بها ، ورآها ابتكارًا يسرّ الناظرين، وكان لا يتوقع ذلك ؟! ـ تعالى الله عن ذلك علوًّا كبيرا ـ .

ثم يقول السفر:

« وفرغ الله في اليوم السابع من عمله الذي عمل ، فاستراح في اليوم السابع من جميع عمله الذي عمل ، وبارك الله اليوم السابع وقدسه ، لأنه فيه استراح من جميع عمله الذي عمل الله خالقًا » [(٤)] .

فانظر كيف أن كاتب السفر ـ قبّحه الله ـ يصور الله تعالى بصورة مَن يعتريه النصَب ، ويحلّ به التعب ، فيحتاج إلى الراحة بعد أداء العمل ، شأنه في ذلك

---

(١) السابق/ ٣ ـ ٤ .

(٢) سفر التكوين ، الإصحاح ١٢ .

(٣) السابق ، الإصحاح ٣١.

(٤) تكوين ٢/ ١ـ ٣ .

شأن المخلوقين ذوي القدرة المحدودة ، تعالى الله عما يقولون علوًا كبيرا .

ويتابع سفر التكوين ـ في معرض الحديث عن قصة آدم وحواء وأكْلِهما من الشجرة ـ قائلًا :

« وسمعا صوت الربِّ الإلهِ ماشيا في الجنة عند هبوب ريح النهار ، فاختبأ آدم وامرأته من وجه الرب الإله في وسط شجر الجنة ، فنادى الربُّ الإلهُ آدمَ وقال له : أين أنت » (١) .

فهل الله تعالى يشبه خلقه « ماشيًا في الجنة »، وهل عِلْم الله قاصر وإحاطته بالكون محدودة، بحيث لا يرى إلا ما تقع عينه عليه، ولا يرى ما يتوارى عنه خلف شجرة أو نحوها ؟ وهل يليق أن يكون هذا وصفًا للإله الخالق ؟ حاشا لله.

ونرى سفر الخروج يكرِّس ويؤكد نفس الوصف في حق الله تعالى ، حيث يصور كاتبُ السفْرِ اللهَ ـ تبارك وتعالى عما يقولون ـ بصورة من يجهل ملكه ، ولا يعلم إلا ما يراه ويُعلِّمُه بأمارة ، ولا يميز الأشياء إلا بعلامة ، وذلك حدث ـ كما يزعم السفر ـ حين أراد الله أن يهلك جنود فرعون وأنصارَه ، حيث طلب من موسى أن يأمر بني إسرائيل بأن يذبحوا ذبائح ، ويصيبوا أبواب دورهم ، ويلطّخوا أعتابها من دمائها، حتى يعرف الرب أنها بيوت بني إسرائيل فيتركَها، ويجتازَ إلى بيوت المصريين التي ليست لها هذه العلامةُ فيهلكَها .

يقول السفر: « فإني أجتاز في أرض مصر هذه الليلة ، وأضرب كلَّ بِكْر في

(١) تكوين ٣/ ٨ ـ ٩.

أرض مصر من الناس والبهائم، وأصنع أحكاما بكل آلهة المصريين، أنا الرب. ويكون لكم الدم علامة على البيوت التي أنتم فيها، فأرى الدم وأعبر عنكم، فلا يكون عليكم ضربة للهلاك حين أضرب أرض مصر » [١] .

« فدعا موسى جميع شيوخ إسرائيل وقال لهم اسحبوا وخذوا لكم غنما بحسب عشائركم واذبحوا الفصح ، وخذوا باقة زُوفَا ، واغمسوها في الدم الذي في الطست ، ومسّوا العتبة العليا والقائمتين بالدم الذي في الطست ، وأنتم لا يخرج أحد منكم من باب بيته حتى الصباح ، فإن الرب يجتاز ليضرب المصريين ، فحين يرى الدمَ على العتبة العليا والقائمتين يعبر الرب عن الباب ولا يَدَع المُهلِكَ يدخل بيوتكم ليضرب ، فتحفظون هذا الأمر فريضة لك ولأولادك إلى الأبد » [٢] .

فهل كان الله بحاجة إلى علامة ليتمكن بواسطتها من تحديد أهدافه التي سيضربها ؟! وكيف يكون إلها من كان كذلك ؟! .

تعالى الله عما يصفون .

ويصور العهدُ القديم اللهَ تعالى بصورة من يفعل الشيء دون تقدير سابق ، ويُقبِل على صنع الأشياء دون روية وتأمل ، ومن غير حساب العواقب ، والعياذ بالله من اعتقاد هذا .

فهو تعالى ـ حسَب ما يذكر سفر التكوين ـ يندم على أنه خلق الإنسان !!

« ورأى الرب أن شر الإنسان قد كثر في الأرض ، وأن كل تصورِ أفكارِ

---

(١) خروج ١٢/ ١٢ـ ١٣.

(٢) السابق/ ٢١ـ ٢٤.

قلبِه إنما هو شرير كل يوم ، فحزن الرب أنه عمل الإنسان في الأرض وتأسّف في قلبه ، فقال الرب : أمحو عن وجه الأرض الإنسان الذي خلقتُه ، الإنسانَ مع بهائم ودبابات وطيور السماء لأني حزِنْت أني عملتُهم » (١).

ويصور سفر الخروج الله تعالى ، بصورة الأحمق الذي يتسرع في اتخاذ القرار، ثم يندم عليه بعد ذلك ، فيقول السفر :

« وقال الرب لموسى : رأيتُ هذا الشعب ، وإذا هو شعبٌ صُلبُ الرقبة ، فالآن اتركني ليحمى غضبي عليهم وأفنيَهم ، فأصيّرَك شعبا عظيما ، فتضرع موسى أمام الرب إلهِه ، وقال : لماذا يا رب يحمى غضبك على شعبك الذي أخرجْته من أرض مصر بقوة عظيمة ويدٍ شديدة ، لماذا يتكلم المصريون قائلين: أخرَجَهم بخبث ليقتلهم في الجبال ويفنيَهم عن وجه الأرض ، ارجِع عن حمو غضبك واندم على الشر بشعبك ، اذكر إبراهيم وإسحق وإسرائيل عبيدك الذين حلفت لهم بنفسك وقلت لهم : أكثّر نسلكم كنجوم السماء ، وأعطي نسلكم كل هذه الأرض ، التي تكلمتُ عنها فيملكونها إلى الأبد .

فندم الرب على الشر الذي قال إنه يفعله بشعبه » (٢) .

ويذكر سفر أيوب أن الشيطان جاء ذات يوم في وسط بني الله، ووقف أمام الرب، ودارت محاورة بينه وبين الرب، وأن الرب قال للشيطان عن أيوب إنه ليس في الأرض مثله لكماله واستقامته وتقواه، فأجاب الشيطان بأن هذا حدث من أيوب لما هو فيه من النعم، أما لو ابتلاه الرب وجرده من هذه النعم؛

---

(١) تكوين ٦/ ٥ ـ ٧.

(٢) خروج ٣٢/ ٩ ـ ١٤.

فلسوف يكفر، فأراد الرب أن يُثبت للشيطان أن أيوب كامل ومستقيم في كل الأحوال، فقام بتجريد أيوب من كل ماله ، فلم ينسب أيوب لله جهالة [١] .

ثم يذكر السفر أن الشيطان جاء مرة أخرى في وسط بني الله، وأخبره الرب بأن أيوب ليس مثله في الأرض أحدٌ في تقواه وكماله واستقامته ، وأن الشيطان حرّض الربَّ وأهاجه واستثاره على أيوب ، فابتلاه من غير داع ، ولا لشيء إلا لتحريض الشيطان .

« فقال الرب للشيطان : هل جعلت قلبك على عبدي أيوب ، لأنه ليس مثله في الأرض رجل كامل ومستقيم ، يتقي الله ويحيد عن الشر ، وإلى الآن هو متمسك بكماله ، وقد هيجْتني عليه لأبتلعه بلا سبب » [٢] .

ولكن الشيطان قال للرب : إنك لو ابتليته في جلده فلن يصبر .. إلى آخر ما جاء في السفر .

وهكذا يصور هذا السفر أن تصرفات الله ـ تعالى ـ ليست بقدَر ، وأنه إنما تصرف كرد على كلام الشيطان وتحريضه ، وأنه ظلم أيوب إذِ ابتلاه بدون سبب ، وأنه ـ تعالى ـ كبعض البشر الذين لا يملكون أعصابهم ، ويكون من السهل اللعب بعواطفهم ، والتأثير على تصرفاتهم وأحكامهم بتهييجهم واستثارتهم ، تعالى الله عما يقولون علوًا كبيرًا .

وفى ذات الاتجاه، وهو تصوير الله تعالى بصورة من يفعل الشيء ثم يندم عليه ، جاء في سفر صمويل الثاني : « فجعل الرب وبَأً في إسرائيل من الصباح

---

(١) راجع الإصحاح الأول من سفر أيوب ٦ ـ ٢٢.

(٢) أيوب ٢/ ٣ .

إلى الميعاد ، فمات من الشعب من دانةَ إلى بئر سبع سبعون ألف رجل ، وبسط الملاك يده على أورشليم ليهلكها ، فندم الرب عن الشر ، وقال للملاك المهلِك الشعبَ : كفى الآن رُدّ يدَك » (١) .

ووردت نصوص في سفر الخروج تنعت الله تعالي بالحلول والإقامة في مكان يحويه ـ تعالى الله عن ذلك ـ كما يحل الإنسان في مكان ويقيم فيه ، وأنه كان يسير مع القوم ، ينزل بنزولهم ، ويرحل برحيلهم .

ومن ذلك :

« وكان الرب يسير أمامهم نهارًا في عمود سحاب ليهديَهم في الطريق ، وليلًا في عمود نار ليضيء لهم لكي يمشوا نهارًا وليلًا ، لم يَبْرحْ عمودَ السحاب نهارًا وعمود النار ليلًا من أمام الشعب » (٢) .

« وكان عمود السحاب إذا دخل موسى الخيمة ينزل ويقف عند باب الخيمة ويتكلم الرب مع موسى، فيرى جميع الشعب عمود السحاب واقفًا عند باب خيمته، ويكلم الرب موسى وجهًا لوجه كما يكلم الرجل صاحبه » (٣) .

بل إن قصص العهد القديم ينسب لله تعالى أنه يأمر بالفحشاء والموبقات ، والعياذ بالله .

ففي سفر هوشع : « أول ما كلم الرب هوشع قال الرب لهوشع : اذهب خذ لنفسك امرأة زنى وأولاد زنى لأن الأرض قد زنت زنى تاركة الرب » (٤) .

---

(١) صمويل الثاني ٢٤/ ١٥ـ ١٦ .

(٢) خروج ١٣/ ٢١ ـ ٢٢.

(٣) السابق ٣٣/ ٩ ـ ١١ .

(٤) هوشع ١/ ٢.

وهكذا تبلغ النذالة بكاتب هذا السفر، فيتجرأ على نسبة هذا القبح لله تعالى، ولكن يبدو أن اليهود أرادوا أن يبرروا مسلكَهم اللاأخلاقيَّ في العالم قديمًا وحديثًا ، فحاولوا أن يُضفوا على أخلاقهم المنحطة صبغة شرعية ، فكان أن افتروا على الله الكذب ، فبئس ما يقولون .

ولقد كذب الله تعالى هؤلاء السفلة وأمثالهم في قوله سبحانه: ﴿ وَإِذَا فَعَلُوا۟ فَـٰحِشَةً قَالُوا۟ وَجَدْنَا عَلَيْهَآ ءَابَآءَنَا وَٱللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا ۗ قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ ۖ أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [الأعراف: ٢٨] .

فهل يعقل أن هذا الشِّركَ ، وتلك الخرافات المضحكة ، والوثنيات الكافرة التي طفح بها العهد القديم ؛ يكون مصدرًا لقصص القرآن الكريم الذي لا يحوي إلا التنزيه المطلق لله رب العالمين ؟؟ !! .

ب ـ الاختلاف في الحديث عن الملائكة :

وقد جاء في قصص العهد القديم أن الملائكة يأكلون ويشربون ، وأنهم يتغذون مثل ما يتغذّى البشر، ففي سفر التكوين :

« وظهر له الرب عند بَلُّوطات مَمْرا وهو جالس في باب الخيمة وقت حر النهار ، فرفع عينيه ونظر وإذا ثلاثة رجال واقفون لديه ، فلما نظر ركض لاستقبالهم من باب الخيمة ، وسجد إلى الأرض ، وقال : يا سيد إن كنت قد وجدت نعمة في عينيك فلا تتجاوز عبدك ، لِيُؤْخَذ قليل ماء ، واغسلوا أرجلكم واتكئوا تحت الشجرة، فآخذ كسرة خبز فتُسنِدون قلوبكم ثم تجتازون، لأنكم قد مررتم على عبدكم ، فقالوا : هكذا تفعلُ كما تكلمتَ .

فأسرع إبراهيم إلى الخيمة إلى سارة ، وقال : أسرعي بثلاث كيْلاتٍ دقيقا

سمينا ، اعجني واصنعي خبز مَلّة ، ثم ركض إبراهيم إلى البقر وأخذ عجلا رَخْصا وجيّدا وأعطاه للغلام فأسرع ليعمله ، ثم اخذ زبدا ولبنا والعجلَ الذي عمله ووضعها قُدّامَهم ، وإذْ كان هو واقفا لديهم تحت الشجرة أكلوا » (١) .

« فجاء الملاكان إلى سَدُوم مساء ، وكان لوط جالسًا في باب سَدُوم ، فلما رآها لوط قام لاستقبالهما وسجد بوجهه إلي الأرض ، وقال يا سيدي مِيلا إلى بيت عبدكما وبِيتا واغسلا أرجلكما ، ثم تُبكِّران وتذهبان في طريقكما ، فقالا : لا بل في الساحة نبيت ، فألَحّ عليهما جدًّا ، فمالا إليه ودخلا بيته ، فصنع لهما ضيافة وخبز فطيرًا فأكلا » (٢) .

فالملائكة ـ كما يقرر السفر ـ أكلوا زبدا ولحما ، وشربوا لبنا عند إبراهيم ، وقدم لهم لوط فطيرًا مخبوزًا فأكلوا (٣) .

والقرآن الكريم يختلف مع العهد القديم في هذا الأمر ، فليس فيه أن الملائكة يأكلون ويشربون ، ويذكر القرآن أن نبيَّ الله إبراهيم عليه الصلاة والسلام حين قدّم إليهم ضيافته لم يَمُدّوا أيديَهم إلى طعام مما أحضره لهم ، ولم

---

(١) تكوين ١٨/ ١ـ ٨ .

(٢) تكوين ١٩/ ١ـ٣.

(٣) هل يعلم المستشرقون ـ وخاصة النصارى منهم ـ أنه جاء في العهد الجديد ما يخالف العهد القديم في هذا الأمر ؟ فقد ورد في الإنجيل أن الناس في الجنة مثل الملائكة، حيث يقول النص: « فأجاب يسوع وقال لهم [أي لقوم من الصَّدُوقيّين] : أليس لهذا تَضلّون إذْ لا تعرفون الكتب ولا قوّةَ الله، لأنهم متى قاموا من الأموات لا يُزوِّجون ولا يُزوَّجون بل يكونون كملائكة في السماوات » (مرقس ١٢/ ٢٤ـ٢٦).
فبأي شيء يؤمنون ؟ هل يؤمنون بأن الملائكة كالبشر ـ كما في العهد القديم ـ أم يؤمنون بأنهم ليسوا كالبشر ـ كما في العهد الجديد ـ ؟! .

يتذوقوا منه شيئا ، وأن نبيّ الله لوطا عليه الصلاة والسلام لم يَعْرِض عليهم أكلا ولا شربا .

قال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُنَآ إِبْرَٰهِيمَ بِٱلْبُشْرَىٰ قَالُواْ سَلَـٰمًا ۖ قَالَ سَلَـٰمٌ ۖ فَمَا لَبِثَ أَن جَآءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ ﴿٦٩﴾ فَلَمَّا رَءَآ أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً ۚ قَالُواْ لَا تَخَفْ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمِ لُوطٍ ﴿٧٠﴾ ﴾ [هود] .

وقال عزَّ شأنُه : ﴿ وَلَمَّا جَآءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيٓءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالَ هَـٰذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ ﴿٧٧﴾ وَجَآءَهُۥ قَوْمُهُۥ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ وَمِن قَبْلُ كَانُواْ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ۚ قَالَ يَـٰقَوْمِ هَـٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِى هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ ۖ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ فِى ضَيْفِىٓ ۖ أَلَيْسَ مِنكُمْ رَجُلٌ رَّشِيدٌ ﴿٧٨﴾ قَالُواْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِى بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ ﴿٧٩﴾ قَالَ لَوْ أَنَّ لِى بِكُمْ قُوَّةً أَوْ ءَاوِىٓ إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ ﴿٨٠﴾ قَالُواْ يَـٰلُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُوٓاْ إِلَيْكَ ۖ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ ٱلَّيْلِ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ إِلَّا ٱمْرَأَتَكَ ۖ إِنَّهُۥ مُصِيبُهَا مَآ أَصَابَهُمْ ۚ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ ٱلصُّبْحُ ۚ أَلَيْسَ ٱلصُّبْحُ بِقَرِيبٍ ﴾[هود: ٧٧ – ٨١] .

وجدير بالذكر أن العقيدة الإسلامية في الملائكة أنهم خلقوا من نور؛ فهم أجسام نورانية لا تأكل ولا تشرب، ولا تتناكح أو تتناسل، ولا يعصون الله ما أَمرهم ويفعلون ما يأمرون .

ج ـ قصص العهد القديم يحوي كثيرًا من الأكاذيب والمتناقضات :

ويتفرد قصص القرآن الكريم بخُلُوِّه من التناقضات والأكاذيب والخرافات، وصدق القائل:﴿ إِنَّ هَـٰذَا لَهُوَ ٱلْقَصَصُ ٱلْحَقُّ ﴾[آل عمران :٦٢] .

والقائل جلّ شأنه: ﴿ لَقَدْ كَانَ فِى قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُوْلِى ٱلْأَلْبَـٰبِ ۗ مَا كَانَ

حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ [يوسف: ١١١] .

وأما قصص العهد القديم فعلى النقيض من ذلك ، حيث يحتوي على كثير من الأكذوبات والمتناقضات، ويَجمع منها ما يفوق الحصر .

ومن ذلك ما جاء في سفر التكوين :

« وأوصى الربُّ الإلهُ آدمَ قائلًا : من جميع شجر الجنة تأكُلُ أكْلًا، وأما شجرة معرفةِ الخيرِ والشرِّ فلا تأكلْ منها، لأنك يومَ تأكلُ منها مَوْتًا تموت » (١) .

ثم جاء في الإصحاح التالي من نفس السفر :

« فرأتِ المرأةُ أن الشجرةَ جيدةٌ للأكل، وأنها بهجة للعيون، وأن الشجرة شهية للنظر، فأخذتْ من ثمارها وأكلتْ وأعطتْ رجُلَها أيضًا معها فأكل، فانفتحت أعيُنُهما، وعلِما أنهما عريانان ، فخاطا أوراقَ تِينٍ وصنعا لأنفسهما مآزر » (٢) .

فانظر إلى هذا التناقض والكذب على الله تعالى؛ حيث أخبر آدمَ بأنه سيموت موْتًا إذا أكل من الشجرة المنهيِّ عنها، ثم إنه أكل منها هو وزوجُه، فلم يمُوتا، فكيف أخلف الله وعيدَه، وكيف يناقض كلامُه بعضُه بعضا؟

تعالى الله عن ذلك علوًا كبيرًا .

وقد جاء في سفر التكوين أيضًا أن الله تعالى غضب على الجنس البشريِّ،

---

(١) تكوين ٢/ ١٦ـ ١٧.

(٢) تكوين ٣/ ٦ ـ ٧.

لأن شرَّ الإنسان قد كثُر في الأرض، بل وحزِن الله ـ تعالى عن ذلك ـ أنه عمل الإنسان، وتأسَّف في قلبه، ومن أجل ذلك جعل أعمارَ البشرِ لا تزيد بعد ذلك على مائة وعشرين سنة .

يقول السفر: « فقال الرب: لا يَدينُ روحي في الإنسان إلى الأبد، لِزيَغانه هو بَشر وتكون أيامُه مئةً وعشرين سنة » (١) .

ولكن هذا لم يحدث ، بل الذي حدث هو النقيض ، فكثير من البَشَر بعد ذلك عاشوا وزادت أعمارُهم عن مئة وعشرين عاما ، ـ بحسَب ما ذكر العهد القديم ـ .

فقد ذكر سفر التكوين نفسه أن سامَ بنَ نوحٍ عاش خمسَمائة سنة، وأن أرفكشاذَ بنَ سامٍ عاش أربعَمائة وثلاث سنين، وكذلك شالح ابنه، وأن عابرَ بنَ شالحٍ عاش أربعَمئةٍ وثلاثين سنة، وأن فالجَ بنَ عابر عاش مئتين وتسعَ سنين، وأن رَعُوَ بنَ فالج عاش مئتين وسبعَ سنين، وأن سَرُوجَ بنَ رعُو عاش مائتي سنة، وأن تارحَ بنَ ناحورَ بنَ سَرُوج كانت أيامه مائتين وخمسَ سنين (٢) .

وهناك غيرهم ذكر العهد القديم بعد ذلك أن آجالهم أَرْبَتْ على المائة والعشرين عاما .

هذا، وقد ذكر الإمامُ ابنُ حزم ـ رحمه الله ـ كثيرًا من المتناقصات الظاهرة والتكاذيب الواضحة في العهد القديم ، أثبتت ـ دون تكلّف ـ أن ما بأيدي القوم من كتب يزعمون نسبتها إلى الوحي، قد غشيها التحريف، واكتنفها

---

(١) الإصحاح ٦/ ٣.

(٢) يُراجَع: الإصحاح الحادي عشر ١٠ ـ ٣٢ .

البطلان من كل جانب [1] .

وكذلك ذكر العلامة الشيخ "رحمت الله الهنديُّ" كثيرا من الأغلاط والتناقضات والتحريفات التي وقعت في العهدين القديم والجديد، وذلك في فصول عديدة من كتابه القيم (إظهار الحق) [2] .

وننقل عنه هنا بعضًا مما ذكره في هذا الصدد، فيما يلي :

١- الآية الثالثة عشر من الإصحاح الرابع والعشرين من سفر صمويل الثاني هكذا : « وأتى جاد إلى داوود وأخبره قائلًا : إما أن يكون سبع سنين جوعا لك في أرضك »... الخ ، وفي الآية الثانية عشرة من الإصحاح الحادي والعشرين من السفر الأول من أخبار الأيام هكذا : « إما ثلاث سنين جوعا » إلى آخره ، ففي الأول سبع سنين ، وفي الثاني ثلاث سنين ، وقد أقر مفسروهم أن الأول غلط [3] .

٢- صرح في الإصحاحين الخامس والسادس من سفر صموئيل الثاني أن داوود عليه السلام جاء بتابوت الله بعد محاربة الفلسطينيين ، وصرح في الإصحاحين الثالث عشر والرابع عشر من السفر الأول من أخبار الأيام أنه جاء بالتابوت قبل محاربتهم ، والحادثة واحدة كما لا يخفى على ناظر

(١) يراجَع: الفصل في الملل والأهواء والنحل، لابن حزم ١ / ١٣٨ وما بعدها، دار الكتب العلمية، بيروت، ط الأولى ١٤١٦هـ ١٩٩٦م.

(٢) يراجَع إظهار الحق، ج ١ ص ١٣٣وما بعدها، ومواضع متفرقة من الكتاب، تحقيق د. أحمد حجازي السقا، دار التراث العربي، القاهرة ، ط الثانية ١٤٠٦هـ ١٩٨٦م .

(٣) إظهار الحق ١/ ١٣٤.

الإصحاحات المذكورة فيكون أحدهما غلطا [1] .

٣- وقع في الآية التاسعة من الإصحاح الرابع والعشرين من سفر صمويل الثاني : « بنو إسرائيل كانوا ثمانمائة ألف رجل شجاع ، وبنو يهودا خمسمائة ألف رجل شجاع » ، وفي الآية الخامسة من الإصحاح الحادي والعشرين من سفر الملوك الأول : « فبنو إسرائيل كانوا ألف ألف رجل شجاع ، ويهودا كانوا أربعمائة ألف وسبعين ألف رجل شجاع » [2] .

٤ ـ الآية السادسة من الإصحاح السابع من السفر الأول من أخبار الأيام هكذا : « بنو بنيامين :بالع ، وباكر ، وبد يعيئيل ثلاثة أشخاص » ، وفي الإصحاح الثامن من السفر المذكور هكذا : « ولَدَ بنيامين ولدَه الأكبر بالع ، والثاني إشبيل ، والثالث أخرخ ، والرابع نوحه ، والخامس رافا » وفي الآية الحادية والعشرين من الإصحاح السادس والأربعين من سفر التكوين هكذا (نسخة سنة ١٨٤٨م): « بنو بنيامين : بالع ، وباكر ، وإشبيل ، وجيرا ، ونعمان ، وإيحي ، وروش ، ومفيم ، وحفيم ، وأرد » ، ففي العبارات الثلاث اختلاف من وجهين ، الأول: في الأسماء ، والثاني : في العدد ، حيث يفهم من الأولى أن أبناء بنيامين ثلاثة ، ويفهم من الثانية أنهم خمسة ، ويفهم من الثالثة أنهم عشرة [3] .

---

(١) السابق ١/ ١٣٥ .

(٢) إظهار الحق ١/ ٢٧٠.

(٣) السابق ١/ ٢٧١.

د ـ الاختلاف في الحديث عن الأنبياء من حيث العصمة :

ومن أوجه الاختلاف البارزة بين قصص الأنبياء في كلٍّ من القرآن الكريم والعهد القديم ـ إضافة إلى ما سبق ـ؛ أن العهد القديم يتحدث عن الأنبياء من منطلق أنهم غير معصومين، شأنهم شأن عامة الناس وأراذلهم، ومن ثَمّ يُجوّز في حقهم بل ويَنسِب إليهم فعل المعاصي والمنكرات، ويصفهم بأوصاف لا تليق بقدرهم؛ حيث إنهم صفوة الله من خلقه، وأُمَناء وحيه تعالى إلى البشر، كما ينعتهم بالقبائح، وينسب إليهم المساوئ والشناعات والمعاصي والمحرمات، التي لا تليق بإنسان محترم وقُور، فضلا عن نبيٍّ مرسَل معصوم.

أما قصص القرآن وحديثه عن الأنبياء ، فإنه حديث وقور ، من منطلق أن الأنبياء صلوات الله عليهم وتسليماته قد عصم الله تعالى ظواهرَهم وبواطنَهم من ارتكاب محظور يخالف الشرع ، أو الوقوعِ في مُحرّم يُغضِب الربّ سبحانه وتعالى، ومن ثم فإنه يتحدث عنهم ويَذْكرهم بما يليق بهم من العصمة والتبجيل، ولا ينسب إليهم إلا الكريمَ من الفِعال ، والمباحَ من الأعمال .

وها هي ذي بعض الأمثلة على ما ذكرنا من مسلك العهد القديم :

١ـ ينسب سفر التكوين إلى نوح عليهم السلام أنه شرب الخمر ، وسكِر وتعرّى، وهزئ به بعض أبنائه ، فقد جاء فيه :

« وابتدأ نوح يكُون فلاحا وغرَس كَرما، وشرب من الخمر، فسكر وتعرّى داخل خبائه، فأبصر حام أبو كنعان عورة أبيه، وأخبر أخويه خارجا » ... الخ [١].

---

(١) الإصحاح التاسع/ ٢٠- ٢٢.

٢ ـ وينسب سفر التكوين أيضًا إلى إبراهيم عليه السلام الكذب ويصوره بصورة مَن تجرَّد مِن الغَيْرة على عِرْضِه، وصار يتاجر بزوجته، ويتكسب من ورائها دون التفاتٍ إلى ضرورة صيانة كرامتِه وكرامتِها، ليصيب عَرَضًا حقيرًا من الدنيا وحطامها الفاني، حيث اتفق مع امرأته سارة على أن يقول للناس عنها: إنها أخته وأن تقول عنه إنه أخوها، وأن يكون هذا الكذب سلوكا مستمرا لهما كلما دخلا بلدًا، ليحصل له بذلك منفعة مادية كبيرة .

يقول السفر على لسان إبراهيم :

« وحدث لما أتاهني اللهُ مِن بيت أبي أني قلت لها: هذا معروفك الذي تصنعين إليّ، في كل مكان نأتي إليه قولي عني: هو أخي » (١).

ويذكر السفر أنهما نفذا هذا النهج الدنيء مرتين:

« فحدث جوع في الأرض فانحدر أبرام إلى مصر ليتغرب هناك ؛ لأن الجوع في الأرض كان شديدًا ، وحدث لما قرب أن يدخل مصر أنه قال لساراي امرأته : إني قد علمت أنك امرأة حسنة المنظر ، فيكون إذا رآك المصريون أنهم يقولون : هذه امرأته فيقتلونني ويستبقونك ، قولي : إنك أختي ليكون لي خير بسببك ، وتحيا نفسي من أجلك .

فحدث لما دخل أبرام إلى مصر أن المصريين رأوا المرأة أنها حسنة جدًّا ، ورآها رؤساء فرعون ومدحوها لدى فرعون ، فأُخِذت المرأة إلى بيت فرعون ، فصنع إلى أبرام خيرًا بسببها ، وصار له غنم وبقر وحمير وعبيد وإماء وأُتن وجمال ، فضرب الرب فرعون وبيته ضربات عظيمة بسبب ساراي امرأة أبرام، فدعا

---

(١) الإصحاح العشرون/ ١٣ .

فرعون أبرام وقال : ما هذا الذي صنعت بي؟ لماذا لم تخبرني أنها امرأتك؟ لماذا قلت : هي أختي حتى أخذتها لي لتكون زوجتي؟ والآن هو ذا امرأتك ، خذها واذهب فأوصى عليه رجالاً فشيعوه وامرأته وكل ما كان له » [1].

ثم يتكرر هذا مع إبراهيم وزوجته ، فيتصرفان نفس التصرف والسلوك ـ كما يذكر السفر ـ مع أبيمالك ، مَلِكِ جَرار [2].

٣ ـ وأيضًا ينسب سفر التكوين إلى لوط أنه زنى ـ حاشاه ـ بابنتيه ، بعد أن سقتاه خمرًا ، حيث ظنتا أن الأرض قد خلت ممن تستبقيان منه نسلاً .

يقول السفر : « وصعد لوط من صُوغر وسكن في الجبل ، وابنتاه معه ؛ لأنه خاف أن يسكن في صُوغر ، فيسكن في المغارة هو وابنتاه ، وقالت البكر للصغيرة: أبونا قد شاخ وليس في الأرض رجل ، ليدخل علينا كعادة كل الأرض ، هلُم نسقي أبانا خمرًا ونضطجع معه فنحيي من أبينا نسلاً ، فسقتا أباهما خمرًا في تلك الليلة ، ودخلت البكر واضطجعت مع أبيها ، ولم يعلم باضطجاعها ولا بقيامها، وحدث في الغد أن البكر قالت للصغيرة : إني قد اضطجعت البارحة مع أبي ، نسقيه خمرًا الليلة أيضًا فادخلي اضطجعي معه ، فنحيي من أبينا نسلاً ، فسقتا أباهما خمرًا في تلك الليلة أيضًا ، وقامت الصغيرة واضطجعت معه ولم يعلم باضطجاعها ولا بقيامها ، فحبلت ابنتا لوط من أبيهما ، فولدت البكر ابنًا ودعت اسمه موآب ، وهو أبو الموآبيين إلى اليوم ، والصغيرة أيضًا ولدت ابنًا ودعت اسمه بَنْ عَمِّي ، وهو أبو بني عمُّون إلى

---

(١) الإصحاح ١٢/ ١٠-٢٠.
(٢) راجع الإصحاح ٢٠/ ١-١٨.

اليوم »[1].

فكيف يطلق الله نبيه ويتركه ليواقع ابنتيه واحدة بعد الأخرى ؟

إن هذه لفضائح وسوءات لم يستح كاتب السفر ـ قبحه الله ـ من تسطيرها ، ولم يخجل اليهود والنصارى من تصديقها .. ونحن المسلمين نقول : سبحانك هذا بهتان عظيم .

٤ ـ ويصور سفر الخروج النبي هارون عليه السلام بصورة الرجل الذي خان رسالة ربه التي أرسله بها ، وتنكر لمبادئها التي يدعو إليها ، حيث ينسب إليه عليه السلام أنه أعان بني إسرائيل على الإشراك بالله ، ويسر لهم عبادة غيره سبحانه ، بأن صنع لهم عجلاً ليتخذوه إلهًا معبودًا من دون الله رب العالمين .

يقول السفر : « ولما رأي الشعب أن موسى أبطأ في النزول من الجبل اجتمع الشعب علي هارون وقالوا له : قم اصنع لنا آلهة تسير أمامنا لأن هذا الرجل موسى الذي أصعدنا من أرض مصر لا نعلم ماذا أصابه ، فقال لهم هارون : انزعوا أقراط الذهب التي في آذان نسائكم وبناتكم وائتوني بها ، فنزع كل الشعب أقراط الذهب التي في آذانهن ، وأتوا بها إلي هارون ، فأخذ ذلك من أيديهم وصوره بالأزميل وصنعه عجلاً مسبوكًا ، فقالوا : هذه آلهتك يا إسرائيل التي أصعدتك من أرض مصر ... إلخ »[2].

بينما يصرح القرآن بأن السامريَّ هو الذي صنع العجل لبني إسرائيل ، وأن هارون بريء من هذه الفعلة ، فيقول تعالى : ﴿ قَالُوا۟ مَآ أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلْكِنَا

---

(١) تكوين ١٩/ ٢٧-٣٠ .
(٢) خروج ٣٢/ ١-٦ .

وَلَٰكِنَّا حُمِّلْنَآ أَوْزَارًا مِّن زِينَةِ ٱلْقَوْمِ فَقَذَفْنَٰهَا فَكَذَٰلِكَ أَلْقَى ٱلسَّامِرِيُّ ﴿٨٧﴾ فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلًا
جَسَدًا لَّهُۥ خُوَارٌ فَقَالُواْ هَٰذَآ إِلَٰهُكُمْ وَإِلَٰهُ مُوسَىٰ فَنَسِيَ ﴿٨٨﴾ أَفَلَا يَرَوْنَ أَلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ
قَوْلًا وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا ﴿٨٩﴾ وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَٰرُونُ مِن قَبْلُ يَٰقَوْمِ إِنَّمَا فُتِنتُم بِهِۦ
وَإِنَّ رَبَّكُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ فَٱتَّبِعُونِي وَأَطِيعُوٓاْ أَمْرِي ﴿٩٠﴾ قَالُواْ لَن نَّبْرَحَ عَلَيْهِ عَٰكِفِينَ حَتَّىٰ يَرْجِعَ إِلَيْنَا
مُوسَىٰ ﴿٩١﴾ ﴾ [سورة طه] .

٥ ـ وينسب سفر صمويل الثاني إلى داود عليه السلام أنه رأى امرأة تستحم في قعر دارها ففتن بها، وشغفته حبًا، وكانت زوجة لأحد جنوده يسمى أوريّا الحِثي ، فزنى بها داود وتخلص من زوجها بالقتل، وأن فعله هذا قُبح في عيني الرب فعنفه على ذلك وتوعده ... إلخ .

يقول النص : وكان في وقت المساء أن داود قام عن سريره وتمشى على سطح بيت الملك فرأى من على السطح امرأة تستحم . وكانت المرأة جميلة المنظر جدًا ، فأرسل داود وسأل عن المرأة ، فقال واحد : أليست هذه بثشبع بنت أليعام امرأة أوريّا الحِثِّي؟ فأرسل داود رسلاً ، وأخذها فدخلت إليه ، فاضطجع معها وهي مطهرة من طمثها ، ثم رجعت إلى بيتها ، وحبلت المرأة فأرسلت وأخبرت داود وقالت : إني حبلى ، فأرسل داود إلى يوآب يقول : أرسل إلي أوريا الحثى فأرسل يوآب أوريا إلى داود ، فأتى أوريّا إليه ، فسأل داود عن سلامة يوآب وسلامة الشعب ونجاح الحرب ، وقال داود لأوريّا : انزل إلى بيتك واغسل رجليك ، فخرج أوريّا من بيت الملك وخرجت وراءه حِصّة من عند الملك ، ونام أوريّا على باب بيت الملك مع جميع عبيد سيده ، ولم ينزل إلى بيته ، فأخبروا داود قائلين : لم ينزل أوريّا إلى بيته ، فقال داود لأوريّا : أما جئت من السفر ، فلماذا لم تنزل إلى بيتك؟ فقال أوريّا لداود : إن التابوت

وإسرائيل ويهوذا ساكنون في الخيام وسيدي يوآب وعبيد سيدي نازلون على وجه الصحراء ، وأنا آتي إلى بيتي لآكل وأشرب وأضطجع مع امرأتي؟ وحياتك وحياة نفسك لا أفعل هذا الأمر ، فقال داود لأوريّا : أقم هنا اليوم أيضًا وغدًا أطلقك ، فأقام أوريّا في أورشليم ذلك اليوم وغده ، ودعاه داود فأكل أمامه وشرب وأسكره ، وخرج عند المساء ليضطجع في مضجعه مع عبيد سيده وإلى بيته لم ينزل .

وفي الصباح كتب داود مكتوبًا إلى يوآب وأرسله بيد أوريّا ، وكتب في المكتوب يقول : اجعلوا أوريّا في وجه الحرب الشديدة وارجعوا من ورائه فيضرب ويموت ، وكان في محاصرة يوآب المدينة أنه جعل أوريّا في الموضع الذي علم أن رجال البأس فيه . فخرج رجال المدينة ، وحاربوا يوآب ، فسقط بعض الشعب من عبيد داود ومات أوريّا الحثي أيضًا ، فأرسل يوآب وأخبر داود بجميع أمور الحرب ، وأوصى الرسول قائلاً : عندما تفرغ من الكلام مع الملك عن جميع أمور الحرب ، فإن اشتعل غضب الملك ، وقال لك : لماذا دنوتم من المدينة للقتال ، أما علمتم أنهم يرمون من على السور؟ من قتل أبيما لك بن بربوشت؟ ألم ترمه امرأة بقعة رحى من على السور فمات في تاباص؟ لماذا دنوتم من السور؟ فقل : قد مات عبدك أوريّا الحثي أيضًا .

فلما سمعت امرأة أوريّا أنه قد مات أوريّا رجلها ندبت بعلها ، ولما مضت المناحة أرسل داود وضمها إلى بيته ، وصارت له امرأة ، وولدت له ابنًا ، وأما الأمر الذي فعله داود فقبح في عيني الرب » (١) .

---

(١) الإصحاح الحادي عشر ٢-٢٦، وانظر: الإصحاح الثاني عشر ٩ ـ ١٢.

٥ ـ وينسب العهد القديم إلى سليمان عليه السلام أنه خالف أمر الله بأن تزوج بنساء مشركات من الأمم التي نهى الله عن تزويجهن أو التزوج منهن ، وليس هذا فحسب ، بل إن هؤلاء النسوة المشركات قد أملن قلبه إلى آلهتهن ، فكان بذلك فاعلاً للشر في عيني الرب ، ناقضًا للعهد مع الله ، على ما يزعم العهد القديم ، وها هو ذا النص :

« وأحب الملك سليمان نساء غريبة كثيرة مع بنت فرعون ؛ موآبيّات وعمّونيّات وأدوميّات وصيدونيّات وحيثيّات . من الأمم الذين قال عنهم الرب لبني إسرائيل : لا تَدْخُلون إليهم وهم لا يَدْخُلون إليكم لأنهم يميلون قلوبكم وراء آلهتهم ، فالتصق سليمان وراء هؤلاء بالمحبة ، وكانت له سبعمائة من النساء السيدات وثلاثمائة من السراري ، فأمالت نساؤه قلبه ، وكان في زمان شيخوخة سليمان أن نساءه أَمَلْن قلبه وراء آلهة أخرى، ولم يكن قلبه كاملاً مع الرب إلهه كقلب داود أبيه، فذهب سليمان وراء عشتورت إلهة الصيدونيين ومَلْكوم رجس العمّونيين . وعمل سليمان الشر في عيني الرب ولم يتبع الرب تمامًا كداود أبيه » [(١)].

وهكذا تبدو لنا ملامح صورة الأنبياء في العهد القديم ، فنرى لهم ـ عليهم صلوات الله وتسليماته ـ صورة تعلوها غبرة، وتكتنفها المهانة ، وسيرتهم تلطخها الشناعات، وتملؤها المعاصي والانحرافات ، وتلفها القبائح والمنكرات الموبقات .

أما الصورة التي يرسمها لهم القرآن فهي على عكس ما في العهد القديم

---

(١) سفر الملوك الأول . إصحاح ١١/ ١-٦.

تمامًا ، حيث نرى صورة في القرآن وضاءة مشرقة ، وسيرة حميدة طيبة .

وحديث القرآن المفصَّل عن الأنبياء والمرسلين يسير في اتجاه تقديرهم وإجلالهم ، ولا غرو ؛ فهم صفوة البشر ، وآذان الخير التي تلقت هُدى الوحي إلى الخلق .

فسبحان الله القائل: ﴿ وَإِنَّهُمْ عِندَنَا لَمِنَ ٱلْمُصْطَفَيْنَ ٱلْأَخْيَارِ ﴾ [سورة ص: ٤٧].

أما بعد .. فهذه بعض أوجه التباين والاختلاف بين قصص الأنبياء في القرآن الكريم ، وفي العهد القديم.

وهذا القدر الذي ذكرنا يقطع بما لا يدع مجالًا للريب بأن العهد القديم لم يكن أبدًا مصدرًا للقصص في القرآن الكريم، وأن القول بأن الرسول ﷺ كان تلميذًا نابها للعهد القديم؛ زعْمٌ باطل ومتهافت ..

فهل بعد هذا لا يزال يصر المستشرقون على زعمهم بأن قصص القرآن الكريم مأخوذ من العهد القديم ؟! .

﴿ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ ۚ إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا ﴾ [الكهف: ٥] .

سبحانَكَ اللهُمَّ وبِحمدِكَ، أشهدُ أن لا إله إلا أنتَ، أستغفِرُك وأتوبُ إليك.

*****

المراجع

١- أباطيل وأسمار، محمود محمد شاكر، مطبعة المدني - القاهرة، الطبعة الثانية ١٩٧٢م .

٢ ـ أحكام القرآن لابن العربي المالكي. تحقيق محمد عبد القادر عطا. دار الكتب العلمية. بيروت. الطبعة الأولى ١٤٠٨هـ ١٩٨٨م .

٣- أساليب الغزو الفكري للعالم الإسلامي. د/ علي جريشه، محمد شريف الزيبق. دار الإعتصام . القاهرة .

٤- الاستشراق والتبشير وصلتهما بالإمبريالية العالمية . إبراهيم خليل أحمد . مكتبة الوعي العربي . القاهرة .

٥- الاستشراق وجه للاستعمار الفكري . د/ عبد المتعال محمد الجبري. مكتبة وهبة. القاهرة. الطبعة الأولى ١٤١٦هـ ١٩٩٥م.

٦- الاستشراق والخليفة الفكرية للصراع الحضاري.د/ محمود حمدي زقزوق. دار المنار . القاهرة. الطبعة الثانية ١٤٠٩هـ ١٩٨٩م.

٧- الاستشراق والمستشرقون ما لهم وما عليهم. د/ مصطفي السباعي. المكتب الإسلامي. بيروت. الطبعة الثالثة ١٤٠٥هـ ١٩٨٥م.

٨- الإسلام دعوة عالمية. عباس العقاد. ضمن مجموعة الأعمال الكاملة. دار الكتاب اللبناني. بيروت. الطبعة الأولى ١٩٧٤م.

٩- الإسلام على مفترق الطرق. محمد أسد. ترجمة د/ عمر فروخ . مكتبة المنار بالكويت. الطبعة السابعة ١٩٧٤م.

١٠- الإسلام في تصورات الغرب. د/ محمود حمدي زقزوق. مكتبة وهبة. القاهرة. الطبعة الأولى ١٤٠٧هـ ١٩٨٧م ، وهو عبارة عن ترجمة لفصول

مختارة من كتاب « موجز في آداب علوم الإسلام، للمستشرق الألماني "جوستاف بفانموللر" .

١١- إظهار الحق. تأليف الشيخ رحمت الله الهندي. تحقيق د/ أحمد حجازى السقا.دار التراث العربي. القاهرة. الطبعة الثانية ١٤٠٦هـ ١٩٨٦م.

١٢- إعادة النظر في كتابات العصريين في ضوء الإسلام. أنور الجندي. دار الاعتصام. القاهرة.

١٣- إنتاج المستشرقين وأثره في الفكر الإسلامي الحديث. مالك بن نبي. دار الإرشاد. بيروت. الطبعة الأولى ١٣٨٨هـ ١٩٦٩م.

١٤- أوربا والإسلام. د/ عبد الحليم محمود. دار المعارف. مصر. الطبعة الرابعة.

١٥- البداية والنهاية للإمام ابن كثير . تحقيق د/ أحمد أبو ملجم وآخرين. دار الريان للتراث. القاهرة. الطبعة الأولى ١٤٠٨هـ ١٩٨٨م.

١٦- تاريخ الأدب العربي. أحمد حسن الزيات. دار نهضة مصر. القاهرة.

١٧- التبشير والاستعمار في البلاد العربية. د/ مصطفى خالدي، د/ عمر فروخ. المكتبة العصرية. صيدا. بيروت ١٩٨٦م.

١٨- تراث الإسلام. تصنيف جوزيف شاخت، كليفورد بوزورث، ترجمة د/ محمد زهير السمهوري وآخرين. سلسلة عالم المعرفة.الكويت. الطبعة الثالثة، المحرم ١٤١٩هـ ١٩٩٨م.

١٩- تفسير القرآن العظيم. للإمام ابن كثير. دار الغد العربي. القاهرة ١٤١١هـ ١٩٩٣م.

٢٠- الجامع لأحكام القرآن. للقرطبي. دار الكتب العلمية. بيروت. ١٤١٣هـ

١٩٩٣م.

٢١- حاضر العالم الإسلامي . تأليف لوثروب ستودارد. ترجمة عجاج نويهض. تعليق شكيب أرسلان. دار الفكر . بيروت.ط.الرابعة١٣٩٤هـ ١٩٧٣م.

٢٢- حضارة الإسلام. جوستاف إ. فون جرونيباوم. ترجمة عبد العزيز توفيق. الهيئة المصرية العامة للكتاب. القاهرة. ١٩٩٧م.

٢٣- حياة محمد. د/ محمد حسين هيكل، دار المعارف. مصر. ط. السادسة عشرة.

٢٤ ـ دفاع عن العقيدة والشريعة ضد مطاعن المستشرقين ، محمد الغزالي ، ص ١٧ ، دار الكتب الإسلامية ، القاهرة ، ط الخامسة ١٤٠٨هـ ١٩٨٨م .

٢٥ ـ رؤية إسلامية للاستشراق ، د. أحمد غراب ، المنتدى الإسلامي ، لندن .

٢٦- رسالة في الطريق إلى ثقافتنا. محمود محمد شاكر. سلسلة كتاب الهلال. دار الهلال بالقاهرة . العدد ٤٨٩. الطبعة الثالثة. سبتمبر ١٩٩١م.

٢٧- زاد المعاد في هدي خير العباد. لابن قيم الجوزية. تحقيق شعيب الأرنؤوط، عبد القادر الأرنؤوط. مؤسسة الرسالة. بيروت ط. السادسة والعشرون ١٤١٢هـ ١٩٩٢م.

٢٨- سنن الترمذي لأبي عيسى محمد بن سورة الترمذي. مراجعة وتصحيح صدقي محمد جميل العطار. دار الفكر. بيروت. ١٤١٤هـ ١٩٩٤م.

٢٩- السنة ومكانتها في التشريع الإسلامي. د/ مصطفى السباعي. المكتب الإسلامي. بيروت ط. الثانية ١٣٩٨هـ ١٩٧٨م.

٣٠- سنن النسائي بشرح الحافظ جلال الدين السيوطي وحاشية الإمام

السندي، دار الريان للتراث . القاهرة. ١٤٠٧هـ ١٩٨٧م.
٣١- سير أعلام النبلاء للإمام الذهبي . تحقيق شعيب الأرنؤوط وآخرين. مؤسسة الرسالة . بيروت. ط. الثامنة ١٤١٢هـ ١٩٩٢م.
٣٢- السيرة النبوية لابن هشام، تحقيق إبراهيم الأبياري وآخرين. دار الوفاق، بيروت.
٣٣- السيطرة الصهيونية على وسائل الإعلام العالمية. زياد أبو غنيمة. دار عمان. الأردن. الطبعة الأولى ١٤٠٤هـ ١٩٨٤م.
٣٤- شبابنا في وجه الإعصار الغربي. عبد القادر عبار. مجلة الأمة. تصدرها رئاسة المحاكم الشرعية والشئون الدينية في قطر. العدد الخمسون. السنة الخامسة. صفر ١٤٠٥هـ نوفمبر ١٩٨٤م.
٣٥- صحيح مسلم بشرح النووي. دار الريان. القاهرة.
٣٦- صفة الصفوة لابن الجوزى. دار الكتب العلمية. بيروت. الطبعة الأولى ١٤٠٩هـ ١٩٨٩م.
٣٧- صور استشراقية. د/ عبد الجليل شلبي. دار الشروق. القاهرة. الطبعةالثانية ١٤٠٥هـ ١٩٨٩م.
٣٨- العالم الإسلامي والمكائد الدولية خلال القرن الرابع عشر الهجري. فتحي يكن. مؤسسة الرسالة. بيروت . الطبعة الثالثة ١٤٠٣هـ ١٩٨٣م.
٣٩- الغارة على العالم الإسلام. تأليف إ.ل شاتيليه. لخصها ونقلها إلى العربية محب الدين الخطيب. ومساعد إليافي. المطبعة السلفية القاهرة. الطبعة الرابعة ١٣٩٨هـ.
٤٠- الغزو الفكرى التحدي والمواجهة . للمؤلف. دار الكلمة، المنصورة ،

مصر ، ط الأولى ١٤٢١هـ ٢٠٠٠م .

٤١- فتح الباري بشرح صحيح البخاري. للحافظ ابن حجر . دار الريان القاهرة. الطبعة الأولى ١٤٠٧هـ ١٩٨٦م.

٤٢- الفرنسي السافل في الجامعة الأمريكية. محمد القدوسي. جريدة الشعب المصرية. عدد ١٢٦٠، ٢٣ محرم ١٤١٩هـ ١٩مايو ١٩٩٨م.

٤٣- الفكر الإسلامي الحديث وصلته بالاستعمار الغربي. د/ محمد البهي. مكتبة وهبة. القاهرة. الطبعة العاشرة.

٤٤- فلسفة الاستشراق وأثرها في الأدب العربي الحديث.د/ أحمد سمايلوفيتش. دار المعارف. مصر.

٤٥- في ظلال القرآن. سيد قطب. دار الشروق. بيروت. الطبعة الخامسة عشر ١٤٠٨هـ ١٩٨٨م.

٤٦- قصة الحضارة. تأليف ول ديورانت. ترجمة محمد بدران. جامعة الدول العربية الطبعة الثالثة ١٩٧٤م.

٤٧- الكتاب المقدس. دار الكتاب المقدس في الشرق الأوسط.

٤٨- كتاب يجب وقفة. صلاح منتصر. جريدة الأهرام المصرية. العدد ٤٠٧٠٠ ، ١٧محرم ١٤١٩هـ ١٣ مايو ١٩٩٨م.

٤٩- مؤلفات في الميزان. أنو ر الجندي. هدية مجلة منار الإسلام الإماراتية. العدد الخامس. السنة الحادية عشرة.

٥٠- ما يقال عن الإسلام. عباس العقاد. مجموعة الأعمال الكاملة. دار الكتاب اللبناني. بيروت. الطبعة الأولى ١٩٧٤م.

٥١- مجمع الزوائد ومنبع الفوائد. للهيثمي. دار الكتاب العربي.بيروت.

الطبعة الثالثة ١٤٠٢هـ ١٩٨٢م.
٥٢- مختار الصحاح. محمد بن أبي بكر بن عبد القادر الرازى. مكتبة لبنان. بيروت ١٩٨٨م.
٥٣- المستدرك على الصحيحين. للحاكم. وبذيله التلخيص للذهبي. دار المعرفة . بيروت.
٥٤- المستشرقون. نجيب العقيقي. دار المعارف. مصر . الطبعة الرابعة.
٥٥- المستشرقون والإسلام. زكريا هاشم زكريا. المجلس الأعلى للشئون الإسلامية. القاهرة ١٣٨٥هـ ١٩٦٥م.
٥٦- المشروع الصهيوني لتفكيك العرب والمسلمين. د/ محمد عمارة . جريدة الشعب المصرية . عدد ١١٧٦، ٣ ربيع الأول ١٤١٨هـ ٨ يوليو ١٩٩٧م.
٥٧- المعجم الوسيط. مجمع اللغة العربية. القاهرة. الطبعة الثالثة.
٥٨- الموسوعة العربية الميسرة. بإشراف محمد شفيق غربال. دار إحياء التراث العربي. صورة طبق الأصل من طبعة ١٩٦٥م.
٥٩- موسوعة مقدمات العلوم والمناهج. أنور الجندي. دار الأنصار. القاهرة.
٦٠- الموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب المعاصرة. الندوة العالمية للشباب الإسلامي. الرياض. الطبعة الثانية ١٤٠٩هـ ١٩٨٩م.

*****

فهرس الموضوعات

*****

الاسْتشْرَاق

بَيْنَ الحَقِيقَةِ والتَّضْلِيلِ

مدخل علمي لدراسة الاستشراق

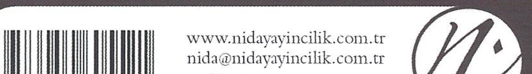
إن موضوع الاستشراق والمستشرقين من الموضوعات التي حصل بشأنها تلبيسٌ كثير، وأُريد لها أن تُفهَم على غير وجهها الصحيح، وصاحَبها في بعض الأحيان تضليلٌ يُعمِّي على الناس حقيقتها.

وقد تبنَّى أتباعُ المستشرقين وتلامذتُهم في عالمنا الإسلاميِّ والعربيِّ خطَّ الإسراف والمغالاة في تقدير المستشرقين، وجعْلهم فوق مستوى المؤاخذة والشبهات، وحاولوا تضليلَ الناس وخداعَهم بأن الحركة الاستشراقية ما هي إلا حركة علمية بريئة من الأغراض والأهواء، والتوجّهات العدائية لعالم الإسلام، وأنها لا علاقة لها البتة بمؤازرة القوى المعادية للإسلام والمسلمين، كما حرَص هذا الفريق على رسم صورة مشرقة وضَّاءة للاستشراق، لا تشوبها أيّةُ شائبة على الإطلاق.

وهذا المسلك لا يَعْدو أن يكون خداعا عن الحقيقة، وطمسا لمعالمها. وقد أردتُ أن يكون هذا البحث بمثابة مدخل إلى دراسة موضوع الاستشراق والمستشرقين، بيّنْتُ فيه حقيقةَ الاستشراق ومفهومَه، وذكرْتُ إطلالةً على نشأته وتاريخه، ودوافعَه، ووسائلَه، ثم أمطْتُ اللثام عن ملامح منهج البحث الاستشراقيِّ في الدراسات الإسلامية، ثم ختمْتُه بذكر نماذج من حملات المستشرقين ومفترياتهم على الإسلام، مقرونة بالرد عليها ونقْضِها.

د. إسماعيل علي محمد





www.nidayayincilik.com.tr
nida@nidayayincilik.com.tr